

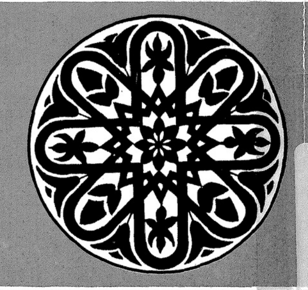

تقريب التراث

الحكم العطائية

لابن عطاء الله السكندري

شرح

ابن عباد النفزي الرندي





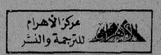
إعداد ودراسة

محمد عبد المقصود هيكل



إشراف ومراجعة

الدكتور عبد الصبور شاهين



مركز الأهرام للترجمة والنشر

تقريب التراث

(٢)

الحكم العطائية

لابن عطاء الله السكندري

شرح

ابن عباد النفزي الرندي

إعداد ودراسة

محمد عبد المقصود هيكل

إشراف ومراجعة

الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين

الطبعـة الأولى
١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام ـــ شارع الجلاء ـــ القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ ـــ تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

غلاف
حسين ابو زيد

المحتويات

صفحة

تصدير

هذا هو الكتاب الثانى فى سلسلة (تقريب التراث) ، وهو من أجلّ الأعمال التي قدمها سلف هذه الأمة ، قام على إنجازه إمامان من أئمة التصوف الإسلامى ، **أولهما** : ابن عطاء الله السكندرى ، الذى أبدع صياغة تجربته التصوفية فيما أسماه (الحكم) ، **وثانيهما** : ابن عباد النفزى الرندى فى شرحه لهذه الحكم ، وقد قيل بحق فى شأن هذا الشرح : « مما منَّ الله به على العباد شرح الحكم لابن عباد » .

وقد وقع اختيارنا على هذا الكتاب باعتباره قمة ما بلغته التجربة الصوفية من اقتدار فى التعبير الأدبى ، **فالحكم** فى رأينا شاهد على أن صاحبها لم يكن مجرد صوفى يردد عبارات رمزية ، تخفى وراءها شطحاته الفكرية ، بل كان أديباً واسع الأفق ، مستنير الفكر ، متنوع الاهتمام ، يعيش هموم مجتمعه الأخلاقية ، ويعبر عنها تعبيراً أخاذاً ، يقوم على المعنى العميق ، والصياغة الدقيقة ، إلى جانب الإحساس المرهف بجماليات اللغة ، والاستخدام الأمثل لتنوعاتها .

وقد حرص التقريب على أن يقدم ضمن هذا الكتاب (متن الحكم) ليسهل على القارىء إدراك هذه الصور البديعة ، وربما حفظها ، لتصبح من بعدُ جزءا من رصيده ، يتمثل بها فى المواقف المختلفة ، التى يَحْسُن فيها تلخيص المناقشة ، أو إدهاش السامع برأي ناصع ، وفكرة هادية ، وقول راق .

والحق أن التصوف فى هذه الحكم يبدو منهجا فى التوحيد الخالص ، بلغ الذروة التى عاشها أئمته وأقطابه ، وكأنهم نوع خاص من البشر ، يتميز بقدرة إيمانية ، وسلوك أخلاقى لا يقدر على تحقيقهما أكثر الناس .

ولاريب أن أئمة التصوف الأولين هم أئمة التوحيد الصادق ، والإيمان العميق ، فقد توجهوا إلى الله بكلياتهم ، وأخلصوا له النية والقول والعمل ، حتى بلغوا في ذلك كله المثل الأعلى الذى تطمح إليه همم الموحدين .

وأقصد بأئمة التصوف هنا أهل التقوى من المتصوفة السلوكيين ــ ولا أزكى على الله أحداً ــ لا أهل الزيغ من أصحاب الأفكار الشاطحة ، والمواقف الغالية ، فهؤلاء لا يسلم لهم قول ولا عمل ، لأن أقوالهم ألغاز تنتهى دائماً إلى الحلول ، وتهوى بغباء إلى قاع الشرك والتجسيد ، نتيجة إعتناقهم بعض الآراء الفلسفية الإغريقية ، ولأن أفعالهم شاذة تتجاوز قانون العقل ، وتحاول إلغاء منطق الفطرة ،، وتعطيل الشرائع والتكاليف .

إن أئمة التصوف السلوكي كانوا ــ كما يبدون فى هذا الكتاب ــ أعظم المؤمنين توحيداً وهو إتجاه محمود لا غبار عليه من الناحية الشرعية ، لأنه يمثل اجتهاداً فى اتباع القرآن والسُنّة ، يأخذ النفوس بالعزائم ، ويروضها على تحمل المكاره ، وإيثار الزهادة فى الدنيا ، طمعاً فى جنة الله ، وغراماً بحبه ، ووصولا إلى رضوانه .

وحسبنا أن نقرأ بعض الحِكَم العطائية ، فى هذا الشرح الجليل ، لنخرج بهذا الحُكْم المنصف لهؤلاء العباد الصادقين :

* الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها .
* ما نفع القلب شيء مثل عُزلة يدخل بها ميدان فكر .
* من علامات النجح فى النهايات الرجوع إلى الله تعالى فى البدايات .
* من أشرقت بدايته أشرقت نهايته .
* لا صغيرة إذا قابلك عدله ، ولا كبيرة إذا واجهك فضله .
* خفْ من وجود إحسانه إليك ، ودوام إساءتك معه ، أن يكون ذلك استدراجاً لك من حيث لا تعلم (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) .

فهذه الكلمات العذبة لا تصدر إلا عن فطرة نقية ، وقلب خائف وجل ، ونفس مطمئنة راضية مرضية ، ولذلك بلغ أصحابها مكانة عالية حفظها لهم التاريخ ، وهم بحول الله ومشيئته (لهم ما يشاءون عند ربهم) .

غير أن ذلك لا يمنعنا من أن نسجل أن التصوف الذى تألق على عهود أقطابه وأئمته قد إنحدر على أيدى الاتباع والمريدين ، حين انصرف هؤلاء عن الله وتوجهوا نحو أشخاص شيوخهم ، وسير أئمتهم ، فأصبح شغلهم الشاغل أن يمجدوا

الأقطاب ، ويسردوا سيرهم وكراماتهم ، بكل ما ضمت من زيادات وأكاذيب ، وتصورات خرافية لا أصل لها ، بل ربما نسبوا إليهم ما يحيله العقل ، ويأباه الشرع ، وبذلك غَرِق المتصوفة أو أهل الطرق فى العصور المتأخرة في مستنقع الشعوذة والخمول ، وصارت بركة الشيخ فى موضع رجاء الله ، (وسره الباتع) بديلا عن الاجتهاد فى العمل . وفشت هذه المعتقدات والبدع فى الناس حتى جعلوا من الأولياء متخصصين فى حل نوعيات من المشكلات ، وتحقيق الكرامات ، فواحد للمحاكم ، يسمى (قاضى الشريعة) ، وآخر للمدد ، وثالث للعواجيز ، ورابع للتائهين فى الزحام ، وخامس لتيسير الحمل على النساء العقّم ، وكثير من الأتباع يسندون إلى شيوخهم العلم بالغيب ، وهكذا ...

وكل ذلك يسجل فى الواقع ثلمة فى العقيدة من حيث كان انصرافا عن الله سبحانه إلى بعض مخلوقاته ، والله سبحانه يقول لنبيه ﷺ : « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله » ، فكيف بمن هم دون النبى قدراً وقرباً وطاعة؟!

إن التصوف الاسلامى بحاجة إلى تنقية وتصفية ، وذلك لا يتم إلا بالرجوع إلى المصادر الأصيلة ، التى تلقن الناس دروس التوحيد والإخلاص فيه ، وفى مقدمتها القرآن والسُنّة ، وما جاء على نهجهما من مؤلفات الصالحين من علماء الأمة ، كهذا الكتاب الذى نقدمه إلى قرائنا الأعزاء ، ونحن نعدهم بأن نلتمس لهم بعض المصادر التراثية التى تعمق هذا الاتجاه ، فلعلنا نُسْهم فى خلق مناخ من الفكر الإسلامي المعتدل ، الذى لا ينحرف يميناً أو يساراً ، وفى هذا المناخ تنمو شخصية المسلم على مبادىء عملية ، وسلوكيات نافعة ، ومنهج تربوى ينمى الايجابيات ، وينفى السلبيات ، ويخلص الأمة من انقسامات المذاهب ، والطرق ، والطوائف ، التى فتكت بالماضى والحاضر ، ويؤلفها على طاعة الله ، وفعل الخير ، أمراً بمعروف ، ونهياً عن منكر ، كما يرتقى بعقل المسلم وهمته إلى مستوى القضايا الكبيرة والحيوية ، بعيداً عن الجزئيات والتفاصيل ، ورواسب التاريخ . والله من وراء القصد ، يسدد خطانا على صراطه المستقيم .

عبد الصبور شاهين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله القائل فى كتابه الكريم : يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر إلا أولو الألباب[1] .

والصلاة والسلام على رسول الله القائل : أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

وبعد :

فيسعدنى كل السعادة أن أقدم هذه المختارات من كتاب " الحكم " لابن عطاء الله السكندرى

وهى من شرح " ابن عباد النَّفَزِى الرُّندى "

وكم وددت أن أقدم " الحكم " كلها كاملة ، ولكن حجم الكتاب ، ومتطلبات النشر ــ فرضا علىّ أن أكتفى بمختارات منها .

ولا شك أن للحكم العطائية قيمة تصوفية كبرى ، الى جانب قيمتها الأدبية والفنية ؛ فهى من أعظم ما صُنِّف فى علم التصوف ، وهى مثل عال للفكر الصوفى النقى ، الخالص من الشوائب ، المتلائم مع الكتاب والسنة ، المتوائم مع أقوال الصحابة وسلوكهم ، وهى إلى جانب هذا تضىء لنا صفحات مشرقة من التصوف الإسلامى ؛ ذلك أنها تخاطب وجدان المسلم ، وتسمو بروحه ، وتطهر نفسه ، وتعلو بها إلى أسمى درجات النقاء والطهر ، والكمال الروحى ، وتخلصه من المادية البغيضة ؛ وبهذا يسمو الإنسان نفسا وروحا وخلقا وسلوكا ، فيرتفع فوق شهواته ، ويعلو بغرائزه ، فلا يكون عبدا لها .

---

(١) البقرة / ٢٦٩ .

كما أنه يتمسك بالقيم الروحية النبيلة ، والمثل العليا الفاضلة التى ترفع من قدره ، وتصلح نفسه .

ومن هذا المنطلق ينأى التصوف عن السلبية ، ويصبح سلوكا إيجابيا ، يسمو بالفرد ، ويقوِّم من سلوكه ، ويرقى بالمجتمع ، ويوجهه نحو حياة أفضل .

أما قيمتها الأدبية والفنية ــ فقد جاءت على أعلى مستوى أدبى : صياغة وأسلوبا وفكرا ولغة ؛ فهى نموذج يحتذى للأدب العالى الهادف ، المحكم الصياغة ، الرفيع الأسلوب ، الجيد الفكرة ، السامى الموضوع .

والحكم العطائية إلى جانب قيمتها الصوفية ، وقيمتها الأدبية والفنية ــ توضح لنا معالم شخصية هامة من شخصيات التصوف بعامة ، والتصوف المصرى بخاصة . هى شخصية '' ابن عطاءالله السكندرى '' .

وقد سرت فى تقديم هذا العمل ، وعرض هذه المختارات على النهج التالى :

أولا : ترجمة للمؤلف الأصلى لهذه الحكم '' ابن عطاء الله السكندرى '' اعتمدت فيها أساسا على ما كتبه الأستاذ الدكتور '' أبو الوفا الغنيمى التفتازانى '' من خلال مؤلفه '' ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه '' .
وقد شملت النقاط التالية :

أ ــ اسمه ولقبه ونسبه وأسرته .
ب ــ مولده ونشأته بالإسكندرية ، وطلبه للعلم .
ج ــ اشتغاله بالتدريس بالقاهرة .
د ــ خصائص عصره من الناحية الدينية .
هـ ــ عصره من الناحيتين السياسية والاجتماعية .
و ــ وفاته وقبره ومسجده .
ز ــ مكانته باعتباره عالما وصوفيا .
ح ــ حياته التصوفية ، ودوره فى الطريقة الشاذلية ، وفى التصوف الإسلامى .

ثانيا : ترجمة لشارح الحكم " ابن عبَّاد النَّفَزِى الرُّندى " .
أوجزت فيها ما كتبه الدكتور " أبو الوفا الغنيمى التفتازانى " فى بحثه عن " ابن عباد النفزى الرندى " بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد (المجلد السادس ١٣٧٨ هـ ــ ١٩٥٨ م) .
وقد تناول هذا البحث مايأتى :

أ ــ اسمه ولقبه ونسبه
ب ــ مولده ونشأته
ج ــ دراسته للعلوم الدينية ، وسلوكه طريق التصوف
د ــ الطريقة الشاذلية ، ودور " الرندى " فيها ، ومدى تأثره بها .
هـ ــ جوانب من حياته الخاصة وأخلاقه .
و ــ توليه الخطابة والإمامة ــ وفاته وقبره ــ تلاميذه .
ز ــ مصنفات " الرندى " ــ خصائصها ــ قميتها التصوفية .

ثالثا : تعريف وتقديم للحكم العطائية
رجعت فيه كثيراً إلى كتاب " ابن عطاء الله السكندرى " للدكتور التفتازانى
وقد تناول ما يأتى :

أ ــ تصنيفها ــ عددها .
ب ــ خصائصها الفنية والأدبية ــ مدى الترابط بينها .
ج ــ موضوعاتها .
د ــ خصائصها التصوفية وقيمتها .
هـ ــ شروحها ــ نظمها ــ ترتيبها ــ أهميتها .

رابعــا : عرض نصوص الحكم : كل حكمة منها مستقلة محققة مرقمة .

خامسا : تناولتُ شرح ابن عباد الرندى للحكم بالطريقة الآتية :
ــ إبراز كل حكمة مختارة بصورة مستقلة ، محققة مضبوطة بالشكل .
ــ شرح ما فيها من لغويات ومصطلحات صوفية .

ـــ أعقبتُ ذلك بنص ما قاله '' ابن عباد '' فى شرحه للحكم مراعيا وضع علامات الترقيم والتنصيص فى كلام '' ابن عباد '' .

ـــ توثيق ما فى نص ابن عباد من آيات قرآنية ، وشرح الغامض من الألفاظ والعبارات ، وتعريف موجز لبعض الأعلام .

ـــ بعد هذا كتبت تعقيبا على كل حكمة يوضح معناها بإيجاز ، ويبين ما تهدف إليه ، ويشير إلى ما يتفق معها من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، ونصوص شعرية .

وقد اعتمدتُ فى هذا على ما وقفت عليه من شروح للحكم منها :

ـــ شرح '' ابن عباد النفزى الرندى ''

ـــ شرح المحقق شيخ الإسلام الشيخ '' عبد الله الشرقاوى ''

ـــ شرح الشيخ '' أحمد زروق '' ، تحقيق الشيخ '' عبد الحليم محمود '' دار الشعب .

ـــ شرح الشيخ '' عبد المجيد الشرنوبى الأزهرى .

ـــ إيقاظ الهمم فى شرح الحكم '' تأليف العارف بالله '' أحمد بن محمد بن عجيبة الحسينى ''

ـــ شرح الحكم المسمى '' من عطاء الله '' للشيخ '' محمد بن مصطفى بن أبى العلا ''

ومن المراجع :

١ ـــ ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه : الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى .

٢ ـــ صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد : (المجلد السادس ١٣٧٨ هـ ـــ ١٩٥٨ م)

٣ ـــ التنوير فى إسقاط التدبير : ابن عطاء الله السكندرى

٤ ـــ لطائف الأسرار : محيى الدين بن عربى

٥ ـــ مختصر تفسير ابن كثير : اختصار وتحقيق محمد على الصابونى .

٦ ـــ الرسالة القشيرية فى علم التصوف : '' للإمام أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى ''

٧ ـــ كشاف اصطلاحات الفنون : محمد على الفاروقى التهانوى (من مطبوعات الهيئة العامة للكتاب) .
٨ ـــ الموسوعة العربية الميسرة ـــ دار القلم ـــ ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر .
٩ ـــ المعاجم اللغوية ـــ مجمع اللغة العربية .

أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يهدينا سواء السبيل .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قدمت من هذه المختارات من ,, الحكم العطائية ،، . وأن أكون قد أسهمت فى تقريبها وتيسيرها بصورة تتيح للقارىء المعاصر مزيدا من الفهم والاستيعاب لهذا اللون من تراثنا الخالد ، والله ولى التوفيق ،، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

محمد هيكل

ابن عطاء الله السكندرى وعصره

اسمه ولقبه ونسبه وأسرته

اسمه : أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله
ويلقب بتاج الدين ، وبأبى الفضل وبأبى العباسى .
وذكر المترجمون له أنه من أهل الاسكندرية ، وينتسب اليها فيقال : " الإسكندرانى " أو " السكندرى " أو " الإسكندرى "(١)

وانفرد ابن عجيبة بذكر اسمه ونسبه بشىء من التفصيل ، فقال : هو الشيخ الإمام تاج الدين ، وترجمان العارفين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله ، الجذامى نسبا ، المالكى مذهباً ، الاسكندرى دارا ، القاهرى مزارا ، الصوفى حقيقة ، الشاذلى طريقة ، أعجوبة زمانه ، ونخبة عصره وأوانه ، المتوفى فى جمادى الآخرة سنة تسع وسبعمائة .(٢)

وكون ابن عطا الله جذامى النسب ، كما يذكر المترجمون له يعنى أنه من أصل عربى ، وأصل أجداده من الجذاميين ، الذين وفدوا إلى مصر ، واستوطنوا مدينة الإسكندرية بعد الفتح الإسلامى .

ويبدو أن أفراد أسرته التى نشأ فيها كانوا مشتغلين بالعلوم الدينية وتدريسها ؛ لأن جده الشيخ أبا محمد عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى كان فقيها معروفا

---

(١) ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه : أ د . أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ، وهو المرجع الذى اعتمدنا عليه هنا بصفه أساسية .
(٢) (ايقاظ الهمم فى شرح الحكم) ج ١ ص ١٠ .

فى عصره ، ولأن ابن عطاء الله نشأ كجده فقيها مشتغلا بالعلوم الشرعية ، وكان يطمح إلى بلوغ منزلته .

وهكذا يتبين أن " ابن عطاء الله " اسكندرى المولد ، مصرى الموطن ، عربى الأصل ، ولهذا قيمة كبرى من حيث إنه يمثل التصوف المصرى فى القرن السابع الهجرى من ناحية ، ولأنه يدحض من ناحية أخرى ما يزعمه بعض الباحثين فى التصوف الإسلامى من المستشرقين من أن العرب لم يكونوا أهلا للتصوف الذى هو فى زعمهم ــ نتاج للفكر الفارسى أو الهندى .

مولده ، ونشأته بالإسكندرية ، وطلبه العلم

ولد " ابن عطاء الله " بمدينة الإسكندرية ، حيث كانت تقيم أسرته ، وحيث كان جده مشتغلا بتدريس الفقه .

أما السنة التى ولد فيها فلم تعرف على وجه التحديد ، إذ لم يتعرض واحد من كتاب التراجم لذكرها .

ولد ابن عطاء الله ، ونشأ فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وتوفى بالقاهرة سنة ٧٠٩ هـ .

وتميزت حياته بثلاثة أطوار :

طوران منها بمدينة الاسكندرية ، وطور ثالث وأخير بمدينة القاهرة :

فالطور الأول بمدينة الاسكندرية هو الواقع قبل عام ٦٧٤ هـ . وقد نشأ فيه " ابن عطاء الله " طالبا لعلوم عصره الدينية من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو وبيان ، وغيرها ــ على خيرة أساتذتها فى ذلك الوقت .

أما الطور الثانى فهو يبدأ من سنة ٦٧٤ هـ وهى السنة التى صحب فيها " أبا العباس المرسى " وينتهى بارتحاله منها إلى القاهرة وفيه تصوف على طريقة الشاذلى ، ولم ينقطع فى نفس الوقت عن طلب العلوم الدينية ، ثم اشتغل بتدريسها حينا .

وأما الطور الثالث فيبدأ بارتحاله من الاسكندرية إلى القاهرة ليقيم بها ، وينتهى بوفاته بالقاهرة سنة ٧٠٩ هـ وهو طور نضوجه واكتماله كصوفى وفقيه .

وكانت مدينة الإسكندرية فى عصر '' ابن عطاء الله '' مركزا هاما من المراكز العلمية بالقطر المصرى وكان بها كثير من خيرة العلماء فى الفقه والتفسير والحديث والأصول وسائر العلوم العربية والاسلامية ، إلى جانب كونها زاخرة بجملة من شيوخ الصوفية الصالحين .

« فابن عطاء الله » قد نشأ بمدينة الاسكندرية فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وقد تتلمذ على كبار علماء عصره فى مختلف العلوم ، بحيث يمكن القول بأنه قد تهيأت له باتصاله بهم ثقافة لغوية فقهية أصولية شاملة إلى جانب ثقافته الصوفية التى تكونت له بصحبته لشيخه '' أبى العباس المرسى '' .

اشتغاله بالتدريس بالقاهرة

بعد وفاة الشيخ '' أبى العباس ' سنة ٦٨٦ هـ ـــ أصبح '' ابن عطاء الله '' وارث علمه ، والقائم على طريقته ، والدعوة لها من بعده ، وكان قبل وفاة '' المرسى '' أيضا قد أصبح أهلا للتصدر لتدريس الفقه بمدينة الإسكندرية ، ثم رحل من الإسكندرية إلى مدينة القاهرة ليقيم فيها ، وليشتغل بالتدريس والوعظ ولعله استوطنها قبل وفاة شيخه ـــ '' أبى العباس المرسى '' سنة ٦٨٦ هـ بقليل .

وقد تخرج على يدى '' ابن عطاء الله '' جملة من الفقهاء والصوفية ، من أشهرهم الإمام ''تقى الدين السبكى '' المتوفى ٧٥٦ هـ ، والد '' تاج الدين السبكى '' صاحب طبقات الشافعية الكبرى المتوفى ٧٧١ هـ .

وهكذا تتلمذ على ابن عطاء الله من هم فى طبقة الأئمة ، وهذا دليل على علو منزلته ، وعلى أن طريقته ـــ كما يقول السيوطى ـــ لم يكن بها أدنى عوج ، أى:إنها دائرة مع الكتاب والسنة .

عصره من الناحية الدينية
ودوره في مدرسة الإسكندرية المالكيـــة

تقع حياة " ابن عطاء الله السكندرى " فى النصف الأخير من القرن السابع الهجرى ، وفى العقد الأول من القرن الثامن الهجرى ، فما هى خصائص هذه الحقبة فى مصر من ناحية المذاهب الدينية ؟ .

يحدثنا التاريخ بأن مذهب الشيعة كان قد اختفى بمصر منذ أواخر القرن السادس الهجرى حين قضى عليه السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٤ هـ وسادت بمصر منذ ذلك الوقت مذاهب أهل السنة .

وحين نشأ « ابن عطاء الله » فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى — وجد المذهب المالكى الذى ينتمى إليه قد أصبح على قدم المساواة مع جميع مذاهب أهل السنة الأخرى ، كما وجد السيادة لعقيدة أبى الحسن الأشعرى .

وكان للمذاهب الدينية السائدة فى هذا العصر أثر كبير فى اتجاه "ابن عطا الله " الدينى ، فقد كان مالكى المذهب من ناحية ، ومصطنعا عقيدة أبى الحسن الأشعرى الكلامية من ناحية أخرى . وكان بمدينة الاسكندرية على عصره مدرسة فقهيّة مالكية معروفة أسسها الشيخ أبو الحسن الإبيارى من أكبر علماء المالكية فى عصره ، والمتوفى سنة ٦١٨ هـ .

وكان " ابن عطا الله " من حيث هو فقيه مالكى منتسبا الى هذه المدرسة . ثم كان فى طور اكتماله كفقيه امتداد لهذه المدرسة السكندرية ، إذ كان يدرس فى الأزهر العلوم الظاهرة من فقه وحديث وغيرها ، إلى جانب تدريسه للتصوف ، ووعظه للعامة من الناس .

وقد صنف " ابن عطاء الله " فى فقه المالكية ، وذكر له السيوطى مصنفا فيه عنوانه " مختصر تهذيب المدونة للبرادعى " .

عصره من الناحيتين السياسية والاجتماعية

تقع حياة صوفينا السكندرى كلها إبان حكم دولة المماليك البحرية التى كان أول ملوكها المعز أيبك التركمانى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

وكانت الحياة السياسية فى مصر فى النصف الأخير من القرن السابع الهجرى — غير مستقرة من الناحية السياسية ؛ لأن التتار حاربوا سلاطين المماليك ، وهددوا مصر تهديدا مستمرا إبان الفترة الواقعة بين سنتى ٦٧٠ هـ و ٧٠٢ هـ .

وكذلك كان نظام الحكم استبدادياً ، ينفرد فيه السلاطين بجميع السلطات ، وكثيرا ما كانت تحدث الفتن والمؤامرات بين المماليك والسلاطين ، طمعا فى الوصول إلى الحكم فلم يكن ثمة استقرار داخلى أيضا .

وكان سكان مصر ينقسمون إلى طبقتين متمايزتين تماما : إحداها : طبقة المماليك ، وهى الفئة القليلة من الحكام العسكريين الذين يمثلون الأرستقراطية الحربية ، والأخرى هى العامة من المصريين ، ولم يكن لهم أى صوت فى حكم البلاد .

وإلى جانب هاتين الطبقتين طبقة ثالثة ، وهى وإن كانت من الشعب إلا أن أفرادها كانوا يتمتعون باحترام السلاطين ، وكانت هذه الطبقة هى الحائل الوحيد بين استبداد السلاطين والشعب ، وهى طبقة العلماء من الفقهاء والصوفية .

وكان " ابن عطاء الله " من حيث هو فقيه وصوفى بارز فى عصره — من هذه الطبقة الثالثة ، فكان لا يخشى بأس هؤلاء السلاطين ، ويرى أن من أهم واجبات الصوفى — أمر الملوك بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر إذا كانوا على غير الجادة القويمة ، والرحمة بجميع العباد ، والشفقة بالفقراء ، والانتصار لهم ، وتقديمهم على الأغنياء ، وأبناء الدنيا من الملوك والأمراء .

و « لابن عطاء الله » فى هذا موقف مشهود ، يقول عن نفسه فى " لطائف المنن "... ولما اجتمعت بالسلطان الملك المنصور لا جين رحمه الله قلت له : " يجب عليكم الشكر لله ، فإن الله قرن دولتكم بالرخاء ، وانشرحت قلوب الرعايا بكم ،

والرخاء أمر لا يستطيع الملوك تكسبه . ولا استجلابه ، كما يتكسبون العدل والجود والعطاء .

قال : وما هو الشكر ، قلت : الشكر على ثلاثة أقسام : شكر اللسان ، وشكر الأركان ، وشكر الجنان ، فشكر اللسان التحدث بالنعمة ، قال تعالى : '' وأما بنعمة ربك فحدث '' وشكر الأركان العمل بطاعة الله ، قال سبحانه وتعالى : « اعملوا آل داود شكرا » ، وشكر الجنان الاعتراف بأن كل نعمة بك ، أو بأحد من العباد هى من الله ، قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله » فقال : وما الذى يصير به الشاكر شاكرا ، قلت له : إذا كان ذا علم فبالتبيين والإرشاد ، وإذا كان ذا غنى فبالبذل والإيثار للعباد ، وإذا كان ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ، ودفع الأضرار والأنكاد (١) .

فهذا موقف مشرف وقفه '' ابن عطاء الله '' من أحد سلاطين عصره ، ينطوى على علو همته ، وشدة زهده فى الدنيا ، وثقته بالله وبنفسه ، وهو صفحة مشرقة فى تاريخ التصوف المصرى ، تبين أن الشعب لم يكن يستكين دائما لسلاطينه المستبدين ، وإنما كان من أبنائه صوفى '' كابن عطاء الله '' يقف فى وجه السلطان منهم ، يعظه حين يراه محتاجا إلى الوعظ ، ويحثه فى عبارة بليغة على أن شكر نعمة الملك والجاه والسلطان ــ لا يكون إلا بتحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس ، ودفع الأضرار والأنكاد عن الرعية .

وفاته وقبره ومسجده

بعد حياة خصصت للدعوة إلى طريق الله ، وتربية السالكين ــ توفى صوفينا السكندرى فى شهر جمادى الآخرة عام ٧٠٩ هـ .

وكانت وفاته بالمدرسة المنصورية بالقاهرة ، ويرجح الدكتور '' التفتازانى '' أن ابن عطاء الله قد تولى التدريس فى هذه المدرسة ، وأنه قد وافته منيته بها ، وذكر

---

(١) لطائف المنن : ص ١٢٨ : ابن عطاء الله : ص٣٣ ، ٣٤ .

" المناوى " أن " ابن عطاء الله " دفن بالقرافة بقرب بنى الوفا ، وقد حدد الاستاذ " محمد رمزى " موضع قبره فذكر ما نصه : قبر " ابن عطاء الله السكندرى " لا يزال موجودا بجبانة سيدى على ابى الوفا الكائنة تحت جبل المقطم من الجهة الشرقية لجبانة الإمام الليث .

ولابن عطاء الله مسجد ينسب إليه بالإسكندرية ، ذكره " على مبارك " فى خططه ، وقال : إنه مشهور بالإسكندرية ، واعتبره من المساجد الجامعة فيها .

مكانتـــه

عرف المترجمون " لابن عطاء الله السكندرى " بعد وفاته مكانته كعالم وصوفى له خطره ، وهؤلاء المترجمون ليسوا جميعا من كتاب تراجم الصوفيه ، وإنما غالبيتهم من المؤرخين ، وكتاب طبقات الفقهاء . وليس من شك فى أن شهادات المؤرخين ، وكتاب طبقات الفقهاء أدل على منزلته من شهادات الصوفيه أنفسهم له ؛ لأنها تكون عادة أبعد عن التحيز ، والمبالغة فى ذكر المناقب . وقد تنبأ له أستاذه " المرسى " بهذه المنزله التى أشار اليها المترجمون وكثير غيرهم من قبل ، لما كان يراه من ذكائه وملازمته له ، على نحو ما يدل غليه — إبان تلمذته عليه — قوله له : والله ليكونن لك شأن عظيم وقوله أيضا : الزم فوالله لئن لزمت لتكونن مفتيا فى المذهبين : يريد مذهب أهل الشريعة (أهل العلم الظاهر) ومذهب أهل الحقيقة (أهل العلم الباطن) . [1]

ويقول عنه صاحب الديباج المذهب : كان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه ونحو وأصول وغير ذلك . وكان رحمه الله متكلما على طريق التصوف ، واعظا انتفع به خلق كثير ، وسلكوا طريقه [2]

وقال عنه تاج الدين السبكى المتوفى عام ٧٧١ هـ : إنه كان إماما عارفا صاحب إشارات وكرامات ، وإن له قدما راسخة فى التصوف [3]

(١) ابن عطاء الله ص ٣٧ — ٣٩ ، إيقاظ الهمم : ص ١٠
(٢) الديباج ص ٧٠ ابن عطاء الله ص ٣٨
(٣) طبقات الشافعية الكبرى ج٥ ص ١٧٦ — ابن عطاء الله ص ٣٨ .

حياة ابن عطاء الله التصوفية

كيف بدأت حياته التصوفية ؟

نشأ '' ابن عطاء الله '' منكرا على الصوفية ، وعلى ما يعبرون عنه من علوم وأذواق بحكم بيئته وثقافته الفقهية المتقيدة بظاهر النصوص الشرعية ، والتى لا تسيغ التصوف من حيث هو علم لأحكام الباطن ، فقد كان جده لوالده أحد فقهاء عصره المنكرين على الصوفية أشد الإنكار .

وممن كان ينكر عليهم '' ابن عطاء الله '' من الصوفية الشيخ '' أبو العباس المرسى '' أشهر صوفية الإسكندرية فى عصره .

لكن هذه الخصومة وهذا الإنكار أثار فى نفسه عدة خواطر ، جعلته يحاسب نفسه ، وإذا بهذه المحاسبة تشتد وتعنف ، وإذا به يحس من نفسه أزمة شديدة ، خشى معها أن يكون منكرا على الشيخ بغير حق ، ولذا اندفع بشدة إلى مجلس '' أبى العباس '' ، ليتبين ما إذا كان محقا فى إنكاره وخصومته أم ليس الأمر كذلك ، وبعد هذا اللقاء اقتنع '' ابن عطاء الله '' بأبى '' العباس المرسى '' وأقر بعلمه وفضله ، وذهب ما كان عنده من إنكار ، وانبهر عقله بما سمعه من علوم الحقيقة ، ثم طرأت على '' ابن عطاء الله '' حالة من حالات الوجد ان الخاصة ، وهى حالة من حالات القلق ، لا يدركنهه ، ولا يعرف سببه ، وهكذا لم يجد '' ابن عطاء الله '' بدا من أن يلتجىء إلى الله لعجزه وقصوره فهو لم يتوصل بعلمه وفكره إلى ما فيه غناء قلبه .

ومن ثم فكر فى أن يعود إلى الشيخ '' ابى العباس '' مرة أخرى ، فهو رجل عارف بالله ، وبطرق السماء ، ويمكن أن يتخذه مثلا أعلى ، وهو الوحيد الذى يبدو أنه قادر على إزاله همومه وهواجسه ، وبعد هذا اللقاء بشيخه تحولت حالة القلق النفسى المبهم إلى حالة من الاستقرار النفسى .

وهكذا كان '' أبو العباس '' طبيبا روحانيا عالما بكمالات القلوب وأمراضها وأدوائها ؛ ولذلك اتخذه '' ابن عطاء الله '' فى حياته الصوفية مثلا أعلى فى العلم والأخلاق ، وقد صحب '' ابن عطاء الله '' شيخه « المرسى » اثنى عشر عاما وتلقى عنه الطريقة الشاذلية .

حياته سالكا

كان '' ابن عطاء الله '' ملازما لشيخه ملازمة تامة على غير ما كان عليه بعض تلاميذ '' المرسى '' ولذلك كان شيخه يحبه كل الحب . وقد أثر التوجيه السلوكى من الشيخ '' أبى العباس '' فى '' ابن عطاء الله '' تأثيرا كبيرا ، فقد شكل مذهبه الصوفى فى قواعد السّلوك بأسره ، وهكذا كانت حياته الصوفية العملية ذات أثر بعيد فى تشكيل مذهبه النظرى .

وقد شكل هذا التوجيه فى الطريق مذهب '' ابن عطاء الله '' فى إسقاط التدبير فى السلوك ، وكان '' ابن عطا الله '' فى طور سلوكه يتمثل الشيخ '' أبا العباس المرسى '' أمام ناظريه كلما حزبه أمر ، أو وقع فى ضيق ، وليس هذا بغريب ما دام ينظر إلى شيخه باعتباره المثل الأعلى فى السلوك والأخلاق . '' فابن عطاء الله '' كان خاضعا فى حياته الصوفية لما يخضع له السالكون من إشراف شيخ مرشد بصير عارف بالطريق إلى الله ، ولما يصنعونه من مجاهدة النفس ، ومحاربة الخواطر المذمومة ، بغية التوصل إلى الكمال الأخلاقى . ومازال شيخه يتدرج به فى مداح الطريق حتى غرس فى قلبه المعرفة ، فأينعت ثمراتها ، وفاحت زهراتها ، وليس من شك فى أن الوصول إلى المعرفة بالله كان أسمى ما وصل اليه '' ابن عطاء الله '' بل وكل صوفى سالك للطريق إلى الله'' .

حياته صوفيا كاملا

وهكذا أصبح '' ابن عطاء الله '' على يدى شيخه '' المرسى '' صوفيا كاملا ، واصلا إلى الله تعالى عارفا به . وبعد هذا قام '' ابن عطا الله '' بدوره كصوفى

مرشد ، وكرس حياته للدعوة إلى طريق الله وتهذيب المريدين على طريقة الشاذلية ، وكان له فيها شأن أى شأن .

دوره فى الطريقة الشاذلية

تتلخص تعاليم الطريقة الشاذلية التى ينتمى إليها صوفينا '' ابن عطاء الله '' فى أصول خمسه هى : تقوى الله فى السر والعلانية ، واتباع السنة فى الأقوال والأفعال ، والإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار ، والرضا عن الله فى القليل والكثير ، والزجوع إلى الله فى السراء والضراء .

وأبرز تعاليمها كذلك مبدأ القول بإسقاط التدبير والاختيار ، وهو الأصل الذى ينى عليه الطريق كله ، وهو المبدأ الذى عمقه '' ابن عطا الله '' وجعله مذهبا كاملا فى التصوف .

ولم يترك '' الشاذلى '' مصنفات فى التصوف ، ولا تلميذه '' أبو العباس المرسى '' وكل ما خلفاه جملة أقوال فى التصوف ، وبعض الأدعية والأحزاب ، وكان '' ابن عطاء الله '' هو أول من جمع أقوالهما ، ووصاياهما وأدعيتهما ، وترجم لهما ، فحفظ بذلك تراث الطريقة الشاذلية الروحى ، ولولاه لضاع هذا التراث ،ثم كان إلى جانب هذا أول من صنف مصنفات كاملة فى بيان آداب الطريقة الشاذلية النظرية والعملية ، ومن هنا جاءت أهميته البالغة فى الطريقة والتعريف بها ، وبقواعدها لكل من جاء بعده .

واذا كان '' لابن عطاء الله '' هذه الأهمية الكبرى فى حفظ تراث الطريقة من الناحيتين النظرية والعملية ، فإن له أهمية أخرى من ناحية نشر الطريقة بمصر ، وبغيرها من الأقطار الإسلامية ، وبعبارة أخرى له أهمية فى سند الطريقة من حيث تلقين العهود حتى إنه يمكن القول بأن جميع طرق الشاذلية ترجع بالسند إلى شيخنا السكندرى .

دوره فى التصوف المصرى

يعد صوفينا السكندرى ــ إلى جانب كونه دعامة رئيسية فى بناء المدرسة الشاذلية ــ أبرز مثل للتصوف المصرى فى النصف الأخير من القرن السابع .

وحينما نشأ '' ابن عطاء الله '' بالإسكندرية كان بها الكثير من الصوفية المصريين المشهورين بالزهد والورع كأبى القاسم القبارى المالكى الاسكندرانى المتوفى سنة ٦٦٢ هـ ، وياقوت الحبشى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، وشرف الدين محمد بن حماد البوصيرى الشاعر صاحب البردة المشهورة فى مدح الرسول ، والمتوفى سنة ٦٩٥ هـ ، وكان من تلاميذ '' المرسى '' ــ وفى عصر صوفينا ازدهرت حركة الصوفية كالطريقة الرفاعية ، والطريقة الأحمدية ، والطريقة البرهامية .

وقد شارك '' ابن عطاء الله '' أيضا فى ازدهار حركة الطرق الصوفية فى عصره ، فقد كان المبشر بالطريقة الشاذلية ، والقائم عليها من بعد شيخه '' المرسى '' . وقد أعلى '' ابن عطاء الله '' من شأن التصوف المصرى ، حيث انتشرت تعاليمه وآراؤه فى البيئة المصرية فى حياته ، وأيضا بعد وفاته فى كثير من الأقطار الإسلامية الأخرى ، على أيدى تلاميذه الذين تفرعت عنهم فروع الطريقة فيما بعد ، وعلى أيدى شراح مصنفه '' الحكم '' منذ وفاته إلى العصر الحاضر .

خصائص التصوف المصرى

ما يصدق على صوفية المصريين ، وتصوفهم يصدق على '' ابن عطاء الله '' .

ــ فهو غير قائل بوحدة الوجود ، ولا الحلول ، ولا الاتحاد بين الخالق والمخلوق ، وهو متقيد إلى أبعد حد بمذهب أهل السنة ، وهو فى هذا خاضع لمقتضى التصوف المصرى أولا ، والتصوف الشاذلى المغربى ثانيا ، وكلاهما قائم على الكتاب والسنة .

ــ وتصوفه تصوف إسلامى خالص عن الآراء والمعتقدات الأجنبية ، فهو قد نشأ فى بيئة إسلامية خالصة ، وتصوف على طريقة الشاذلى التى لا أثر فيها لعناصر أجنبية ، وعاش فى مصر حيث كانت السيادة لمذهب أهل السنة .

ـــ ويمكن القول بأن تصوفه تصوف إسلامى سنّى خالص ، يهدف أولا وأخيرا إلى التهذيب الخلقى والتربية الروحية ، وبأن فيه روحا مصرية خالصة من ناحية التعبير عن الأفكار ، وتصوير الحياة المصرية فى عصره .

ـــ ويعنى تصوفه عناية كبيرة بالجانب العملى الخلقى من التصوف .

ابن عبَّاد الرُّنْدى
حياته ومؤلفاتــه

تمهيــــد

إن تاريخ التصوف الإسلامى فى الأندلس حافل بكثير من الشخصيات الهامة التى أثرت فى تاريخ الفكر الإسلامى والفكر المسيحى على السواء.
ومن هذه الشخصيات " ابن عباد النفزى الرندى " الصوفى الأندلسى الذى كان ممثلا للمدرسة الشاذلية الصوفية فى أسبانيا فى القرن الثامن الهجرى.

إن مذهب " الرندى " الصوفى قد أثر بشكل واضح فى تصوف المشارقة، وكانت له مكانة ممتازة عند أولئك المشارقة بالإضافة إلى ما تهيأ له من مكانة بارزة فى التصوف المغربى والتصوف المسيحى، فى حياته وبعد مماته.

حيــاة الرُّنْـدى

اسمه ولقبه ونسبه ـــ مولده ونشأته ـــ دراسته للعلوم الدينية ـــ سلوكه طريق التصوف ـــ دوره فى الطريقة الشاذلية ـــ بعض جوانب من حياته الخاصة وأخلاقه ـــ توليه الإمامة والخطابة بمسجد القرويين بفاس ـــ وفاته وقبره ـــ تلاميذه.

• تلخيص: من صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد. المجلد السادس ١٣٧٨ هـ ١٩٥٨ م. بحث عن " ابن عباد الرندى "؛ أ. د أبو الوفا الغنيمى التفتازانى صفحات من ٢٢١ ـــ ٢٤٥.

اسمه ولقبه ونسبه

يذكر المترجمون لصوفينا الأندلسى : أن اسمه '' محمد بن ابراهيم بن أبى بكر بن عبد الله بن مالك بن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن يحيى '' الشهير '' بابن عباد '' وأنه يكنى بأبى بكر عبد الله النفزى ، ويذكرون أنه حميرى النسب ، وأنه '' الرندى '' بلدا .

مولده ونشأته

ولد ابن عباد برندة (RONDA) ، وهى مدينة واقعة بجنوب الأندلس فى الطريق بين أشبيلية ومالقة ، وذلك فى سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٢ ـ ١٣٣٣ م) وكانت '' رندة '' فى ذلك الوقت مستقرة تماما تحت حكم المسلمين .

وقد نشأ '' ابن عباد '' فى أسرة عريقة على أكمل طهارة وعفاف وصيانة وكان لبعض أفراد أسرته اشتغال بالعلوم الدينية .

دراسته للعلوم الدينية

وقد تولى أبوه وخاله أمر تنشئته وتعليمه منذ البداية ، فأخذ عن والده القرآن ، وأتم حفظه ، وله من العمر سبع سنوات ، وأخذ عن خاله علوم اللغة .

وتتلمذ '' الرندى '' أيضا '' برندة '' على أستاذ آخر هو الشيخ الفقيه الخطيب أبو الحسن على بن الحسن الرندى .

وقد دفعه طموحه إلى استكمال تعليمه فى سائر العلوم الإسلامية على أيدى أساتذة آخرين فى غير بلده ؛ لذلك نجده يرحل إلى المغرب ويطوف ببلاده المختلفة ، ويتصل بأساتذة متعددين فى العلوم الدينية على اختلافها .

كما أقام بتلمسان وفارس ؛ ليأخذ عن علمائها .

وقد انتمى '' الرندى '' إلى المدرسة الفقهية المالكية التى وجدت فى ذلك العصر فى المغرب ، وكانت حافلة بطائفة من العلماء المبرزين ، وقد تتلمذ '' الرندى '' عليهم فى علوم اللغة والفقه والأصول والكلام والمعقولات .

ونظرة إلى ما كان يقرؤه الرندى على أولئك الأساتذه الكبار من مصنفات — تظهر لنا ثقافة الرندى ومكوناتها التى تهيأت له قبل سلوك طريق التصوف . فقد قرأ فيما قرأ من كتب الفقه : '' التهذيب '' و '' مختصر ابن الحاجب '' ومن كتب الحديث : '' الموطأ '' ، وصحيح مسلم ، ومن كتب الكلام : كتاب '' الإرشاد '' لأبى المعالى الجوينى ، وكتاب '' ابن الحاجب '' الأصلى ، وعقيدة ابن الحاجب ؛ وبهذا قد تهيأت له ثقافة دينية وعقلية ، تتضح من خلال مصنفاته فى التصوف ، فهى — إلى جانب ما تتضمنه من الأذواق الصوفية — متمشية مع الكتاب والسنة ، ولا تخلو من التعمق العقلى ، وقد استطاع بذكائه أن يحوز إعجاب أساتذته .

سلوكه طريق التصوف

وبعد دراسة الرندى للعلوم الدينية على هذا الوجه — نجده يتجه فجأة إلى سلوك طريق التصوف ، ولكن ما الدوافع التى جعلت الرندى يقبل على التصوف ؟

إن المترجمين له لم يتعرضوا لبيان هذه الدوافع ، وكل ما نجده لديهم عبارة للرندى قالها عن نفسه عندما توجه لصحبة الشيخ الصوفى '' ابن عاشر '' وأصحابه '' بسلا '' يقول فيها : قصدتهم لوجدان السلامة معهم .

فإذا كان الأمر كذلك ، فإنه يعنى أن الرندى كان قبل صحبته لهم — يعانى من عدم وجدان الراحة والطمأنينة لسبب لا نعلمه .

ولعله كان قد طالع قبل ذلك بعض كتب التصوف ، وسمع عن أحوال بعض الصوفية وعن وجدانهم السلامة ، فأراد أن يهتدى بسلوكهم ، وذهب ليبحث عمن يكون موجودا من شيوخ التصوف بالمغرب ليسلك على أيديهم .

وكان على عصر '' الرندى '' بالمغرب مدارس صوفية يجمع أصحابها جميعا طابع واحد ، هو التقيد بالكتاب والسنة ، والبعد عن تيار التصوف الفلسفى ، ومن أولئك الصوفية المغاربة الذين تتلمذ عليهم الرندى الشيخ '' أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر '' المتوفى سنة ٧٦٣ هـ وكان صاحب مدرسة صوفية ، وأصله من الأندلس .

انتسب صوفينا إلى الطريقة الشاذلية ، ومن المرجح أن إنتسابه إلى هذه الطريقة ، جاء فى وقت متأخر بعض الشىء من حياته ، حينما أشار عليه بعض الأصحاب بأن يشرح لهم كتاب '' الحكم '' لابن عطاء الله السكندرى ، وبذلك لم يكن انتسابه إلى هذه الطريقة بالتلقى والسند ، وإنما كان بإقبال منه على دراستها ممثلة فى '' حكم '' السكندرى .

الطريقة الشاذلية
ودور الرندى فيهـــا ، ومـــدى تأثره بتعاليمهـــا

تنسب الطريقة الشاذلية التى ينتسب إليها '' ابن عباد الرندى '' إلى الشيخ '' أبى الحسن الشاذلى (٥٩٣ هـ ـــ ٦٥٦ هـ) الذى ينتهى نسبه وسنده كما يقول المترجمون له إلى الحسن بن على بن أبى طالب . وكان مبدأ ظهوره ببلدة '' شاذلة '' وهى قرية من تونس .

وكان الشاذلى صوفيا عالما بالعلوم الدينية على إختلافها ، ومربيا مشهودا له بعلو المنزلة فى التصوف ، وكان له أتباع ومريدون كثيرون بالمغرب .

وقد هاجر الشيخ '' أبو الحسن الشاذلى '' إلى مصر حوالى سنة ٦٤٢ هـ وصحبه فريق من أتباعه منهم الشيخ '' أبو العباس المرسى '' المتوفى بالإسكندرية سنة ٦٨٦ هـ . وقد استقر بها هو وأصحابه . ولما توفى الشاذلى تولى أمر الدعوة من بعده تلميذه '' ابو العباس المرسى '' الذى صحبه من المصريين تلاميذ كثيرون ، أبرزهم '' ابن عطاء الله السكندرى '' (٦٥٨ ـــ ٧٠٩ هـ) صاحب الحكم .

ويرجع الفضل فى حفظ تراث الطريقة الشاذلية إلى شخصين :

أولهما : '' ابن عطاء الله السكندرى '' الذى جمع أقوال '' الشاذلى '' و '' المرسى '' ووصاياهما وأدعيتهما وترجم لها ، فحفظ بذلك تراث الطريقة الشاذلية ، ثم كان إلى جانب هذا أول من صنف مصنفات كاملة فى آداب الطريقة النظرية والعملية .

وثانيهما : '' ابن عباد الرندى '' الذى شارك بشرحه لحكم ابن عطاء الله السكندرى فى التعريف بآراء الشاذلية على نحو لم يسبق إليه ، وأتاح بهذا الشرح وبسائر مصنفاته الأخرى أن تذاع آراء الشاذلية فى المغرب وفى الأندلس ، فكانت له بذلك أهمية كبيرة فى انتشار الطريقة هناك ، وحفظ تراثها الروحى لكل من جاء بعده من الشاذلية المتأخرين فى المغرب ، بل وفى المشرق أيضا .

جوانب من حياته الخاصة وأخلاقه[1]

يذكر لنا المترجمون لصوفينا الأندلسى ــ أنه لم يتزوج قط ــ ولم يتخذ لنفسه أمة ، وكان يتولى أمر خدمته بنفسه . وقد اعتبر '' أسين بلاثيوس '' هذا مظهرا لعفته خصوصا وأنه قد أثر عن '' ابن عباد '' أنه كان يقول : إن الله قد أكرمه بعدم الرغبة فى النساء ، حتى ولا فى النظر إليهن من باب الفضول . ويرى الدكتور التفتازانى أن عدم زواج '' ابن عباد '' . هو تصرف شخصى ؛ حتى لا يتبادر إلى الذهن أن صوفية الاسلام يرونه ــ كما يراه صوفية المسيحيين ــ أمرا ضروريا فى حياة التعبد وفى التزام فضيلة العفة .

فكثير من الشيوخ الشاذلية تزوجوا وأنجبوا ولم يروا فى هذا ما ينقص من كمالهم كصوفية ، وإليك ما يقوله '' ابن عطاء الله '' فى هذا الشأن : من أصول طريقهم

---

(١) نفح الطيب ، ج٣ ص ١٧٦ ، سلوة الأنفاس ، ج٢ ص ١٣٥ . عن بحث ابن عباد الرندى أ . د التفتازانى .

أن من دخلها وهو زوج فلا يطلق ، أو عزب فلا يتزوج حتى يكمل ؛ لترى أنهم يجيزون أن يكون الصوفى متزوجا ، وواضح أنهم فى إباحتهم الزواج مقتدون بشريعة الإسلام وسنة نبيه .

أما ما يتعلق بزيه ففى نفح الطيب رواية جاء فيها أن الرندى كان يلبس فى داره المرقعة ، فإذا خرج سترها بثوب أخضر أو أبيض . (٢)

ولكن هناك رواية أخرى عن الرندى تصرح بأنه كان يلبس فاخر الثياب ، وهى أصدق فى وصف الرندى باعتباره شاذليا ، ذلك أن الطريقة الشاذلية لا تهتم بلباس الفقراء ، ولا تدعو مريديها إلى جوع أو حرمان .

وكان " أبو الحسن الشاذلى " نفسه يلبس فاخر الثياب ، ويأكل أحسن الطعام ولا يرى فى ذلك نقصا أو عيبا فى سلوك طريق الله .

وكان " ابن عباد " فى حياته الخاصة والعامة على جانب من الخلق ، حتى إن معاصريه شهدوا له جميعا بأنه كان قدوة فى الخلق بمعنى الكلمة ، ولم يوجه إليه أحد طعنا ، لا فى سلوكه ولا فى آرائه .

واشتهر " الرندى " بفضيلة التواضع وهى فضيلة أساسية فى التصوف ، واشتهر كذلك بالحياء ، حتى يروى أن أحد تلاميذه كان إذا طلب منه الدعاء احمر وجهه خجلا ، واستحيا كثيرا ، وكان " الرندى ' كذلك متحققا مع الله كسائر الشاذلية ، بإسقاط الإرادة والتدبير ، بمعنى : ألا يكون الانسان متطلعا فى قلق إلى استكناه المجهول ، وما ستئول إليه الأمور فى المستقبل ؛ لأن المستقبل من أمر الله ، مع الرضا التام بما يورده الله عليه فى الحال ، والقيام بحق الوقت . وكان " الرندى " كذلك معرضا عن الخلق بمعنى : عدم الركون إليهم ، والتشاغل بما يتشاغلون به من توافه الأمور ، وعدم الذل إليهم ، والطمع فيهم .

ومن صفاته البارزة : أنه دائم الحضور مع الله ، ولا يحب أن يحضر فى مكان ينسى فيه الحق . وكان متصفا بالرحمة والشفقة لجميع العباد ، ولاغرابة فى ذلك فهذه من صفات الكُمَّل من المرشدين ، والدعاة إلى طريق الله .

---

(٢) نفح الطيب ج٣ ص ١٧٧ : من بحث ابن عباد : أ . د التفتازانى .

وبجمل القول أن الرندى كان مثلا عاليا فى الكمال الخلقى ، ولعل هذا كله كان سببا فى احترام حكام عصره جميعا له ؛ حتى ليروى أن ملوك زمانه كانوا يزدحمون عليه ويتلذذون بين يديه ، فلا يحفل بذلك(١)

توليه الخطابة والإمامة

وجدير بالذكر أن الرندى لم يكن فى حياته صوفيا متجردا منقطعاً إلى العبادة ، وإنما كان متوليا وظيفة دينية كبيرة فى فاس ، وهى إمامة وخطابة مسجد القرويين .

وكان الرندى إبان توليه الخطابة والإمامة موضع تقدير الجميع بما فى ذلك السلطان ، وكان خطيبا فصيحا ، يخرج كلامه منه ، فيؤثر فى قلوب سامعيه ، وهذا راجع إلى أنه قد تهذبت أخلاقه ، وصار كلامه مستنيرا بنور الله ، فينفذ بذلك إلى قلوب سامعيه .

وقد ظل " ابن عباد " متوليا الإمامة والخطابة بمسجد القرويين خمس عشرة سنة ، حتى توفى بفاس .

وفاتـه وقبـره

وقد أجمع المترجمون له على أن وفاته كانت فى شهر رجب عام ٧٩٢ هـ — ١٣٨٩ م وحددها الشيخ " أبو زكريا السراج " بتحديد أكثر فقال : إنها كانت فى يوم الجمعة الثالث من رجب بعد صلاة العصر (٢)

وقد قيل إن " ابن عباد " لما احتضر جعل رأسه فى حجر شخص يدعى أبا القاسم ، وأخذ فى قراءة آية الكرسى إلى قوله . الحى القيوم ، ثم يقول : ياالله ! ياحى ! يا قيوم ! فيلقنه من حضر : لا تأخذه سنة ولا نوم ، فيمتنع الرندى من

---

(١) نفح الطيب ج٣ ص ١٧٨ : من بحث ابن عباد : أ . د . التفتازانى

(٢) نفح الطيب ج٣ ص ١٧٧ ، سلوة الانفاس ، ج٢ ص ١٤٠ : بحث عن الرندى للدكتور التفتازانى .

قراءتها ويقول : يا الله ! يا حى ! يا قيوم ! فلما قربت وفاته سمع منه هذا البيت ، وكان آخر ما تكلم به :

ما عـــودنى أحبـــائى مقاطعـــة بل عودونى إذا قاطعتهم وصلوا[١]

ولا يزال ضريح "ابن عباد" موجودا إلى اليوم بفاس يقصده الناس للتبرك به ، وأصبح "ابن عباد" بالمغرب بمثابة الشافعى عند أهل مصر . [٢]

تلاميـــذه

وقد خلف ابن عباد وراءه جملة من التلاميذ أخذوا عنه ، وتأثروا به ، وأشادوا بذكره ، ومن هؤلاء الشيخ "يحيى السراج" : توفى بفاس عام ٨٠٥ هـ (١٤٠١ م ــ ١٤٠٢ م)
ودفن مع أستاذه الرندى .
ومن تلاميذه أيضا : الشيخ "ابن السكاك" وكان يقول فى "ابن عباد" شيخى وبركتى ، وقد توفى عام ٨١٨ هـ ــ ١٤١٥ م ودفن أيضا مع أستاذه "ابن عباد"

وبهذا يتبين كيف تخرج على يدى "ابن عباد" تلاميذ لهم مكانتهم فى العلوم الدينية وفى التصوف معا .

---

(١) نفح الطيب ج٣ ص ١٧٩ : عن بحث الرندى للدكتور التفتازانى .
(٢) نفح الطيب ج٣ ص ١٧٧ : بحث عن الرندى للدكتور التفتازانى .

مصنفات النفزى الرندى

خصائصها وأهميتها التصوفية

خلف لنا " الرندى " طائفة من المصنفات فى التصوف وفى غير التصوف . وتتميز مصنفاته عامة ببلاغة الأسلوب ، ودقة الألفاظ ، ووضوح المعنى ، ويغلب عليها طابع الذوق الصوفى ، ولا تخلو من عمق النظر العقلى .

وعبارتها تخلو من التزيد ، فالعبارات على قدر الألفاظ تماما .

وهناك خاصية واضحة ملازمة لجميع مصنفات الرندى ، وهى أنها متمشية مع الكتاب والسنة ، مستمدة منهما ، فهو كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف على كل فكرة تصوفية يريد أن يعبر عنها ؛ لأنه كان صوفيا يجمع بين الشريعة والحقيقة .

وترجع أهمية مصنفات " الرندى " إلى أنها قد تضمنت بيان مذهب الشاذلية ، وقربته إلى الأفهام ، فشرحه للحكم العطائية ، وسائر مصنفاته الأخرى — كل أولئك يعد مراجع أساسية لكل شاذلى يريد أن يعرف آداب الطريقة الشاذلية .

ثبت كلى لمصنفات الرندى

١ — " غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية "

وهو شرح ألفه " الرندى " على حكم الصوفى المصرى " ابن عطاء الله السكندرى الشاذلى .

وكان '' الرندى '' أول من قام بشرحها ، وعليه اعتمد غالبية الشراح المتأخرين فى شروحهم ومن هذه الشروح مثلا شرح الشيخ '' عبد الله حجازى الشرقاوى شيخ الاسلام بمصر والمتوفى سنة ١٢٢٧ هـ . ويعرف باسم '' المنح القدسية على الحكم العطائية '' . فهو يكاد يكون تلخيصاً لشرح الرندى .

٢ ــ نظم الحكم العطائية

يقال إن ابن عباد الرندى قد نظم الحكم لابن عطاء الله السكندرى أيضا فقد ذكر الشيخ '' أبو يحيى بن السكاك '' مانصه : أما شيخى وبركتى أبو عبد الله بن عباد رضى الله عنه فإنه شرح الحكم ، وعقد درر منثورها فى نظم بديع [1] .

٣ ــ الرسائل الكبرى

ذكرها مترجموه كالمقرى فى نفح الطيب[2] ، والشيخ أحمد زروق ''فى شرحه الحادى عشر على الحكم [3]

وقد أهداها الرندى الى تلميذه الشيخ يحيى السراج .

وهى وصايا يتوجه بها الى مريديه ، واعظا إياهم ، ومبينا لهم آداب السلوك إلى الله .

٤ ــ الرسائل الصغرى

ذكرها المقرى فى نفح الطيب ، والشيخ زروق ، فى شرحه الحادى عشر على الحكم . وهى فى جملتها وصايا يتوجه بها ابن عباد الى مريديه السالكين مجيبا لهم على بعض أسئلتهم فى التصوف ، وشارحا لهم فيها بعض آدابه ومقاماته .

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ١٧٧ : بحث عن '' الرندى '' للدكتور التفتازانى .

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ١٧٨ : بحث عن '' الرندى '' للدكتور التفتازانى .

(٣) سلوة الانفاس ج ٢ ص ١٣٥ ــ ١٣٦ بحث عن '' الرندى '' للدكتور التفتازانى .

٥ ــ تحقيق العلامة فى أحكام الإمامة

ذكر هذا الكتاب الشيخ '' أحمد زروق قائلا : رأيته بخطه (أى بخط الرندى) سفر ضخم جمع فيه ما يحتاجه الإمام .

٦ ــ مجموعة خطب

جمعت لابن عباد مجموعة من خطبه حينما كان إماما وخطيبا بمسجد القرويين بفاس ، وصارت مرجعا هاما بعد وفاته (وهى خطب مناسبات) .

٧ ــ أدعية مرتبة على أسماء الله الحسنى

ذكرها الشيخ '' زروق '' فى شرحه الحادى عشر على الحكم .

٨ ــ أجوبة فى مسائل العلوم

ذكرها المقرى فى نفح الطيب .

٩ ــ رسائل على قوت القلوب

ذكرها بروكلمان فى ثبته .

١٠ ــ فتح التحفة وإضاءة الشرفة

وهو كتاب صنفه '' الرندى '' فى علم الحديث .

نظرة في " الحكم العطائية "

أ ــ تصنيفها ــ عددها

يبدو أنها أول ما صنف " ابن عطاء الله السكندرى " من مصنفاته ، فقد أشار إليها ، واقتبس منها فقرات فى كثير من مصنفاته الأخرى ، مثل التنوير فى إسقاط التدبير و " لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه الشاذلى أبى الحسن " " وتاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس " و" عنوان التوفيق فى آداب الطريق " . وقد ذكر حاجى خليفة " فى كشف الظنون " أنه لما صنفها عرضها على شيخه " المرسى " فقال له : يا بنى ، لقد أتيت فى هذه الكراسة بمقاصد " الإحياء "وزيادة ، يقصد " إحياء علوم الدين للإمام الغزالى .

فإذا صح هذا تكون الحكم قد ألفت قبل ٦٨٦ هـ وهو العام الذى توفى فيه " المرسى " وبذلك تكون " الحكم العطائية " من مؤلفات الشباب :

وقد طبعت طبعات عديدة مختلفة ، واهتم بها الكثير من العلماء والدارسين والصوفيين والشراح وبعض المستشرقين[١]

أما عددها فهو :

مائتان وأربع وستون حكمة ، وهذا غير مكاتبات " ابن عطاء الله " لبعض إخوانه ، ومناجاته المشتملة على كثير من الحكم[٢]

---

(١) ابن عطاء الله السكندرى : للدكتور التفتازانى ــ ص ٧٩ ــ ٨٠ .

(٢) الحكم لابن عطاء الله : شرح الشيخ محمد بن مصطفى بن أبى العلا . حكم ابن عطاء الله : شرح الشيخ عبد المجيد الشونوبى الأزهرى.

ب ـ خصائصها الأدبية والفنية

تعد " الحكم العطائية " من عيون النثر الأدبي الصوفي العربي ، وهي عبارة عن فقرات قصيرة ، ذات ألفاظ قليلة ، تتضمن المعاني الكثيرة .

وأغلب " الحكم العطائية " في صورة خطاب موجه إلى المريد السالك لطريق الصوفية ، تنبيها إلى قواعد السلوك التي ينبغي مراعاتها .

وأسلوبها يعتمد على اختيار الألفاظ ، وانتقاء العبارات ، والتنسيق بينها ؛ حتى تؤثر في نفس السامع أو القارىء .

ويعنى " ابن عطاء الله " في حكمة بالإكثار من الأخيلة والتشبيهات التي تصور المعنى ، وتجسمه ، وتبرزه في أجمل صورة ، كما في قوله : " ربما أفادك في ليل القبض ما لم تستفده في إشراق نهار البسط ، لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا " وقوله في عبارة موجزة : ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع .

كما يعنى بالمحسنات اللفظية ذات الإيقاع ، والجرس الموسيقى ، مثل السجع والجناس . ويستخدم أحيانا المقابلة ، لا يضاح المعنى وابرازه ، كما في قوله : معصية أورثت ذلا وافتقارا ــ خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا [1]

الترابط المنطقى بين الحكم

يقول الدكتور " التفتازاني " في كتابه " ابن عطا الله " ص ٨٠ : وليس بين فقراتها ارتباط منطقى ، كما لم يراع صاحبها ترتيبها بحسب موضوعاتها ، وانما هي عبارات معبرة عن خطرات نفسه التي عرضت له في أذواقه ، فدونها بغير تعَمُّل تصنيف ، أو تكلف تأليف .

وهنا نتساءل : هل حقا ليس بين هذه الحكم المتعددة ارتباط منطقى ، أو ترتيب بين موضوعاتها ؟ كما يرى الدكتور التفتازاني ؟

---

(١) ابن عطاء الله : ص ٨٠ ، ٨١ .

اختلفت آراء الدارسين للحكم والشراح فى ذلك :

فمنهم : من يرى وجود هذا الارتباط المنطقى ، والترتيب بين موضوعاتها : فنحن نجد مثلا أن '' ابن عجيبة '' فى شرحه '' إيقاظ الهمم '' ـ يربط دائما بين هذه الحكم ، ويوثق الصلات بين كل حكمة وما قبلها وما بعدها . وكذلك الشيخ '' زروق '' فى شرحه ، تحقيق الشيخ '' عبد الحليم محمود '' يتحدث عن ذلك صراحة فى تقديمه لكتاب '' الحكم العطائية '' فيقول : عباراته رائقة جامعة ، وإشاراته فائقة نافعة . تثلج الصدر ، وتبهج الخاطر وتحرك السامع لها والناظر ، مع تداخل علومه وحكمه ، وتناسب حروفه وكلمه ؛ إذ كله داخل فى كله ، وأوله مرتبط بالأخير من قوله ،بل كل مسألة منه تكملة لما قبلها ، وتوطئة لما بعدها ، وكل باب منه كالشرح للذى قبله والذى قبله أيضا كأنه شرح له ، فكل حكمة أو كلمة إنما هى كالتكملة أو كالمقدمة . فأوسطه طرفاه ، وآخره مبتداه ، وأوله منتهاه ، يعرف ذلك من اعتنى بتحصيله .

وقد عقب المحقق الشيخ '' عبد الحليم محمود '' على ذلك بقوله :

يريد الشيخ رحمه الله تعالى أن يقول : إن الحكم حكمة واحدة ، وذلك على خلاف ما يظن بعض الناس من أنها متناثرات ، لا رابط بينها ، ولا تجمعها وحدة ، ولا تربطها رابطة التكامل ، ولقد خفيت هذه الوحدة مثلا على الدكتور '' زكى مبارك '' فقال : وليس بين الحكم العطائية رباط وثيق ، فهى مجموعة من الأقوال نظمت فى أوقات مختلفة . . ولاشك أن أمر هذه الوحدة هو من الدقة بحيث ينبه على ذلك الشيخ فيقول : يعرف ذلك من اعتنى بتحصيله[1]

أما **ابن عباد النفزى** فى شرحه للحكم ، **والشيخ الشرقاوى ــ** فنجد أنهما يشيران ــ أحيانا قليلة ، وفى بعض الحكم ــ إلى وجود هذه الروابط ، لكنهما لم يلتزما بذلك دوما ، كما فعل غيرهما من أمثال '' ابن عجيبة '' والشيخ '' زروق '' وأرى أنه من الانصاف أن نقول : هناك ارتباط منطقى وتسلسل ، ووحدة فكرية بين بعض الحكم التى يجمع بينها رباط واحد ، وموضوع واحد ، وتضمها فكرة

---

(١) مقدمة حكم '' ابن عطاء الله '' للشيخ '' زروق '' تحقيق الشيخ '' عبد الحليم محمود ''

واحدة ، ولكن لا ينبغى أن نتلمس هذا التسلسل المنطقى ، ونبحث عن هذه الوحدة بين جميع الحكم ، اللهم إلا بكثير من التمحل والتكلف الذى لا داعى ولا مبرر له .

جـ ــ موضوعاتها

أودع ابن عطاء الله حكمه خلاصة آرائه فى التصوف ، فهى تستوعب مذهبه الصوفى بأسره ، وجميع ما جاء فى مصنفاته الأخرى ــ ليس إلا شرحا وتفصيلا لما احتوته .

ومن " الحكم العطائية " ما يتناول الأحكام الشرعية من ناحية آثارها فى قلوب المتعبدين السالكين . ومنها ما يعرض للمجاهدة النفسية ، وما يتعلق بها ، وما يترتب عليها من المقامات والأحوال التى هى ثمرتها .

ومنها ما يدور حول المعرفة ، وماهيتها وأدواتها ، ومناهجها ، وآداب المتحققين بها . ومنها ما يتضمن آراء ميتا فيريقية فى تفسير الوجود ، وصلته بالله ، وصلة الإنسان بالله . ثم منها ما يشير إلى آداب السلوك العامة التى ينبغى أن يراعيها السالك فى مجاهداته ومقاماته وأحواله ومعرفته ، وبعبارة أخرى فى طريقه من أوله إلى آخره [1]

د ــ خصائصها التصوفية

وللحكم العطائية من حيث هى مصنف صوفى سمة واضحة هى " الرمزية " أى استخدام الألفاظ الاصطلاحية الصوفية ، فيكون للعبارة معنيان : أحدهما يستفاد من ظاهر الألفاظ ، والآخر يستفاد بالتحليل والتعمق ، وهو المعنى عندهم بالرمز . ويعنى " الرمز " عند الصوفيه أيضا : دمج كثير المعنى فى قليل اللفظ .
وللحكم العطائية سمة أخرى ، وهى أنها متمشية مع الكتاب والسنة .

(١) ص ٨٤ ــ ٨٥ ابن عطاء الله للدكتور التفتازانى .

وليس فيها عبارات موهمة ، أو مستشنعة بحسب ظاهرها[1] .
وإلى هذا يشير '' ابن عجيبة '' أحد شراحها بقوله : والمسلك الذى سلك فيه مسلك توحيدى لا يسع أحد انكاره ، ولا الطعن فيه ، ولا يدع للمعتنى به صفة حميدة إلا كساه إياها ، ولا صفة ذميمة إلا أزالها عنه باذن الله[2].

هـ ــ قيمتها التصوفية

'' للحكم العطائية '' قيمة تصوفية كبرى ، فهى تلخص مذهب '' ابن عطاء الله '' الصوفى من ناحية وهى دستور للسالكين لطريقة '' الشاذلى '' من ناحية أخرى .

وقد اشتهر '' ابن عطاء الله '' بين أبناء طريقته ، فلقبوه '' صاحب الحكم '' وقد ذكر '' ابن عجيبة '' فى بيان قيمتها التصوفية عن الشيخ العربى ــ أحد مشايخ الشاذلية المتأخرين بالمغرب ــ أنه سمع فقيها يسمى البنانى يقول : كادت حكم ابن عطاء الله أن تكون وحيا ، ولو كانت الصلاة تجوز بغير قرآن ــ لجازت بكلام الحكم[3] .

هذا ، وقد وجدت '' الحكم العطائية '' طريقها إلى الفقهاء ، من علماء الأزهر ، وقام بشرحها وتدريسها طائفة من علماء الأزهر المصريين القدامى مثل الشيخ '' عبد الله الشرقاوى '' شيخ الإسلام (المتوفى ١٢٢٧ هـ) . والشيخ '' عبد المجيد الشرنوبى '' من علماء الأزهر (توفى عام ١٣٤٨ هـ ــ ١٩٢٩ م) وظل الأمر كذلك إلى عهد ليس ببعيد ، فقد ذكر المرحوم الدكتور '' زكى مبارك '' فى '' التصوف الإسلامى فى الآداب والأخلاق '' أن '' الحكم العطائية '' كانت مما

---

(١) ص ٧٧ ، ابن عطاء الله .
(٢) ابن عطاء الله ص ٨٨ .
(٣) هذا ضرب من المبالغة غير المحمودة ، فى وصف كلام البشر ، وهو لم يعد أن يكون فنا من فنون القول ، يلخص بعض معانى الكتاب والسنة . (المراجع)

يدرسه كبار العلماء فى الأزهر الشريف فى عصرنا هذا ، ومن هؤلاء : الشيخ '' محمد بخيت (مفتى الديار المصرية سابقا) الذى كان يدرسها للجمهور بعد صلاة العصر من أيام رمضان فى مسجد الحسين ، وذكر أنه حضر عليه طائفة من هذه الدروس ، وأنه أنس بمعانى '' الحكم العطائية '' أشد الأنس [1]

وقد شرحت '' الحكم العطائية '' شروحا كثيرة فى أزمنة مختلفة ، وفى أقطار كثيرة وبلغات أجنبية أحيانا ، كالتركية والمالوية .

وقد شعر بأهمية '' الحكم '' وشرح ابن عباد النفزى الرندى عليها ــ المستشرق الأسبانى '' ميجل أسين بلاثيوس '' فترجم فقرات كثيرة منها مع شروح الرندى عليها[2] .

و ــ شروح الحكم

ذكر الدكتور التفتازانى فى كتابه '' ابن عطاء الله السكندرى '' ثبتا لشروح الحكم مرتبة ترتيبا زمنيا ، وقد بلغت أربعة وعشرون شرحا .

وقد تصدر شرح '' الرندى '' هذا الثبت ، فهو قمة هذه الشروح جميعها .

وهناك شرح آخر ــ أضيفه إلى هذه الشروح التى ذكرها الدكتور التفتازانى هو : شرح '' الحكم '' المسمى '' من عطاء الله '' للشيخ محمد بن مصطفى بن أبى العلا '' وهو يضم الحكم ، ومعها بعض المكاتبات والمناجاة ، يليها شرحها المسمى '' من عطاء الله '' .

شرح الرندى : '' غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية ''

هو شرح محمد بن ابراهيم بن عباد النفزى الرندى (نسبة إلى رندة ــ مدينة واقعة بجنوب الأندلس بين أشبيلية ومالقة) المتوفى سنة ٩٧٢ هـ ــ ١٣٨٩ م ــ

---

(١) التصوف الاسلامى : ج١ ص ١٣٦ : ابن عطاء الله ص ٨٩

(٢) ابن عطاء الله ص ٩٠

من أهل الأندلس . ويصطنع ابن عباد فى شرحه هذا أسلوبا رائقا جذابا ، وافيا بالغرض لا تزيد فيه ولا غموض ، ولا تعوزه دقة المناطقة[١].

وقد وضع " الرندى " شرحه على الحكم بناء على طلب اثنين من أصحابه ، وهما يحيى السراج ، وسليمان بن عمر .

وإلى هذا يشير الراندى نفسه بقوله : والذى حملنى على وضعة ، وتكلف تصنيفه وجمعه ، بعد تقدم إرادة الله تعالى التى لا تغلب ، وتقديره الذى ليس للعبد منه منجى ولا مهرب ، ثم الذى رأيناه من المطالب والمقاصد العظيمة ، ونبهنا عليه فى صدر هذه المقدمة (يقصد مقدمته للشرح) إلحاح بعض أصحاب فى ذلك علىّ ، وترددهم بالمسأله إلىّ ، لكونهم على اعتقاد صحيح فى هذه الطريقة ، ومحبة خالصة لأهل الحقيقة ، فأسعفتهم بما طلبوه ، وحققت لهم الأمل فيما رغبوه ، كما أشار الله تعالى وحكم ، وقضى به علينا وحتم ، نفعنا الله واياهم بما يجرى منه على أيدينا ، ولا جعله حجة عليهمْ ولا علينا .

ويعرف شرح " الرندى " كذلك على " الحكم " باسم " التنبيه " .

وقد وصف الشيخ " احمد زروق " (المتوفى سنة ٨٩٩ هـ — ١٤٩٤ م) هذا الشرح بأنه : بستان الفن وخزانة أحكامه ، وجامع لبه ، ولا يكفى غيره عنه ، ويكفى هو عن غيره ، وأن كل من كتب على هذا الكتاب (يعنى الحكم) شيئا مما لقيتاه ، أو سمعنا به — فإنما هو دونه (أى دون شرح الرندى) فى القصد والتحقيق .

وقد وصف " أسين بلاثيوس " هذا الشرح بأنه يمكن أن يعتبر بلا مبالغة — مرجعا كاملا فى النظرية ، الزهدية التصوفية ، نافعا للمريدين المبتدئين ، ولأولئك السالكين لطريق الكمال . أو الذين فازوا بالوصول إلى نهايات الشهود وقد طبع هذا الشرح طبعات مختلفة[٢]

---

(١) ص ٩١ ابن عطاء الله

(٢) ص ٩٢ ابن عطاء الله .

ز ـــ نظم الحكـــم

وكما عُنِيَ كثيرون بشرح الحكم العطائية ، فقد عُنِيَ فريق آخر بنظمها شعرا ، ومن ذلك :

١ ـــ نظم ابن عباد الرندى .
٢ ـــ نظم لكمال الدين بن على شريف المتوفى ٩٠٦ هـ المسمى '' فيض الكرم ''
٣ ـــ النظم المحتاج لعبد الكريم بن محمد بن عربى .
٤ ـــ نظم ابن ابراهيم بن مالك .
٥ ـــ نظم لعلى شهاب الدين بن محمد بن سعد الدين عنوانه '' فيض الكرم فى شرح الحكم '' .
٦ ـــ نظم عبد الله بن على الملكى الملقب بالفارس ، عنوانه '' فاتحة السالك لمولاه الحكم بشرح نظم كتاب الحكم ''

ح ـــ ترتيب الحكم

وعُنِيَ كذلك صوفى آخر بترتيب '' الحكم العطائية '' وهو علاء الدين على بن حسام الدين عبد الملك بن قاضى خان المعروف بالمتقى الهندى المتوفى عام ٩٧٧ هـ ـــ فقد وضع ترتيبا للحكم سماه '' النهج الأتم فى تبويب الحكم ''[١]

تعقيـــب

وهكذا ظفرت '' الحكم العطائية '' بشروح كثيرة منذ القرن الثامن الهجرى إلى العصر الحاضر ـــ ووجدت طريقها من مصر إلى أقطار إسلامية عدة كأسبانيا والمغرب والجزيرة العربية وتركيا والهند والملايو ؛ وبهذا أصبحت الحكم تراثا صوفيا حيا .

ولم يظفر مصنف من مصنفات '' ابن عطاء الله '' الأخرى ـــ على الرغم من علو منزلها بمثل ما ظفرت به '' الحكم '' من شروح[٢] .

---

(١) ابن عطاء الله ص ٩٨ .
(٢) ابن عطاء الله ص ٩٨ .

نصوص الحكم العطائية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكم العطائية

قال ابن عطاء الله السكندرى رضى الله تعالى عنه :

الحكمة الأولى

« من علامة الاعتماد على العمل ــ نقصان الرجاء عند وجود الزلل »

الحكمة الثانية

« إرادتك التجريد ــ مع إقامة الله إياك فى الأسباب ــ من الشهوة الخفية ، وإرادتك الأسباب ــ مع إقامة الله إياك فى التجريد ــ انحطاط عن الهمة العلية »

الحكمة الثالثة

« سوابق الهمم ــ لا تخرق أسوار الأقدار »

الحكمة الرابعة

« أرح نفسك من التدبير ، فما قام به غيرك عنك ــ لا تقم به لنفسك »

الحكمة الخامسة

« اجتهادك فيما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك ــ دليل على انطماس البصيرة منك »

الحكمة السادسة

« لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح فى الدعاء ــ موجبا ليأسك ؛ فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك ، لا فيما تختار لنفسك ، وفى الوقت الذى يريد ، لا فى الوقت الذى تريد » .

الحكمة السابعة

« لا يشككنك فى الوعد عدم وقوع الموعود ــ وإن تعين زمنه ــ لئلا يكون ذلك قدحا فى بصيرتك ، وإخمادا لنور سريرتك »

الحكمة الثامنة

« إذا فتح لك وجهة من التعرف ــ فلا تبال معها إن قل عملك ، فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك ، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك ، والأعمال أنت مهديها إليه ! وأين ما تهديه إليه ــ مما هو مورده عليك ؟

الحكمة التاسعة

« تنوعت أجناس الأعمال ، لتنوع واردات الأحوال »

الحكمة العاشرة

« الأعمال : صور قائمة ، وأرواحها : وجود سر الاخلاص فيها »

الحكمة الحادية عشرة

« ادفن وجودك فى أرض الخمول ، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه »

الحكمة الثانية عشرة

« ما نفع القلب شىء مثل عُزلة ، يدخل بها ميدان فكرة »

الحكمة الثالثة عشرة

كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟
أم كيف يرحل إلى الله ، وهو مكبل بشهواته ؟
أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟
أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار ، وهو لم يتب من هفواته ؟

الحكمة الرابعة عشرة

« الكون كله ظلمة ، وإنما أناره ظهور الحق فيه ، فمن رأى الكون ، ولم يشهده فيه ، أو عنده ، أو قبله ، أو بعده ـــ فقد أعوزه وجود الأنوار ، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار »

الحكمة الخامسة عشرة

« مما يدلك على وجود قهره ـــ سبحانه ـــ أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه »

الحكمة السادسة عشر

كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذى أظهر كل شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذى ظهر بكل شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذى ظهر فى كل شيء؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذى ظهر لكل شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الظاهر قبل وجود كل شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو أظهر من كل شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الواحد الذى ليس معه شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو أقرب اليك من كل شيء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شيء ، ولولاه ما كان وجود كل شيء ؟
يا عجبا ! كيف يظهر الوجود فى العدم ! ؟
أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القِدم ! ؟

الحكمة السابعة عشرة

« ما ترك من الجهل شيئا ـــ من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه »

الحكمة الثامنة عشرة

« إحالتك الأعمال على وجود الفراغ ـــ من رعونات النفس » .

الحكمة التاسعة عشرة

« لاتطلب منه أن يخرجك من حالة ؛ ليستعملك فيما سواها ، فلو أرادك ـــ لا ستعملك من غير إخراج »

الحكمة العشرون

« ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها ـ إلا ونادته هواتف الحقيقة : الذى تطلب أمامك ، ولا تبرجت له ظواهر المكونات ـ إلا ونادته حقائقها : إنما نحن فتنة فلا تكفر »

الحكمة الحادية والعشرون

« طلبك منه ـ اتهام له ، وطلبك له ـ غيبه منك عنه ـ وطلبك لغيره ، لقلة حيائك منه ، وطلبك من غيره ـ لوجود بعدك عنه »

الحكمة الثانية والعشرون

« ما من نفس تبديه ـ إلا وله قدر فيك يمضيه »

الحكمة الثالثة والعشرون

« لا تترقب فراغ الأغيار ، فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له ، فيما هو مقيمك فيه »

الحكمة الرابعة والعشرون

« لا تستغرب وقوع الأكدار ـ مادمت فى هذه الدار ـ فانها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفِها ، وواجب نعتِها »

الحكمة الخامسة والعشرون

« ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك »

الحكمة السادسة والعشرون

« من علامات النُّجح فى النهايات ــ الرجوع إلى الله فى البدايات »

الحكمة السابعة والعشرون

« من أشرقت بدايته ــ أشرقت نهايته »

الحكمة الثامنة والعشرون

« ما استُودع فى غيب السرائر ــ ظهر فى شهادة الظواهر »

الحكمة التاسعة والعشرون

« شتان بين من يَستدل به ، أو يَستدل عليه : المستدِل به ــ عرف الحق لأهله ؛ فأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه ــ من عدم الوصول إليه ، وإلا فمتى غاب ؛ حتى يُستدل عليه ، ومتى بعد ؛ حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه ؟

الحكمة الثلاثون

« لينفق ذو سَعَة من سعته : الواصلون إليه ، ومن قُدِرَ عليه رزقه : السائرون إليه »

الحكمة الحادية والثلاثون

« اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه ، والواصلون لهم أنوارالمواجهة . فالأولون للأنوار ، وهؤلاء الأنوار لهم ؛ لأنهم لله ، لا لشىء دونه : « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

الحكمة الثانية والثلاثون

« تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب ــ خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب »

الحكمة الثالثة والثلاثون

« الحق ليس بمحجوب ، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه ، إذ لو حجبه شيء ــ لستره ما حجبه ، ولو كان له ساتر ــ لكان لوجوده حاصر ، وكل حاصر لشيء ــ فهو له قاهر « وهو القاهر فوق عباده » .

الحكمة الرابعة والثلاثون

« اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك ؛ لتكون ــ لنداء الحق ــ مجيبا ، ومن حضرته قريبا » .

الحكمة الخامسة والثلاثون

« أصل كل معصية وغفلة وشهوة ــ الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة ، عدم الرضا منك عنها ، ولأن تصحب جاهلا ، لا يرضى عن نفسه ــ خيرٌ لك من أن تصحب عالما ، يرضى عن نفسه ، فأى علم لعالم ، يرضى عن نفسه ؟ وأى جهل لجاهل ، لا يرضى عن نفسه ؟

الحكمة السادسة والثلاثون

« شعاع البصيرة ــ يُشهدك قربه منك ، وعين البصيرة ــ تشهدك عدَمك ، لوجوده ، وحق البصيرة ــ يُشهدك وجودَه ، لا عدَمك ، ولا وجودَك »

الحكمة السابعة والثلاثون

« كان الله ولا شيء معه ، وهو ــ الآن ــ على ما عليه كان »

الحكمة الثامنة والثلاثون

« لا تتعد نية همتك إلى غيره ، فالكريم ـــ لا تتخطاه الآمال »

الحكمة التاسعة والثلاثون

« لا ترفعنَّ إلى غيره حاجة ، هو موردها عليك ، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعا ! ؟ من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه ـــ فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا !؟ »

الحكمة الأربعون

« إن لم تحسن ظنك به ، لأجل حسن وصفه ـــ فحسن ظنك به ، لأجل معاملته معك ، فهل عودك إلا حسنا ؟! وهل أسدى إليك إلا مننا !؟ »

الحكمة الحادية والأربعون

« العجب كل العجب ممن يهرب ، ممن لا انفكاك له عنه ، ويطلب مالا بقاء معه ، (فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) »

الحكمة الثانية والأربعون

« لا ترحل من كون إلى كون ؛ فتكون كحمار الرحى ، يسير ، والمكان الذى ارتحل إليه ـــ هو الذى ارتحل منه ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون (وأن الى ربك المنتهى) ، وانظر الى قوله ﷺ : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ـــ فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ـــ فهجرته إلى ما هاجر إليه ، فا فهم قوله عليه الصلاة والسلام ، وتأمل هذا الأمر ، إن كنت ذا فهم والسلام » .

الحكمة الثالثة والأربعون

« لا تصحب من لا يُنهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله »

الحكمة الرابعة والأربعون

« ربما كنت مسيئا ، فأراك الإحسانَ منك صحبتُك من هو أسوأ حالا منك »

الحكمة الخامسة والأربعون

« ما قل عمل برز من قلب زاهد ، ولا كثر عمل برز من قلب راغب »

الحكمة السادسة والأربعون

« حسن الأعمال ــ نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال ــ من التحقق فى مقامات الإنزال »

الحكمة السابعة والأربعون

« لا تترك الذكر ، لعدم حضورك مع الله فيه ، لأن غفلتك عن وجود ذكره ــ أشد من غفلتك فى وجود ذكره ، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة ــ الى ذكر مع وجود يقظة ، ومن ذكر مع وجود يقظة الى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور ــ الى ذكر مع وجود غيبة ، عما سوى المذكور ، (وما ذلك على الله بعزيز) .

الحكمة الثامنة والأربعون

« من علامات موت القلب ــ عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات ، وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات »

الحكمة التاسعة والأربعون

« لا يعظم الذنب عندك ــ عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى ؛ فإن من عرف ربه ــ استصغر فى جنب كرمه ذنبه »

الحكمة الخمسون

« لا صغيرة إذا قابلك عدله ، ولا كبيرة إذا واجهك فضله »

الحكمة الحادية والخمسون

« لا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ، ويحتقر عندك وجوده »

الحكمة الثانية والخمسون

« إنما أورد عليك الوارد ؛ لتكون به عليه واردا »

الحكمة الثالثة والخمسون

« أورد عليك الوارد ؛ ليستعملك من يد الأغيار ، ويحررك من رق الآثار »

الحكمة الرابعة والخمسون

« أورد عليك الوارد ؛ ليخرجك من سجن وجودك ــ إلى فضاء شهودك »

الحكمة الخامسة والخمسون

« الأنوار مطايا القلوب والأسرار »

الحكمة السادسة والخمسون

« النور جند القلب ، كما أن الظلمة جند النفس ، فإذا أراد الله أن ينصر عبده — أمده بجنود الأنوار ، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار »

الحكمة السابعة والخمسون

« النور له الكشف ، والبصيرة لها الحكم ، والقلب له الإقبال والإدبار »

الحكمة الثامنة والخمسون

« لا تفرحك الطاعة ؛ لأنها برزت منك ، وافرح بها ، لأنها برزت من الله إليك : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)

الحكمة التاسعة والخمسون

« قطع السائرين له ، والواصلين إليه ، عن رؤية أعمالهم ، وشهود أحوالهم . أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها ، وأما الواصلون — فلأنه غيبهم بشهوده عنها »

الحكمة الستون

« ما بسقت أغصان ذل — إلا على بذر طمع »

الحكمة الحادية والستون

« ما قادك شيء مثل الوهم »

الحكمة الثانية والستون

« أنت حر مما أنت عنه آيس ، وعبد لما أنت له طامع »

الحكمة الثالثة والستون

« من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان ـــ قيد إليه بسلاسل الامتحان »

الحكمة الرابعة والستون

« من لم يشكر النعم ـــ فقد تعرض لزوالها ـــ ومن شكرها ـــ فقد قيدها بعقالها .

الحكمة الخامسة والستون

« خف من وجود إحسانه إليك ، ودوام إساءتك معه ـــ أن يكون ذلك استدراجا لك : (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) .

الحكمة السادسة والستون

« من جهل المريد ـــ أن يسيء الأدب ؛ فتؤخر العقوبة عنه ، فيقول : لوكان هذا سوء أدب لقطع الإمداد ، وأوجب الإبعاد ، فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر . ولو لم يكن إلا منع المزيد ، وقد يقام مقام البعد ـــ وهو لا يدرى . ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد .

الحكمة السابعة والستون

« إذا رأيت عبدًا أقامه الله تعالى بوجود الأوراد ، وأدامه عليها مع طول الإمداد ــ فلا تستحقرن مامنحه مولاه ؛ لأنك لم تر عليه سيما العارفين ، ولا بهجة المحبين ، فلولا وارد ما كان ورد »

الحكمة الثامنة والستون

« قوم أقامهم الحق لخدمته ، وقوم اختصهم بمحبته : (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) » .

الحكمة التاسعة والستون

« قلما تكون الواردات الإلهية ــ إلا بغتة ، لئلا يدعيها العباد بوجود الاستعداد »

الحكمة السبعون

« من رأيته مجيبا عن كل ما سئل ، ومعبرا عن كل ما شهد ، وذاكرًا كل ما علم ــ فاستدل بذلك على وجود جهله »

الحكمة الحادية والسبعون

« إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين ؛ لأن هذه الدار ــ لا تسع ما يريد أن يعطيهم ؛ ولأنه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها .

الحكمة الثانية والسبعون

« من وجد ثمرة عمله عاجلا ــ فهو دليل على وجود القبول آجلا »

الحكمة الثالثة والسبعون

« إذا أردت أن تعرف قدرك عنده ــ فانظر فيما يقيمك »

الحكمة الرابعة والسبعون

« متى رزقك الطاعة ، والغنى به عنها ــ فاعلم أنه : قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة »

الحكمة الخامسة والسبعون

« خير ما تطلبه منه ــ ما هو طالبه منك »

الحكمة السادسة والسبعون

« الحزن على فقدان الطاعة ــ مع عدم النهوض إليها ــ من علامات الاغترار »

الحكمة السابعة والسبعون

« ما العارف من إذا أشار ــ وجد الحق أقرب إليه من إشارته ، بل العارف من لا إشارة له ؛ لفنائه فى وجوده ، وانطوائه فى شهوده »

الحكمة الثامنة والسبعون

« الرجاء ما قارنه عمل ، وإلا فهو أمنية »

الحكمة التاسعة والسبعون

« مطلب العارفين من الله ـــ الصدق فى العبودية ـــ والقيام بحقوق الربوبية »

الحكمة الثمانون

« بسطك ؛ كيلا يبقيك مع القبض ، وقبضك ؛ كيلا يتركك مع البسط ، واخرجك عنهما ؛ كيلا تكون لشىء دونه »

الحكمة الحادية والثمانون

« العارفون إذا بسطوا ـــ أخوف منهم إذا قبضوا ، ولا يقف على حدود الأدب فى البسط إلا قليل »

الحكمة الثانية والثمانون

« البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح ، والقبض لاحظ للنفس فيه »

الحكمة الثالثة والثمانون

« ربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك »

الحكمة الرابعة والثمانون

« متى فتح باب الفهم فى المنع ـــ عاد المنع عين العطاء »

الحكمة الخامسة والثمانون

« الأكوان ظاهرها غرة ، وباطنها عبرة ، فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها ، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها »

الحكمة السادسة والثمانون

إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى ــ فلا تستعزن بعز يفنى »

الحكمة السابعة والثمانون

« الطى الحقيقى أن تطوى مسافة الدنيا عنك ؛ حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك »

الحكمة الثامنة والثمانون

« العطاء من الخلق حرمان ، والمنع من الله إحسان »

الحكمة التاسعة والثمانون

« جل ربنا أن يعامله العبد نقدا ، فيجازيه نسيئة »

الحكمة التسعون

« كفى من جزائه إياك على الطاعة ــ أن رضيك لها أهلا »

الحكمة الحادية والتسعون

« كفى العاملين جزاء ــ ما هو فاتحه على قلوبهم فى طاعته ، وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته »

الحكمة الثانية والتسعون

« من عبده لشيء يرجوه منه ــ أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه ــ فما قام بحق أوصافه »

الحكمة الثالثة والتسعون

« متى أعطاك ــ أشهدك بره ، ومتى منعك ــ أشهدك قهره ، فهو فى كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجود لطفه عليك »

الحكمة الرابعة والتسعون

« إنما يؤلمك المنع ؛ لعدم فهمك عن الله فيه »

الحكمة الخامسة والتسعون

ربما فتح لك باب الطاعة ، وما فتح لك باب القبول ، وربما قضى عليك بالذنب ــ فكان سببا فى الوصول »

الحكمة السادسة والتسعون

« معصية أورثت ذلا وافتقارا ــ خير من طاعة ، أورثت عزا واستكبارا »

الحكمة السابعة والتسعون

« نعمتان ما خرج موجود عنهما ، ولابد لكل مكون منهما ، نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد »

الحكمة الثامنة والتسعون

« أنعم عليك أولا بالإيجاد ، وثانيا بتوالى الإمداد »

الحكمة التاسعة والتسعون

« فاقتك لك ذاتية ، وورود الأسباب مذكرات لك بما خفى عليك منها ، والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض »

الحكمة المائـة

« خير أوقاتك ـــ وقت تشهد فيه وجود فاقتك ، وترد فيه إلى وجود ذلتك »

الحكمة الحادية بعد المائة

« متى أوحشك من خلقه ـــ فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به »

الحكمة الثانية بعد المائة

« متى أطلق لسانك بالطلب ـــ فاعلم أنه يريد أن يعطيك »

الحكمة الثالثة بعد المائة

« العارف لا يزول اضطراره ، ولا يكون مع غير الله قراره »

الحكمة الرابعة بعد المائة

« أنار الظواهر بأنوار آثاره ، وأنار السرائر بأنوار أوصافه ؛ لأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر ، ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر ؛ ولذلك قيل :
إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب »

الحكمة الخامسة بعد المائة

« ليخفف ألم البلاء عنك ـــ علمك بأنه ـــ سبحانه ـــ هو المبلى لك ، فالذى واجهتك منه الأقدار ـــ هو الذى عودك حسن الاختيار »

الحكمة السادسة بعد المائة

« من ظن انفكاك لطفه عن قدره ــ فذلك لقصور نظره »

الحكمة السابعة بعد المائة

« لايخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك ، وانما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك » .

الحكمة الثامنة بعد المائة

« سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية »

الحكمة التاسعة بعد المائة

لا تطالب ربك بتأخر مطلبك ، ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك »

الحكمة العاشرة بعد المائة

« متى جعلك فى الظاهر ممتثلا لأمره ، ورزقك فى الباطن الاستسلام لقهرة ــ فقد أعظم المنة عليك

الحكمة الحادية عشرة بعد المائة

« ليس كل من ثبت تخصيصه ــ كمل تخليصه »

الحكمة الثانية عشرة بعد المائة

« لا يستحقر الورد إلا جهول : الوارد يوجد فى الدار الآخرة ، والورد ينطوى

بانطواء هذه الدار ، وأولى ما يعتنى به ــ مالا يخلف وجوده ــ الورد هو طالبه منك ، والوارد أنت تطلبه منه ، وأين ما هو طالبه منك مما هو مطلبك منه ؟»

الحكمة الثالثة عشرة بعد المائة

« ورود الإمداد بحسب الاستعداد ، وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار »

الحكمة الرابعة عشرة بعد المائة

« الغافل إذا أصبح ينظر : ماذا يفعل ؟ والعاقل ينظر : ماذا يفعل الله به ؟ »

الحكمة الخامسة عشرة بعد المائة

« إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شىء ، لغيبتهم عن الله فى كل شىء ، فلو شهدوه فى كل شىء ــ لم يستوحشوا من شىء »

الحكمة السادسة عشرة بعد المائة

« أمرك فى هذه الدار بالنظر فى مكوناته ، وسيكشف لك فى تلك الدار عن كمال ذاته »

الحكمة السابعة عشرة بعد المائة

« علم منك : أنك لاتصبر عنه ــ فاشهدك مابرز منه »

الحكمة الثامنة عشرة بعد المائة

« لما علم الحق منك وجود ملل ــ لون لك الطاعات ، وعلم ما فيك من وجود الشره ــ فحجرها عليك فى بعض الأوقات ؛ ليكون همك إقامة الصلاة ، لا وجود الصلاة ، فما كل مصل مقيم »

الحكمة التاسعة عشرة بعد المائة

« الصلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب ، واستفتاح لباب الغيوب »

الحكمة العشرون بعد المائة

« الصلاة محل المناجاة ، ومعدن المصافاة : تتسع فيها ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار . علم وجود الضعف منك ـــ فقلل أعدادها ، وعلم احتياجك إلى فضله ـــ فكثر أمدادها »

الحكمة الحادية والعشرون بعد المائة

« متى طلبت عوضا على عمل ـــ طولبت بوجود الصدق فيه ، ويكفى المريد ـــ وجدان السلامة » .

الحكمة الثانية والعشرون بعد المائة

« لا تطلب عوضا على عمل لست له فاعلا . يكفى من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلا »

الحكمة الثالثة والعشرون بعد المائة

إذا أراد أن يظهر فضله عليك ـــ خلق ونسب إليك »

الحكمة الرابعة والعشرون بعد المائة

« لا نهاية لمذامّك إن أرجعك إليك ، ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك »

الحكمة الخامسة والعشرون بعد المائة

« كِنْ بأوصاف ربوبيته ـــ متعلقا ، وبأوصاف عبوديتك ـــ متحققا »

الحكمة السادسة والعشرون بعد المائة

« منعك أن تدعى ما ليس لك ــ مما للمخلوقين ، أفيبيح لك أن تدعى وصفة ، وهو رب العالمين !؟ »

الحكمة السابعة والعشرون بعد المائة

« كيف تخرق لك العوائد ، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد »

الحكمة الثامنة والعشرون بعد المائة

« ما الشأن وجود الطلب ، إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب »

الحكمة التاسعة والعشرون بعد المائة

« ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ، ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذل والافتقار »

الحكمة الثلاثون بعد المائة

« لو أنك لا تصل إلا بعد فناء مساويك ، ومحو دعاويك ــ لم تصل إليه أبدا ، ولكن إذا أردت أن يوصلك إليه ــ غطى وصفك بوصفه ، ونعمتك بنعمته ، فوصلك إليه : بما منه إليك ، لا بما منك إليه .

الحكمة الحادية والثلاثون بعد المائة

« لولا جميل ستره ــ لم يكن عمل أهلا للقبول »

الحكمة الثانية والثلاثون بعد المائة

« أنت إلى حلمه ــ إذا أطعته ــ أحوج منك إلى حلمه ــ إذا عصيته »

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المائة

« الستر على قسمين : ستر عن المعصية ، وستر فيها : فالعامة يطلبون من الله تعالى الستر فيها ، خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق ، والخاصة يطلبون من الله الستر عنها ، خشية سقوطهم من نظر الملك الحق »

الحكمة الرابعة والثلاثون بعد المائة

« من أكرمك ــ فإنما أكرم فيك جميل ستره ــ فالحمد لمن سترك ، ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك »

الحكمة الخامسة والثلاثون بعد المائة

« ما صحبك إلا من صحبك ، وهو بعيبك عليم ، وليس ذلك إلا مولاك الكريم ، خير من تصحب من يطلبك لا لشيء يعود منك اليه »

الحكمة السادسة والثلاثون بعد المائة

« لو أشرق لك نور اليقين ــ لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها ، ولرأيت محاسن الدنيا ــ قد ظهرت كسفة الفناء عليها »

الحكمة السابعة والثلاثون بعد المائة

« ما حجبك عن الله وجود موجود معه ، ولكن حجبك عنه توهم موجود معه »

الحكمة الثامنة والثلاثون بعد المائة

« لولا ظهوره فى المكونات ــ ما وقع عليها وجود إبصار ، لو ظهرت صفاته ــ اضمحلت مكوناته »

الحكمة التاسعة والثلاثون بعد المائة

« أظهر كل شيء ؛ لأنه الباطن ، طوى وجود كل شيء ؛ لأنه الظاهر »

الحكمة الأربعون بعد المائة

« أباح لك أن تنظر ما فى المكونات ، وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات : (قل انظروا ماذا فى السماوات) ، فتح لك باب الأفهام ، ولم يقل : انظروا السماوات ، لئلا يدلك على وجود الأجرام »

الحكمة الحادية والأربعون بعد المائة

« الأكوان ثابتة بإثباته ، وممحوة بأحدية ذاته »

الحكمة الثانية والأربعون بعد المائة

« الناس يمدحونك ؛ لما يظنونه فيك ، فكن أنت ذاما لنفسك ؛ لما تعلمه منها »

الحكمة الثالثة والأربعون بعد المائة

« المؤمن إذا مدح ـــ استحيا من الله أن يثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه »

الحكمة الرابعة والأربعون بعد المائة

« أجهل الناس من ترك يقين ما عنده ؛ لظن ما عند الناس »

الحكمة الخامسة والأربعون بعد المائة

« إذا أطلق الثناء عليك ، ولست بأهل ـــ فأثن عليه بما هو أهله »

الحكمة السادسة والأربعون بعد المائة

« الزهاد إذا مدحوا ــ انقبضوا ، لشهودهم الثناء من الحق ، والعارفون اذا مدحوا ــ انبسطوا ، لشهودهم ذلك من الحق »

الحكمة السابعة والأربعون بعد المائة

« متى كنت إذا أعطيت ــ بسطك العطاء ، وإذا منعت ــ قبضك المنع ، فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك ، وعدم صدقك فى عبوديتك ».

الحكمة الثامنة والأربعون بعد المائة

« اذا وقع منك ذنب ــ فلا يكن سببا ليأسك ، من حصول الاستقامة مع ربك ؛ فقد يكون ذلك آخر ذنب قدر عليك »

الحكمة التاسعة والأربعون بعد المائة

« إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء ــ فاشهد ما منه إليك ، واذا أردت أن يفتح لك باب الخوف ــ فاشهد مامنك إليه »

الحكمة الخمسون بعد المائة

« ربما أفادك فى ليل القبض ــ ما لم تستفده فى إشراق نهار البسط (لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) »

الحكمة الحادية والخمسون بعد المائة

« مطالع الأنوار ــ القلوب والأسرار »

الحكمة الثانية والخمسون بعد المائة

« نور مستودع في القلوب ـــ مدده من النور الوارد من خزائن الغيوب »

الحكمة الثالثة والخمسون بعد المائة

« نور يكشف لك به عن آثاره ، ونور يكشف لك به عن أوصافه »

الحكمة الرابعة والخمسون بعد المائة

« ربما وقفت القلوب مع الأنوار ـــ كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار »

الحكمة الخامسة والخمسون بعد المائة

« ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر ، إجلالا لها أن تبتذل بوجود الإظهار ، وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار »

الحكمة السادسة والخمسون بعد المائة

« سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه »

الحكمة السابعة والخمسون بعد المائة

« ربما أطلعك على غيب ملكوته ، وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد »

الحكمة الثامنة والخمسون بعد المائة

«من اطلع على أسرار العباد ، ولم يتحلق بالرحمة الإلهية ـــ كان اطلاعة فتنة عليه ، وسببا لجر الوبال إليه »

الحكمة التاسعة والخمسون بعد المائة

« حظ النفس فى المعصية ــ ظاهر جلي ، وحظها فى الطاعة ــ باطن خفى ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه »

الحكمة الستون بعد المائة

ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك»

الحكمة الحادية والستون بعد المائة

« استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك ــ دليل على عدم صدقك فى عبوديتك » .

الحكمة الثانية والستون بعد المائة

« غيِّب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك ، وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك »

الحكمة الثالثة والستون بعد المائة

« من عرف الحق ــ شهده فى كل شىء ، ومن فنى به ، غاب عن كل شىء ، ومن أحبه ــ لم يؤثر عليه شيئا »

الحكمة الرابعة والستون بعد المائة

« إنما حجب الحق عنك ــ شدة قربه منك »

الحكمة الخامسة والستون بعد المائة

« إنما احتجب لشدة ظهوره ، وخفى عن الأبصار لعظم نوره »

الحكمة السادسة والستون بعد المائة

« لا يكن طلبك تسببا إلى العطاء منه ، فيقل فهمك عنه ، وليكن طلبك لاظهار العبودية وقياما بحق الربوبية »

الحكمة السابعة والستون بعد المائة

« كيف يكون طلبك اللاحق ــ سببا فى عطائه السابق !؟ » .

الحكمة الثامنة والستون بعد المائة

« جل حكم الأزل ــ أن ينضاف إلى العلل »

الحكمة التاسعة والستون بعد المائة

« عنايته فيك لا لشىء منك ، وأين كنت حين واجهتك عنايته ، وقابلتك رعايته !؟ لم يكن فى أزله ــ إخلاص أعمال ، ولا وجود أحوال ، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال ، وعظيم النوال »

الحكمة السبعون بعد المائة

« علم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر العناية ، فقال : (يختص برحمته من يشاء) وعلم أنه لوخلاهم وذلك ــ لتركوا العمل ؛ اعتمادا على الأزل ، فقال : (إن رحمة الله قريب من المحسنين) »

الحكمة الحادية والسبعون بعد المائة

« إلى المشيئة ــ يستند كل شىء ــ ولا تستند هى إلى شىء »

الحكمة الثانية والسبعون بعد المائة

« ربما دلهم الأدب على ترك الطلب ؛ اعتمادا على قسمته ؛ واشتغالا بذكره عن مسألته » .

الحكمة الثالثة والسبعون بعد المائة

« إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال ، وإنما ينبه من يمكن منه الإهمال »

الحكمة الرابعة والسبعون بعد المائة

« ورود الفاقات ــ أعياد المريدين »

الحكمة الخامسة والسبعون بعد المائة

« ربما وجدتَ من المزيد من الفاقات ــ مالا تجده فى الصوم والصلاة »

الحكمة السادسة والسبعون بعد المائة

« الفاقات بسط المواهب »

الحكمة السابعة والسبعون بعد المائة

« إن أردت ورود المواهب عليك ــ صحح الفقر والفاقة لديك : (انما الصدقات للفقراء) »

الحكمة الثامنة والسبعون بعد المائة

« تحقق بأوصافك ــ يمدك بأوصافه ، تحقق بِذُلِّك ــ يمدك بعزه ، تحقق بعجزك ــ يمدك بقدرته ، تحقق بضعفك ــ يمدك بحوله وقوته »

الحكمة التاسعة والسبعون بعد المائة

« ربما رزق الكرامة ــ من لم تكمل له الاستقامة »

الحكمة الثمانون بعد المائة

« من علامات إقامة الحق لك فى الشىء ــ إقامته إياك فيه ، مع حصول النتائج »

الحكمة الحادية والثمانون بعد المائة

« من عبر من بساطِ إحسانه ــ أصمتته الإساءة ، ومن عبر من بساط إحسان الله إليه ــ لم يصمت إذا أساء »

الحكمة الثانية والثمانون بعد المائة

« تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ؛ فحيث صار التنوير ــ وصل التعبير »

الحكمة الثالثة والثمانون بعد المائة

« كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز »

الحكمة الرابعة والثمانون بعد المائة

« من أذن له فى التعبير ــ فهمت فى مسامع الخلق ــ عبارته ، وجليت إليهم اشارته »

الحكمة الخامسة والثمانون بعد المائة

« ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار ، إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار »

الحكمة السادسة والثمانون بعد المائة

« عباراتهم إما لفيضان وجد ، أو لقصد هداية مريد : فالأول : حال السالكين ، والثانى حال أرباب المكنة والمحققين »

الحكمة السابعة والثمانون بعد المائة

« العبارات قوت لعائلة المستمعين ، وليس لك إلا ما أنت له آكل »

الحكمة الثامنة والثمانون بعد المائة

« ربما عبر عن المقام من استشرف عليه ، وربما عبر عنه من وصل إليه ، وذلك — ملتبس إلا على صاحب بصيرة »

الحكمة التاسعة والثمانون بعد المائة

« لا ينبغى للسالك أن يعبر عن وارداته ؛ فإن ذلك يقل عملها فى قلبه ، ويمنعه وجود الصدق مع ربه » .

الحكمة التسعون بعد المائة

« لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق — إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك ، فإذا كنت كذلك — فخذ ما وافقك العلم »

الحكمة الحادية والتسعون بعد المائة

« ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه ؛ لاكتفائه بمشيئته ، فكيف لا يستحيى أن يرفعها إلى خليقته ؟! »

الحكمة الثانية والتسعون بعد المائة

« إذا التبس عليك أمران ـــ فانظر أثقلهما على النفس ، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا »

الحكمة الثالثة والتسعون بعد المائة

« من علامات اتباع الهوى ـــ المسارعة إلى نوافل الخيرات ، والتكاسل عن القيام بالواجبات »

الحكمة الرابعة والتسعون بعد المائة

« قيد الطاعات بأعيان الأوقات ، كي لا يمنعك عنها ـــ وجود التسويف ، ووسع عليك الوقت كى تبقى لك حصة الاختيار »

الحكمة الخامسة والتسعون بعد المائة

« علم قلة نهوض العباد إلى معاملته ، فأوجب عليهم وجود طاعته ، فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب ، عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل »

الحكمة السادسة والتسعون بعد المائة

« أوجب عليك وجود خدمته ، وما أوجب عليك إلا دخول جنته »

الحكمة السابعة والتسعون بعد المائة

« من استغرب أن ينقذه الله من شهوته ، وأن يحرجه من وجود غفلته ـــ فقد استعجز القدرة الإلهية : (وكان الله على كل شيء مقتدراً) » .

الحكمة الثامنة والتسعون بعد المائة

« ربما وردت الظلم عليك ؛ ليعرفك قدر ما من به عليك »

الحكمة التاسعة والتسعون بعد المائة

« من لم يعرف قدر النعم بوجدانها ـــ عرفها بوجود فقدانها »

الحكمة المائتان

« لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك ، فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك »

الحكمة الحادية بعد المائتين

« تمكن حلاوة الهوى من القلب ـــ هو الداء العضال »

الحكمة الثانية بعد المائتين

« لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج ، أو شوق مقلق »

الحكمة الثالثة بعد المائتين

« كما لا يحب العمل المشترك ـــ كذلك لا يحب القلب المشترك : العمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشترك لا يقبل عليه »

الحكمة الرابعة بعد المائتين

« أنوار أذن لها فى الوصول ، وأنوار أذن لها فى الدخول »

الحكمة الخامسة بعد المائتين

« ربما وردت عليك الأنوار ــ فوجدت قلبك محشوًا بصور الآثار ــ فارتحلت من حيث نزلت »

الحكمة السادسة بعد المائتين

« فرغ قلبك من الأغيار ــ يملأه بالمعارف والأسرار »

الحكمة السابعة بعد المائتين

« لا تستبطىء منه النوال ــ ولكن استبطىء من نفسك وجود الإقبال »

الحكمة الثامنة بعد المائتين

« حقوق فى الأوقات يمكن قضاؤها ، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها : إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد ، وأمر أكيد ، فكيف تقضى فيه حق غيره ، وأنت لم تقض حق الله فيه ؟! »

الحكمة التاسعة بعد المائتين

« مافات من عمرك ــ لا عوض له ، وما حصل لكِ منه ، لا قيمة له »

الحكمة العاشرة بعد المائتين

« ما أحببت شيئا إلا كنت له عبدا ، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدا »

الحكمة الحادية عشرة بعد المائتين

« لا تنفعه طاعتك ، ولاتضره معصيتك ، وإنما أمرك بهذه ، ونهاك عن هذه ؛ لما يعود عليك »

الحكمة الثانية عشرة بعد المائتين

« لا يزيد فى عزه ـــ إقبال من أقبل عليه ، ولا ينقص من عزه ـــ إدبار من أدبر عنه »

الحكمة الثالثة عشرة بعد المائتين

« وصولك إلى الله ـــ وصولك إلى العلم به ـــ وإلا فجل ربنا أن يتصل به شيء ، أو يتصل هو بشيء »

الحكمة الرابعة عشرة بعد المائتين

« قربك منه ـــ أن تكون مشاهدا لقربه ، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه ؟! »

الحكمة الخامسة عشرة بعد المائتين

« الحقائق ترد فى حال التجلى ـــ مجملة ، وبعد الوعى ـــ يكون البيان : (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه » .

الحكمة السادسة عشرة بعد المائتين

« متى وردت الواردات الإلهية عليك ـــ هدمت العوائد عليك : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) »

الحكمة السابعة عشرة بعد المائتين

« الوارد يأتى من حضرة قهار ؛ لأجل ذلك ـــ لا يصادمه شيء ، إلا دمغه (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) » .

الحكمة الثامنة عشرة بعد المائتين

« كيف يحتجب الحق بشيء ، والذى يحتجب به ـــ هو فيه ظاهر ، وموجود حاضر !؟

الحكمة التاسعة عشرة بعد المائتين

« لا تيأس من قبول عمل ـــ لم تجد فيه وجود الحضور ، فربما قبل من العمل ـــ مالم تدرك ثمرته عاجلا »

الحكمة العشرون بعد المائتين

« لا تزكين واردا لا تعلم ثمرته ، فليس المراد من السحابة ـــ الإمطار ، وإنما المراد منها ـــ وجود الإثمار »

الحكمة الحادية والعشرون بعد المائتين

« لا تطلبن بقاء الواردات ـــ بعد أن بسطت أنوارها ، وأودعت أسرارها ، فلك ـــ فى الله ـــ غنى عن كل شيء ، وليس يغنيك عنه شيء »

الحكمة الثانية والعشرون بعد المائتين

« تطلعك إلى بقاء غيره ـــ دليل على عدم وجدانك له ، واستيحاشك لفقدان ماسواه ـــ دليل على عدم وصلتك به »

الحكمة الثالثة والعشرون بعد المائتين

« النعيم وإن تنوعت مظاهره ـــ إنما هو لشهوده واقترابه ، والعذاب وإن تنوعت مظاهره ـــ إنما هو لوجود حجابه ، فسبب العذاب ـــ وجود الحجاب ، واتمام النعيم ـــ بالنظر إلى وجهه الكريم »

الحكمة الرابعة والعشرون بعد المائتين

« ما تجده القلوب من الهموم والأحزان ــ فلأجل ما منعته من وجود العيان »

الحكمة الخامسة والعشرون بعد المائتين

« من تمام النعمة عليك ــ أن يرزقك ما يكفيك ، ويمنعك ما يطغيك »

الحكمة السادسة والعشرون بعد المائتين

« ليقل ما تفرح به ــ يقل ما تحزن عليه »

الحكمة السابعة والعشرون بعد المائتين

« إن أردت ألا تعزل ــ فلا تتول ولاية لا تدوم لك »

الحكمة الثامنة والعشرون بعد المائتين

« إن رغبتك البدايات ــ زهدتك النهايات : إن دعاك إليها ظاهر ــ نهاك عنها باطن »

الحكمة التاسعة والعشرون بعد المائتين

« انما جعلها محلا للأغيار ، ومعدنا للأكدار ؛ تزهيدا لك فيها »

الحكمة الثلاثون بعد المائتين

« علم أنك لا تقبل النصح المجرد ، فذوقك من ذواقها ــ ما سهل عليك وجود فراقها »

الحكمة الحادية والثلاثون بعد المائتين

« العلم النافع ــ هو الذى ينبسط فى الصدر شعاعه ، وينكشف به عن القلب قناعه »

الحكمة الثانية والثلاثون بعد المائتين

« خير العلم ــ ما كانت الخشية معه »

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المائتين

« العلم إن قارنته الخشية ــ فلك وإلا فعليك »

الحكمة الرابعة والثلاثون بعد المائتين

« متى آلمك عدم إقبال الناس عليك ، أو توجههم بالذم إليك ــ فارجع إلى علم الله فيك فإن كان لا يقنعك علمه ــ فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه ــ أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم »

الحكمة الخامسة والثلاثون بعد المائتين

« إنما أجرى الأذى على أيديهم كى لا تكون ساكنا إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شىء ، حتى لا يشغلك عنه شىء »

الحكمة السادسة والثلاثون بعد المائتين

« إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك ــ فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده »

الحكمة السابعة والثلاثون بعد المائتين

« جعله لك عدوا ؛ ليحوشك به إليه ، وحرك عليك النفس ؛ ليدوم إقبالك عليه .

الحكمة الثامنة والثلاثون بعد المائتين

« من أثبت لنفسه تواضعا ــ فهو المتكبر حقا : إذ ليس التواضع إلا عن رفعة ؛ فمتى أثبت لنفسك تواضعا ــ فأنت المتكبر حقا »

الحكمة التاسعة والثلاثون بعد المائتين

« ليس المتواضع ، الذى إذا تواضع ــ رأى أنه فوق ما صنع ، ولكن المتواضع ، الذى إذا تواضع ــ رأى أنه دون ما صنع »

الحكمة الأربعون بعد المائتين

« التواضع الحقيقى ــ هو ما كان ناشئا عن شهود عظمته ، وتجلى صفته »

الحكمة الحادية والأربعون بعد المائتين

« لا يخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف »

الحكمة الثانية والأربعون بعد المائتين

« المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون ــ لنفسه ــ شاكرا ، وتشغله حقوق الله عن أن يكون ــ لحظوظه ــ ذاكرا »

الحكمة الثالثة والأربعون بعد المائتين

« ليس المحب الذى يرجو من محبوبه عوضا ، أو يطلب منه غرضا ؛ فإن المحب من يبذل لك ، ليس المحب من تبذل له »

الحكمة الرابعة والأربعون بعد المائتين

« لولا ميادين النفوس ــ ما تحقق سير السائرين ، إذ لا مسافة بينك وبينه ؛ حتى

تطويها رحلتك ، ولا قطعة بينك وبينه ؛ حتى تمحوها وصلتك »

الحكمة الخامسة والأربعون بعد المائتين

« جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ؛ ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته ، وأنك جوهرة ، تنطوى عليك أصداف مكوناته »

الحكمة السادسة والأربعون بعد المائتين

« إنما وسعك الكون من حيث جسمانيتك ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك »

الحكمة السابعة والأربعون بعد المائتين

« الكائن في الكون ، ولم تفتح له ميادين الغيوب ـــ مسجون بمحيطاته ، ومحصور في هيكل ذاته »

الحكمة الثامنه والأربعون بعد المائتين

« أنت من الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدته ـــ كانت الأكوان معك »

الحكمة التاسعة والأربعون بعد المائتين

« لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية : إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار : ظهرت في الأفق ، وليست منه : تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك وتارة يقبض ذلك عنك ، فيردك إلى حدودك ، فالنهار ليس منك وإليك ، ولكنه وارد عليك »

الحكمة الخمسون بعد المائتين

« دل بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه ،

وبثبوت أوصافه على وجود ذاته ؛ إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه ؛ فأرباب الجذب ـــ يكشف لهم عن كمال ذاته ، ثم يردهم إلى شهود صفاته ، ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه ، ثم يردهم إلى شهود آثاره ، والسالكون على عكس هذا ، فنهاية السالكين ـــ بداية المجذوبين ، وبداية السالكين ـــ نهاية المجذوبين ، لكن لا بمعنى واحد ؛ فربما التقيا فى الطريق : هذا فى ترقيه ، وهذا فى تدليه »

الحكمة الحادية والخمسون بعد المائتين

« لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا فى غيب الملكوت ، كما لا تظهر أنوار السماء إلا فى شهادة الملك »

الحكمة الثانية والخمسون بعد المائتين

« وجدان ثمرات الطاعات عاجلا ـــ بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلا »

الحكمة الثالثة والخمسون بعد المائتين

« كيف تطلب العوض على عمل ـــ هو متصدق به عليك ؟ أم كيف تطلب الجزاء على صدق ـــ هو مهديه إليك ؟ » .

الحكمة الرابعة والخمسون بعد المائتين

« قوم تسبق أنوارهم أذكارهم ، وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم ، وقوم تتساوى أذكارهم وأنوارهم ، وقوم لا أذكار ولا أنوار ـــ نعوذ بالله من ذلك ـــ»

الحكمة الخامسة والخمسون بعد المائتين

« ذاكر ذكر ؛ ليستنير قلبه ، وذاكر استنار قلبه ؛ فكان ذاكرا ، والذى استوت أذكاره وأنواره ـــ فبذكره يهتدى ، وبنوره يقتدى »

الحكمة السادسة والخمسون بعد المائتين

« ما كان ظاهر ذكر ــ إلا عن باطن شهود وفكر »

الحكمة السابعة والخمسون بعد المائتين

« أشهدك من قبل أن يستشهدك ، فنطقت بإلهيته الظواهر ، وتحققت بأُحديته القلوب والسرائر »

الحكمة الثامنة والخمسون بعد المائتين

« أكرمك بكرامات ثلاث : جعلك ذاكرا له ، ولولا فضله ــ لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك ، وجعلك مذكورا به ؛ إذ حقق نسبته لديك ، وجعلك مذكورا عنده ، فَتَمَّمَ نعمته عليك »

الحكمة التاسعة والخمسون بعد المائتين

« رب عمر ــ اتسعت آماده ، وقلت أمداده ، ورب عمر ــ قليلة آماده كثيرة أمداده »

الحكمة الستون بعد المائتين

« من بورك له في عمره ــ أدرك في يسير من الزمن ــ من منن الله تعالى ــ مالا يدخل تحت دوائر العبارة ، ولا تلحقه الإشارة »

الحكمة الحادية والستون بعد المائتين

« الخذلان كل الخذلان ــ أن تتفرغ من الشواغل ، ثم لا تتوجه إليه ، وتقل عوائقك ، ثم لا ترحل إليه »

الحكمة الثانية والستون بعد المائتين

« الفكرة سير القلب فى ميادين الأغيار »

الحكمة الثالثة والستون بعد المائتين

« الفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت ــ فلا إضاءة له »

الحكمة الرابعة والستون بعد المائتين

« الفكرة فكرتان : فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة جهود وعيان : فالأولى لأرباب الاعتبار ، والثانية لأرباب الشهود والاستبصار » .

تقريب الحكم وشرحها

الحكمة الأولى

قال ابن عطاء الله :

" مِنْ عَلاَمَاتِ الاعْتِمادِ عَلَى الْعَمَلِ ـ نُقْصَانُ الرَّجاءِ عِنْدَ وُجُودِ الزَّلَلِ "

قال ابن عباد :

أقول : الاعتماد على الله تعالى نعت العارفين الموحدين ، والاعتماد على غيره وصف الجاهلين الغافلين ، كائنا ما كان ذلك الغير ، حتى علومهم وأعمالهم وأحوالهم . أما العارفون الموحدون فإنهم على بساط القرب والمشاهدة ناظرون إلى ربهم ، فانون عن أنفسهم ، فإذا وقعوا فى زلة ، أو أصابتهم غفلة ، شهدوا تصريف الحق تعالى لهم ، وجريان قضائه عليهم ، كما أنهم إذا صدرت عنهم طاعة ، أو لاح عليهم لائح من يقظة ، لم يشهدوا فى ذلك أنفسهم ، و لم يروا فيها حولهم ولا قوتهم ؛ لأن السابق إلى قلوبهم ذكر ربهم ، فأنفسهم مطمئنة تحت جريان أقداره . وقلوبهم ساكنة بما لاح لها من أنواره ، ولا فرق عندهم بين الحالين ، لأنهم غرقى فى بحار التوحيد ، قد استوى خوفهم ورجاؤهم فلا ينقص من خوفهم ما يجتنبونه من العصيان ، ولا يزيد فى رجائهم ما يأتون به من الإحسان .

---

(١) الاعتماد على الشيء ، الاستناد عليه ، والركون اليه .

(٢) العمل : حركة الجسم أو القلب ، فان تحرك بما يوافق الشريعة سمى طاعة وان تحرك بما يخالف الشريعة سمى معصية .

(٣) نقصان الرجاء : أى الرجاء فى الله تعالى .

(٤) الزلل : الزلة : السقطة والخطيئة .

قال شارح المجالس : العارفون قائمون بالله قد تولى الله أمرهم ، فإذا ظهرت منهم طاعة ، لم يرجوا عليها ثوابا ؛ لأنهم لم يروا أنفسهم عمَّالا لها ، وإن ظهرت منهم زله فالدية على القاتل ، لم يشاهدوا غيره فى الشدة والرخاء ، قيامهم بالله ، ونظرهم إليه ، وخوفهم هيبته ، ورجاؤهم الأنس به أهـ . وأما غيرهم فبقوا مع نفوسهم فى نسبة الأعمال والأفعال اليها ، وطلبوا الحظ لها وعليها ، فاعتمدوا على أعمالهم وسكنوا إلى أحوالهم ، فإذا وقعوا فى زله نقص بذلك رجاؤهم ، كما أنهم إذا عملوا طاعة جعلوها من أعظم عددهم وأقوى معتمدهم ، فتعلقوا بالأسباب ، وحُجِبوا بتفرقهم بها عن رب الأرباب ، فمن وجد هذه العلامة فى نفسه ؛ فليعرف منزلته وقدره ، ولا يتعد طوره ؛ فيدعى مقامات الخاصة من المقربين ، وإنما هو من عامة أصحاب اليمين .

وستأتى إشارات إلى هذا المعنى فى مواضع من كلام المؤلف ، قدس الله سره ، وذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، والحافظ أبو نعيم الأصفهانى عن يوسف بن الحسين الرازى رضى الله عنهم ، قال : عارضنى بعض الناس فى كلام ، وقال لى : لا تستدرك مرادك من عملك إلا أن تتوب ، فقلت مجيبا : لو أن التوبة تطرق بابى ما أذنت لها ، على أنى أنجو بها من ربى ، ولو أن الصدق والإخلاص كانا عبدين لى ، لبعتهما زهدا منى فيهما ، لأنى إن كنت عند الله فى علم الغيب سعيدا مقبولا ، لم أتخلف باقتراف الذنوب والمآثم ، وإن كنت عنده شقيا مخذولا ـــ لم تسعدنى توبتى وإخلاصى وصدقى ، وإن الله خلقنى إنسانا بلا عمل ، ولا شفيع كان لى إليه ، وهدانى لدينه الذى ارتضاه لنفسه ، فقال الله تعالى : ومن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام ديناً فلن يُقْبَلَ منه ، وهوَ فى الآخرةِ من الخَاسْرين[1] . فاعتمادى على فضله وكرمه أولى بى إن كنت حرا عاقلا من اعتمادى على أفعالى المدخولة ، وصفاتى المعلولة ؛ لأن مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا من قلة معرفتنا بالكريم المتفضل . قلت : وهذه الحكاية وأمثالها ربما تقرع سمع من لا حقيقة عنده من طريق القوم ، فينكر معناها ، ولا يعتقده ، أو يسلمه ، ويدعيه مقاما لنفسه ، وكلتا الحالتين مؤدية بصاحبها إلى

---

(١) آية ٨٥ سورة آل عمران .

ضرر وخطر ، فليتق الله عبد ليس له بصر فى هذه الطريقة — أن ينكر ما ذكرناه ، فيقع فى الاعتراض على السادة والأولياء ، وفى ذلك بعده من الله تعالى ، أو يدعيه مقاما لنفسه ، من غير أن يستظهر عليها ويتوثق منها ، ويزنها بالمعيار الذى نبهنا عليه ، ومحل وجود ذلك ممن لم يصحح مقام الغناء عن النفس ، فيرتكب حينئذ مساخط الله تعالى ، ويتعدى حدوده ويجعل ذلك حجة لنفسه غلطا وجهلا ، وهذا باب من الزندقة ، والعياذ بالله سبحانه .

تعقيـــب

من علامات تعويل العامل على عمله ، وركونه اليه — نقصان رجائه فى رحمة الله عند وجود زلله ، ومفهوم هذا رجحان الرجاء عند التحلى بصالح العمل ، والتخلى عن الخطيئة والزلل . ومقصود المؤلف هو تنشيط السالك المجد فى الطاعات وأفعال الخير ورفع همته عن الاعتماد عليها إلى الاعتماد على فضل الله . وليس مقصوده الأمر بترك العبادة ، فقد كان من أعظم العباد فى حياته كلها ، ودعوته إلى الاجتهاد فى العبادة واضحة فى مؤلفاته ، فالمؤلف أراد بهذه الحكمة عدم التعويل على الأعمال ، والاعتماد على فضل الله ، حتى لا يقنط مخطىء من رحمة ربه ، بل يطمع دائما فى رحمته ، ويجعل نصب عينيه قوله تعالى : وهو الذى يَقبَلُ التوبَة عن عِبادِهِ ، و يَعْفوَ عن السيئاتِ ، ويعلم ما تفعلون '' (آية ٢٥ من سورة الشورى) وقوله صلى الله عليه وسلم : لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته . رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما : عن أبى هريرة رضى الله عنه ''

الحكمة الثانيــة

قال ابن عطاء الله :

'' إِرَادَتُكَ التَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ اللهِ إِيَّاكَ فِي الأَسْبَابِ ــ مِنَ الشَّهْوَةِ الخَفِيَّةِ ، وإِرَادَتُكَ الأَسْبَابَ مع إقامةِ اللهِ إِيَّاكَ في التَّجْرِيدِ ــ انحِطَاطٌ عن الهِمَّةِ العلِيَّةِ ''

قال ابن عباد :

الأسباب ها هنا عبارة عما يُتَوصَّلُ به الى غرض ما ينال فى الدنيا ، والتجريد عبارة عن عدم تشاغله بتلك الأسباب ، لأجل ذلك فمن اقامه الحق تعالى فى الأسباب وأراد هو الخروج منها ، فذلك من شهوته الخفية ، وإنما كانت من الشهوة لعدم وقوفه مع مراد الله تعالى به ، وارادته هو خلاف ذلك ، وإنما كانت خفية ، لأنه لم يقصد بذلك نيل حظ عاجل ، وانما قصد بذلك التقرب الى الله تعالى بكونه على حال هى أعلى بزعمه ، لكن فاته الأدب بعدم وقوفه مع مراد الله تعالى من اقامته

---

(١) التجريد فى اللغة : الإزالة ، وعند الصوفيه ثلاثة أقسام : تجريد الظاهر فقط ، أو الباطن فقط ، أوهما معا ، فتجريد الظاهر ، هو ترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله ، وتجريد الباطن : هو ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله ، وتجريد هما معا : هو إفراد القلب والقالب لله (إيقاظ الهمم فى شرح الحكم لابن عجيبة ص ١٥ ، ١٦)

(٢) إرادتك التجريد : أى ميل نفسك الى التجريد عن الأسباب الظاهرية .

(٣) مع إقامة الله إياك فى الاسباب : علامة ذلك : أن يهيئها لك .

(٤) من الشهوة الخفية : أى من شهوات النفوس التى تدعو اليها الخفية .

(٥) ارادتك الأسباب : أى التسبب والاكتساب .

(٦) مع اقامة الله إياك فى التجريد : أى بأن يسر لك القوت من حيث لا تحتسب .

(٧) الانحطاط : النزول من علو الى أسفل ، الهمة : قوة انبعاث فى النفس الى مقصود ما .

(٨) انحطاط عن الهمة العلية : لإرادة الرجوع الى الخلق ، بعد التعلق بالحق .

إياه فيما اقامه فيه وتطلعه الى مقام رفيع ، لا يليق به فى الوقت ، وعلامة إقامته إياه فى الأسباب أن يدوم له ذلك ، وأن تحصل له ثمرته ونتيجته ، وذلك بأن يجد عند تشاغله بالأسباب سلامة فى دينه ، وقطعا لمطمعه عن غيره ، وحسن نيته فى صلة الرحم ، أو إعانة فقير مُعْدَم ، الى غير ذلك من فوائد المال المتعلقة بالدين ، ومن أقامه الحق تعالى فى التجريد ، وأراد الخروج منه الى الأسباب — فذلك من انحطاط همته ، وسوء أدبه ، وكان واقفا مع شهوته الجلية ، لأن التجريد مقام رفيع ، أقام الحق فيه خواص عباده من الموحدين والعارفين .

فإذا أقامه الحق تعالى فى مقام الخواص — فَلِمَ ينحط عن رتبتهم الى منازل أهل الانتقاص ؟

قال الشيخ أبو عبد الله القرشى — رضى الله عنه : من لم يأنف من مشاركة الاضداد فى الأسباب فهو خسيس الهمة ، وعلامة إقامته إياه فى التجريد — ما ذكرناه من الدوام ، ووجدان الثمرة ، ومن ثمرات ذلك طيب وقت المتجرد ، وصفاء قلبه ، ووجدان راحته من ملابسة الخلق ومخالطتهم ، والهمة حالة للقلب ، وهى قوة ارادة وغلبة انبعاث الى نيل مقصودٍ ما ، وتكون عالية إن تعلقت بمعالى الأمور ، وسافلة إن تعلقت بأدانيها ، قال الشاعر وأجاد :

وقائلةٍ لِـمْ عَلَـتْكَ الهمـوم ... وأمـرك ممتثـل فى الأمم
فقلت : ذرينى على حَالَتى ... فإن الهمومَ بقدر الهِمَـمْ

وقال الآخر :

إذا أَعْطَشَتْكَ أكفُّ اللئـام ... كَفَتْكَ القناعةُ شِبْعاً وريًّـا
فكن رَجُلاً رِجْلهُ فى الثرى ... وهامـةُ هِمَّتِـه فى الثُرَيَّـا
فـإن إراقَـةَ مـاء الحيـا ... ة دون إراقةِ ماء المُحَيَّا

وما ذكرته من معانى الاقامة فى نوعى الأسباب والتجريد — هو شىء فهمته مما يقوله بعد هذا : من علامة إقامة الحق لك فى الشىء إدامته إياك فيه ، مع حصول النتائج ، والله أعلم ، وقد ذكر فى التنوير هذه المسأله بنصها ، حاكيا عن هذا الكتاب ، وقال بأثره : وافهم رحمك الله أن من شأن العدو أن يأتيك فيما أنت فيه مما أقامك الله ، فيحقره عندك ، يتطلب غير ما أقامك الله فيه ؛ فيشوش عليك

قلبك ، ويكدّر وقتك ، وذلك أنه يأتى للمتسببين فيقول لهم : لو تركتم الأسباب ، وتجردتم لأشرقت لكم الأنوار ، ولصفت منكم القلوب والأسرار ، ويقول : وكذلك صنع فلان وفلان ، ويكون هذا العبد ليس مقصودا بالتجريد ، ولا طاقة له به ، إنما صلاحه فى الأسباب ، فيتركها ، فيتزلزل إيمانه ، ويذهب إيقانه ، ويتوجه الى الطلب من الخلق ، والى الاهتمام بأمر الرزق ، فيرمى فى بحر القطيعة ، وذلك قصد العدو منه ، لأنه انما يأتيك فى صورة ناصح ، كما أتى أبويك فيما أخبر الله تعالى عنه ، بقوله تعالى : ’’ وقال ما نَهَاكما رَبُكما عن هذه الشجرة إلا أن تكُونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين . وقاسَمَهُما انى لكما لَمِنَ النّاصِحينْ[١] . كما تقدم بيانه ، وكذلك يأتى المتجردين ، ويقول لهم : الى متى تتركون الأسباب ؟ ألم تعلموا أن ترك الأسباب تتطلع معه القلوب الى مافى أيدى الناس ، ويفتح باب الطمع ، ولا يمكنكم الاسعاف والإيثار ، ولا القيام بالحقوق ؟ وعوض ما تكون منتظرا لما يفتح به عليك من الخلق . فلو دخلت فى الأسباب بقى غيرك منتظرا ما يفتح به عليه منك الى غير ذلك ، ويكون هذا العبد قد طاب وقته ، وانبسط نوره ، ووجد الراحة بالانقطاع عن الخلق ، فلايزال به حتى يعود الى الأسباب فتصيبه كدرتها ، وتغشاه ظلمتها ، ويعود الدائم فى سببه أحسن حالا منه ، لأن ذلك ماسلك طريقا ثم رجع عنها ، ولا قصد مقصدا ثم انعطف عنه ، فافهم ، واعتصم بالله ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ إلى صراطٍ مستقيم[٢] . وانما قصد الشيطان بذلك أن يمنع العباد الرضا عن الله تعالى فيما هم فيه ، وأن يخرجهم عن مختار الله لهم الى مختارهم لأنفسهم ، وما أدخلك الله فيه تولى إعانتك عليه ، وما دخلت فيه بنفسك ، وكلك إليه ’’ وقل ربّ أدْخِلنِي مُدْخَلَ صِدقٍ وأخْرِجْنى مُخْرجَ صِدْقٍ واجعلْ لى من لَدُنكِ سلطاناً نصيرا ‘‘[٣] .

فالمدخل الصدق أن تدخل فيه لا بنفسك ، والمخرج الصدق أيضا كذلك ، فافهم . والذى يقتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك ، حتى يكون الحق سبحانه

(١) آية ٢٠ ، ٢١ من سورة الأعراف .
(٢) آية ١٠١ من سورة آل عمران .
(٣) آية ٨٠ من سورة الإسراء .

هو الذى تولى إخراجك كما تولى إدخالك ، وليس الشأن أن تترك السبب ، بل الشأن أن يتركك السبب . قال بعضهم : " تركت السبب كذا كذا مرة ، فعدت إليه ، ثم تركنى السبب فلم أعد إليه ، ودخلت على الشيخ رضى الله عنه ، وفى نفسى العزم على التجريد ، قائلا فى نفسى : إن الوصول الى الله تعالى على هذه الحالة بعيد من الاشتغال بالعلوم الظاهرة ، ووجود المخالطة للناس ، فقال لى من غير أن أسأله : صحبنى انسان مشتغل بالعلوم الظاهرة ، ومتصدر فيها ، فذاق من هذه الطريق شيئا ، فجاء إلىَّ ، فقال : يا سيدى ، أخرج عما أنا فيه ، وأتجرد لصحبتك ؟

فقلت : ليس الشأن ذا ، ولكن امكث فيما أنت فيه ، وما قسم الله لك على أيدينا ، فهو إليك واصل . ثم قال الشيخ ، ونظر الىَّ وهكذا شأن الصدِّيقين ، لا يخرجون من شئ ، حتى يكون الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى يتولى إخراجهم ، فخرجت من عنده ، وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى ، ووجدت الراحة بالتسليم الى الله تعالى ، ولكنهم كما قال رسول الله ﷺ " هم القوم لا يشقى بهم جليسهم " انتهى كلامه فى التنويز فى هذا المعنى ،[1] وهو كلام حسن . وانما اثبتناه ها هنا على طوله ، لأنه تولى فيه بيان مسألته التى ذكرها فى هذا الكتاب بنفسه بيانا شافيا ، فنقلناه بلفظه ، وددنا لو أن جميع مسائله تكون هكذا .

---

(١) أى : إن الواجب على السالك أن يمكث فيما أقامه الله فيه ، ويرضى به ، حتى يتولى الله إخراجه منه ، ولا يخرج بنفسه وارادته ، وتزيين الشيطان له .

الحكمة الثالثة

قال ابن عطاء الله :

« سَوَابِقُ الْهِمَمِ [1] . لَا تَخْرِقُ أَسْوَارَ الأَقْدَارِ »

قال ابن عباد :

الهمم السوابق : هى قوى النفس التى تنفعل عنها بعض الموجودات باذن الله تعالى ، وتسميها الصوفية « همة » فيقولون : أحال فلان همته على أمر ما ، فانفعل له ذلك ، وهذه الهمم السابقة لا تنفعل الأشياء عنها إلا بالقضاء والقدر ، وهو معنى قولنا : بإذن الله تعالى . فهى على حال سبقيتها ونفوذها ـــ لا تخرق أسوار الأقدار ، ولا تنفذها ، وهذه الهممَ قد تكون للأولياء كرامات ، وقد تكون لغيرهم استدراجا ، ومكرا ، كما تكون للعائن والساحر ، وقد ثبت أن العين حق ، والسحر حقّ ، ومعناه ما ذكرنا . وحاصل ذلك : أنه يجب أن يعتقد أنها أسباب لا تأثير لها ، ولا فاعلية ، وأن الفاعل هو الله تعالى وحده عندها لابها ، وكأن المؤلف رحمه الله إنما أورد هذه المسأله بين كلامه فى التدبير ، ليعرفك بذلك أن وجود التدبير لا جدوى له ، ولا فائدة ؛ لأن الهمة الفعالة إذا لم تفد فى خرق أسوار الأقدار شيئا ، كيف يفيد فى ذلك التدبير ، وما لا فائدة فيه فضول ، لا ينبغى أن يتشاغل به ، ويتعب فيه ذوو العقول ولذلك قال :

---

(١) سوابق الهمم : أى الهمم السوابق : ذات السبق والتقدم : أى سريعة التأثير وهى قوى النفس التى تنفعل عنها الأشياء بارادة الله تعالى وإذنه .

وسوابق الهمم : من إضافة الصفة الى الموصوف .

(٢) اسوار الأقدار : من إضافة المشبه به الى المشبه . ومعنى الحكمة : ان الهمم مع سبقها وسرعة تأثيرها ، وإمكان نفوذها ـــ لا تخرق اقداره تعالى المصونه المحفوظة التى كأنها مدينة ذات أسوار فولاذية لا تخرق ، ولا تنفذ فيها القوى ، مهما عظمت . ومن ثم فيجب اعتقاد أن الهمم أسباب لا تأثير لها ، ولا فاعلية ، وان الفاعل هو الله وحده ، وما ينشأ عنها إنما هو بقضاء الله وقدره .

وهذه الحكمة تعليل للحكمة التى قبلها ، وتمهيد للحكمة التى بعدها .

الحكمة الرابعة

قال ابن عطاء الله :

« أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدبِيرِ[1] ، فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ ــ لاَ تَقُمْ بِهِ لِنفسِكَ »

قال ابن عباد :

تدبير الخلق لأمور دنياهم على الوجه الذى نقوله مذموم ، لأن الله تعالى قد تكفل لهم بذلك ، وقام به عنهم ، وطلب منهم أن يفرغوا قلوبهم منه ، ويقوموا بحق عبوديته ، ووظائف تكليفاته فقط ، وهو أن يقدر العبد لنفسه شئونا يكون عليها من أمر دنياه على ما تقتضيه شهوته وهواه ، ويدبر لها ما يليق بها من أحوال وأعمال ، ويستعد لذلك ، ويهتم لأجله ، وهذا تعب عظيم ، استعجله لنفسه ، ولعل أكثر ما يقدره لا يقع ، فيخيب ظنه ، ويبطل سعيه ، ثم فيه من ترك العبودية ، ومضادة أحكام الربوبية ، ومنازعة القدر ، واضاعة العمر ــ ما يحمل العاقل على تركه واجتنابه ، وقطع مواده وأسبابه ، قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه[2] :

---

(١) التدبير لغة : هو النظر فى الأمور وأواخرها . وفى الاصطلاح ــ كما يفهم من كلام الشيخ « زروق » وهو قمة من قمم التصوف ــ التدبير ثلاثة أقسام : قسم مذموم وقسم مطلوب ، وقسم مباح . فأما القسم المذموم فهو الذى يصحبه الجزم والتصميم دينيا أو دنيويا . وأما المطلوب فهو تدبير ما تكلفه من الواجبات ، وما تندب إليه من الطاعات مع تفويض المشيئة والنظر الى القدرة . وهذا يسمى النية الصالحة . وقد قال عليه السلام : « نية المؤمن خير من عمله » وأما القسم المباح فهو التدبير فى أمر دنيوى أو طبيعى مع التفويض للمشيئة وعليه يحمل قوله (ص) التدبير نصف العيش » . والتدبير الذى دعا ــ العارف بالله « ابن عطاء » المريد أن يريح نفسه منه ــ هو التدبير المنافى للعبودية . بأن تقول : لولا فعلت كذا ما كان كذا ، ولو أنى فعلت كذا كان كذا ، فان الله تعالى دبر الأشياء فى سابق علمه وما قام به غيرك عنك ، لا تقم به لنفسك .

(٢) هو أبو محمد سهل بن عبد الله : أحد أئمة الصوفية وعلمائهم . توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين من الهجرة .

ذروا التدبير والاختيار ، فانهما يكدران على الناس عيشهم . وقال سيدى أبو الحسن الشاذلى[1] : ان كان ولا بد أن تدبروا ، فدبروا أن لا تدبروا ، وهذه المسألة أساس طريق القوم ، بل هى جملته وكليته ، والكلام فيها طويل عريض ، وانما اقتصرنا فيها على هذا القدر اليسير من التنبيه ، لأن المؤلف ـــ رحمه الله ـــ أفرد فى هذا المعنى كتابا سماه « التنوير فى إسقاط التدبير » أحسن فيه غاية الإحسان ، وقرَّب الأمر فيه بحيث يستغنى به عما صنف فى هذه الطريقة من ديوان ، فتحصّيله متعين على كل مريد نجيب .

(١) أبو الحسن الشاذلى (٥٩٣ هـ ــ ٦٥٦ هـ) ينتهى نسبه وسنده كما يقول المترجمون له الى الحسن بن على بن ابى طالب ، وكان مبدأ ظهوره ببلدة شاذلة وهى قرية من تونس .

الحكمة الخامسة

قال ابن عطاء الله :

« اجْتِهَادُكَ[1] فِيمَا ضُمِنَ لَكَ ، وَتقْصِيرُكَ[2] فِيمَا طُلِبَ مِنْكَ ــ دَلِيلٌ على انْطِماسِ البَصِيرَةِ[3] مِنْكَ »

قال ابن عباد :

الشيء المضمون للعبد هو رزقه الذى يحصل له به قوام وجوده فى دنياه ، ومعنى كونه مضمونا أن الله تعالى تكفل بذلك ، وفرغ العباد عنه ، ولم يطلب منهم الاجتهاد فى السعى فيه ، ولا الاهتمام له ، والشيء المطلوب من العبد هو العمل الذى يتوصل به الى سعادة الآخرة ، والقرب من الله تعالى من عبادات وطاعات ، ومعنى كونه مطلوبا أنه موكول الى اكتساب العبد له ، واجتهاده فيه ، ومراعاة شروطه وأسبابه وأوقاته ، بهذا جرت سنة الله تعالى فى عباده . قال الله عز وجل ــ فى المعنى الأول الذى ضمنه للعبد ــ: « وكَأَيِّنْ مِن دَابَّةٍ لا تحملُ رِزْقَها ، الله يَرزُقها ، وإياكم[4] » وقال تعالى ــ فى المعنى الثانى الذى طلبه منه ــ: « وأنْ لَيْسَ للانسان إلا ما سَعَى[5]» وقد روى فى بعض الآثار أن الله تعالى يقول : « عبدى أَطِعْنى فيما أمرتُك ، ولا تُعَلّمْنى بما يُصْلِحُكَ »

---

(١) اجتهادك : الاجتهاد فى الشيء : استفراغ الجهد والطاقة فى طلبه .

(٢) التقصير : التفريط والتضييع .

(٣) البصيرة : عين فى القلب تدرك الأمور المعنوية ، كما أن البصر يدرك الأمور الحسيّة ؛ فالبصيرة لاترى إلا المعانى ، والبصر لا يرى إلا المحسوسات . وانطماس البصيرة : عماها .

(٤) آية ٦٠ من سورة العنكبوت .

(٥) آية ٣٩ من سورة النجم .

وذكر فى الخبر عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « ما بال أقوامٍ يُشرِّفُون المترفين ، ويستخفون بالعابدين ، ويعملون بالقرآن ما وافق أهواءهم ، وما خالف أهواءهم تركوه ، فعند ذلك يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، يسعون فيما يدرك بغير سعى من القدر المقدور ، والأجل المكتوب ، والرزق المقسوم ولا يسعون فيما لا يدرك إلا بالسعى من الجزاء الموفور ، والسعى المشكور ، والتجارة التى لا تبورِ »

وقال ابراهيم الخواص : « العلم كله فى كلمتين : لا تتكلف ما كُفِيت ، ولا تُضَيِّع ما استُكْفيت » فمن قام بهذا الأمر على ما ينبغى له من الوجه الذى ذكرناه من الاجتهاد فى الأمر المطلوب منه ، وتفريغ القلب عن الأمر المضمون له — فقد انفتحت بصيرته وأشرق نور الحق فى قلبه ، وحصل على غاية المقصود ، ومن عكس هذا الأمر فهو مطموس البصيرة ، أعمى القلب ، وفعله دليل على ذلك ، والبصيرة ناظر القلب ، كما أن البصر ناظر العين ، وناظر القلب انما ينظر الى العاقبة ، والعاقبة للمتقين ، فالتقوى هى التى يجب على العبد أن يجتهد فيها ، ويقصر عما يمنع منها ، وتعبير المؤلف رحمه الله بالاجتهاد — إشعار بأن طلب الرزق من غير اجتهاد فيه — غير مقصود بالكلام ، وهو كذلك ، لأنه مباح ومأذون فيه ، فلا يدل ذلك على انطماس بصيرة صاحبه إلا إن اقترن به تقصير فيما أمر به[1] .

قال فى « التنوير »[2] فى قوله تعالى — « وامرُ أهلكَ بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحنُ نرزقُك[3] » ، أى : قمْ بخدمتنا ، ونحن نقوم لك بقسمتنا ، وهما شيئان : شيء ضمنه الله لك ، فلا تتهمه ، وشيء طلبه منك ، فلا تهمله ، فمن إشتغل بما ضمن له عما طلب منه — فقد عظم جهله ، واتسعت غفلته ، وقل أن ينتبه

---

(١) يفهم من الحكمة : أن دليل انطماس البصيرة هو اجتماع الأمرين : أى الاجتهاد فى طلب الرزق مع التقصير فى العمل . أما الاجتهاد فى طلب الرزق الحلال من غير تقصير فى العبادة والطاعة فانه يكسب الخير ، ويعقب الأجر ، لأنه مطلوب بقوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » آية ١٥ من سورة الملك » .

(٢) « التنوير فى إسقاط التدبير » لابن عطاء الله السكندرى ، وهو واحد من كتب السادة الصوفية التى لها وزنها .

(٣) آية ١٣٢ من سورة طه .

لمن يوقظه بل حقيق على العبد أن يشتغل بما طلب منه عما ضمن له ، إذا كان الله سبحانه وتعالىٰ قد رزق أهل الجحود كيف لا يرزق أهل الشهود ، وإذا كان سبحانه قد أجرى رزقه على أهل الكفران ، كيف لا يَجرِى رزقُه على أهل الإيمان !؟

فقد علمت أيها العبد أن الدنيا مضمونة لك ، أى مضمون لك منها ما يقوم بأودِكَ ، والأخرة مطلوبة منك ، أى العمل لها ، لقوله سبحانه وتعالى : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » فكيف يثبت لك عقل أو بصيرة ، واهتمامك فيما ضمن لك ـ اقتطعك عن اهتمامك بما طلب منك من أمر الآخرة ، حتى قال بعضهم : « إن الله تعالى ضمن لنا الدنيا وطلب منا الآخرة ، فليته ضمن لنا الآخرة ، وطلب منا الدنيا .

تعقيـــــب

اجتهادك واهتمامك الشاغل عن العبادة فيما ضمن لك من الدنيا ، مما تقوم به حياتك من غذاء وكساء ونحو ذلك ، وتقصيرك وتفريطك فيما طلب منك من العبادات والطاعات وغيرها مما يتوصل به الى الله ، ويصلح به أمرك فى الآخرة دليل وبرهان على عمى البصيرة منك وقاناً الله شر ذلك .

الحكمة السادسة

قال ابن عطاء الله :

« لاَ يَكُنْ تَأَخُّر أَمَدِ الْعَطَاءِ — مَعَ الإِلْحاحِ فى الدُّعَاءِ — مُوجِباً لِيأْسِكَ[1] ، فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُهُ لَكَ ، لاَ فِيما تَخْتَارُ لِنَفْسِكَ ، وفى الوَقْتِ الذى يُرِيدُ لا فى الْوَقْتِ الذّى تُرِيدُ »

قال ابن عباد :

حكم العبد أن لا يتخير شيئا على مولاه ، ويجزم بصلاجية حال من الأحوال له ، لأنه جاهل من كل وجه ، قد يكره الشىء ، وهو خير له ، ويحب الشىء ، وهو شر له .

قال سيدى أبو الحسن الشاذلى — رضى الله عنه —: لا تختر من أمرك شيئا ، واختر أن لا تختار ، وفر من ذلك المختار ، ومن فرارك ، ومن كل شىء الى الله عز وجل « وربك يخلق ما يشاء ويختار »[2]

ودخل رجل على سيدى أبى العباس المرسى — رضى الله عنه — وهو يتألم لمابه ، فقال ذلك الرجل : « عافاك الله يا سيدى » فسكت ، ولم يجاوبه ، ثم سكت ذلك الرجل ساعة ، وقال : « الله يعافيك يا سيدى » فقال له الشيخ أبو العباس : « وأنا ، ما سألت الله العافية ؟ فقد سألته العافية ، والذى أنا فيه هو العافية ، هذا رسول الله ﷺ ، قد سأل الله العافية ، وقد قال ، « ما زالت أُكلة خيبر تعاودنى والآن قطعت أبهرى »[3]

---

(١) أمد : زمن . الإلحاح : المداومة فى الدعاء . اليأس : قطع الرجاء والأمل .
(٢) من آيه ٦٨ من سورة القصص .
(٣) الأَبْهَرُ : الأورطى ، وهو الشريان الرئيسى الذى يحمل الدم الى القلب .

وسيدنا أبو بكر — رضى الله عنه — سأل الله العافية ، وبعد ذلك مات مسموما[1] وسيدنا عمر — رضى الله عنه — سأل الله العافية — وبعد ذلك مات مطعونا ، وسيدنا عثمان — رضى الله عنه — سأل الله العافية ، وبعد ذلك مات مذبوحا ، وسيدنا على — رضى الله عنه — سأل الله العافية ، وبعد ذلك مات مقتولا ، فاذا سألت الله العافية ، فاسأله من حيث يعلم أنها لك عافية . أهـ .

فعلى العبد أن يسلم نفسه الى مولاه ، ويعلم أن الخيرة له فى جميع ما به يتولاه ، وان خالف ذلك مراده وهواه ، فاذا دعا وطلب من مولاه شيئا ، يرى أن له فيه مصلحة أيقن بالاجابة لا محالة ، قال الله عز وجل : « وقال رَبُكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لكم[2] وقال تعالى : « وإذا سَأَلَكَ عبادى عنى فانى قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعان »[3] .

وعن جابر — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل ، أو كف عنه من السوء مثله ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، وعن أنس — رضى الله عنه — عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : ما من داع يدعو إلا استجاب الله له دعوته ، أو صرف عنه مثلها سوءًا ، أو حط من ذنوبه بقدرها ، مالم يدعُ بإثم ، أو قطيعة رحم » فإذن الإجابة المطلقة حاصلة لكل داع بحق حسبما ورد الوعد الصدق ، إلا أن الاجابة أمرها الى الله تعالى ، يجعلها متى شاء ، وقد يكون المنع وتأخر العطاء — إجابة وعطاء ، لمن فهم عن الله تعالى ذلك ، فلا ييأس العبد من الله تعالى إذا رأى منعا أو تأخيرا ، وإن ألح فى دعائه وسؤاله ، وقد يكون تأخير ذلك الى الآخرة — خيرا له ، فقد جاء فى بعض الأخبار : يبعث عبد ، فيقول الله تعالى له : ألم آمرك برفع حوائجك إلىّ ؟ فيقول نعم ، وقد رفعتها إليك ، فيقول الله تعالى ما سألت شيئا

---

(١) لم يرد هذا الخبر فى مرجع معتمد ، ويبدو أنها شبهة راجت عند بعض المتأخرين ولا حقيقة لها ، فقد استفاضت الأخبار بأن أبا بكر مرض مرض الموت دون مقدمات من سم أو غيره ، ولعل أصحاب هذا الوهم يردونه الى أكلة اليهودية التى قدمت كراع الشاة الى رسول الله (المراجع) .

(٢) من آية ٦٠ من سورة غافر .

(٣) من آية ١٨٦ من سورة البقرة .

إلا أجبتك فيه ، ولكن نجزت لك البعض فى الدنيا ، وما لم أنجزه فى الدنيا فهو مدخر لك ، فخذه الآن ، حتى يقول ذلك العبد : « ليته لم يقض لى حاجة فى الدنيا » .
وقد ورد عن رسول الله — ﷺ — معنى النهى عن الاستعجال فى إجابة الدعاء فى قوله : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول : قد دعوت فلم يستجب لى » .

وقد دعا موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام على فرعون فيما أخبر الله به عنهما ، حيث قالا : ربَّنا اطمسْ على أموالهم واشْدُدْ على قلوبِهم فلا يؤمنوا حتى يَرَوا العذاب اَلأليم[1] .

ثم أخبر أنه أجاب دعاءهما بقوله سبحانه وتعالى : قد أُجيبتْ دعوتكما فاستقيما ولا تَتَّبعَانَ سبيل الذين لا يعلمونَ[2] . قالوا وكان بين قول الله تعالى لهما — قد أجيبت دعوتكما ، وهلاك فرعون — أربعون سنة .

قال سيدى أبو الحسَن الشاذلى — رضى الله عنه — فى قوله تعالى « فاستقيما » أى على عدم استعجال ما طلبتما . « ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » هم الذين يستعجلون الاجابة ، وناهيك شرفا وحظا ما يتحصل له بسبب مداومة الدعاء من محبة الله تعالى وموافقة رضاه ، فقد روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : إن الله يحب الملحين فى الدعاء .

وقد جاء فى الحديث « قال جبريل عليه السلام يارب عبدك فلان ، اقض له حاجته ، فيقول : دعوا عبدى ، فإنى أحب أن أسمع صوته » رواه أنس بن مالك عن رسول الله — ﷺ .

ومقتضى هذا أن من الناس من يعجل الله له نوال حاجته لكراهة صوته ، وقد روى هذا المعنى أيضا منصوصا ، فليكن العبد خائفا من ذلك عند تعجيل إجابة دعائه .

قال أبو محمد عبد العزيز المهدوى — رضى الله عنه — كل من لم يكن فى دعائه تاركا لاختياره ، وراضيا باختيار الحق — فهو مستدرج ، وهو ممن قيل له :

---
(١) من آية ٨٨ من سورة يونس .
(٢) من آية ٨٩ من سورة يونس .

اقضوا حاجته فانى أكره أن أسمع صوته ، فإذا كان فى دعائه مع اختيار الحق تعالى ، لا مع اختيار نفسه ــ كان مجابا ، وإن لم يُعطَ ، والأعمال بخواتيمها . وقد تكون الإجابة مرتبة على شروط لا علم للداعى بها ، فتؤخر لعدم وقوع ذلك ، أو بعضه ، وذلك مثل وجود الاضطرار ، قال تعالى : « أمَّنْ يجيبُ المضْطَرَّ إذا دَعاه[1] » فرتب الإجابة على الاضطرار .

وقال بعض العارفين : إذا أراد الله أن يستجيب دعاء عبد ، رزقه الاضطرار فى الدعاء ، والاضطرار لا يتحققه العبد من نفسه فى جميع حالاته .

قال بعضهم : المضطر الذى إذا رفع إلى الله يده لم ير لنفسه عملا ، وهذا حال شريف ، ومقام منيف ، يعسر على أكثر الناس الوصول اليه ، فكيف يتحقق ما ينى عليه ؟ وفى المسأله التى بإثِر هذا تنبيه على هذا المعنى .

تعقيـــب

لا يكن تأخر وقت العطاء المطلوب ــ مع الإلحاح ــ والمداومة فى الدعاء ــ موجبا ليأسك من إجابة الدعاء ، فهو سبحانه وتعالى قد ضمن لك الإجابة بقوله تعالى ــ « ادعونى استجب لكم " وبقوله تعالى : « أجيب دعوة الداع إذا دعان " وذلك فيما يختاره لك ، لا فيما تختاره لنفسك ، لأن الله سبحانه أعلم منك بما يصلح لك ، فربما طلبت شيئا ، كان منعه خيرا لك ، فيكون المنع عطاء . قال تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وكذلك ضمن لك الإجابة فى الوقت الذى يريده تعالى ، لا فى الوقت الذى تريده أنت لنفسك ، كما جاء فى دعاء موسى على فرعون .

---

(١) من آية ٦٢ من سورة النمل .

(٢) من آية ٢١٦ من سورة البقرة .

الحكمة السابعة

قال ابن عطاء الله :

« لاَ يُشَكِّكَنَّكَ فى الْوَعْدِ عَدَمُ وُقُوعِ الْمَوعُودِ ، وَإِنْ تَعيَّنَ زَمَنُهُ ، لِئَلا يَكُونَ ذَلِكَ قَدْحاً[1] فى بَصِيرَتِكَ ، وإِخْمَاداً لِنُورِ سَرِيرَتِكَ[2] .

قال ابن عباد :

الحق سبحانه لا يخلف الميعاد ، فمن وعده مولاه شيئا ، وان كان معين الزمن ، ثم لم يقع ذلك الموعود ، فلا ينبغى أن يشككه ذلك فى صدق وعد ربه ، لجواز أن يكون وقوع ذلك الوعد معلقا على أسباب وشروط ، استأثر الحق تعالى بعلمها دون العبد ، فعلى العبد أن يعرف قدره ، ويتأدب مع ربه ، ويسكن إليه فيما وعده به ، ويطمئن إليه ، ولايتشكك فى ذلك ، ولا يتزلزل اعتقاده فيه ، فمن كان على هذا الوصف فهو عارف بالله تعالى ، سالم البصيرة ، منوَّر السريرة ، وإلا فعلى العكس .

تعقيب

إن العارف بربه من يتأدب معه تعالى ، ويسكن اليه مطمئنا ، ولا يتشكك ، ولا يتزلزل اعتقاده عند تأخر ما وعد به ، أو عدم وقوعه . وقد يكون الموعود به معلقا على أسباب وشروط استأثر الحق تعالى بعلمها ، كما فى قصة نوح عليه السلام ، حيث قال : « إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق " فوقف مع ظاهر العموم ، فقال له تعالى : « انه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح " ونحن إنما وعدناك بنجاة الصالح من أهلك . وان فهمت العموم ، فعلمنا متسع .

---

(١) القدح فى الشيء : التنقيص له ، والغض من مرتبته .

(٢) السريرة : ما يكتمه المرء فى نفسه أو هى عين القلب . يقال : فلان طيب السريرة : أى طيب القلب .

الحكمة الثامنة

قال ابن عطاء الله :

« إِذَا فَتَحَ لَكَ وِجْهَةً مِنَ التَّعَرُّفِ ـــ فَلاَ تُبَالِ مَعَهَا أَنْ قَلَّ عَمَلُكَ ، فإنَّهُ ما فَتَحها لَكَ إلاَّ وهُو يُرِيدُ أَنْ يَتعرَّفَ إِلَيكَ ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعرُّفَ هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ، وَالأَعْمَالَ أَنْتَ مُهْدِيهَاإليه ، وَأَيْنَ ما تُهْدِيهِ إِلَيْه مِمَّا هُو مُورِدُهُ عَلَيْكَ[1] » .

قال ابن عباد :

معرفة الله تعالى هى غاية المطالب ، ونهاية الآمال والمآرب ، فاذا وجه الله تعالى عبده ببعض أسبابها ، وفتح له باب التعرف له منها ، وأوجد له سكينة وطمأنينة فيها ـــ فذلك من النعم الجزيلة عليه ، فينبغى أن لا يكترث بما يفوته بسبب ذلك من أعمال البر ، وما يترتب عليها من جزيل الأجر ، .وليعلم أنه سلك به مسلك الخاصة المقربين المؤدي الى حقائق التوحيد واليقين ، من غير اكتساب من العبد ، ولا تَعَمُّل ، والأعمال التى من شأنه أن يتلبس بها ـــ هى باكتسابه وتعمله ـــ فلا تسلم من دخول الآفات عليها والمطالبة بوجود الاخلاص فيها ، وقد لا يحصل له ما يريد من الثواب عند مناقشة الحساب ، وأين أحدهما من الآخر ؟ . ومثاله ما يصاب به الإنسان من البلايا والشدائد التى تنغص عليه لذات الدنيا ، وتمنعه من تكثير أعمال البر ، فان مراده أن يستمر بقاؤه فى دنياه ، طيب العيش ، ناعم البال ، ويكون حاله فى طلب سعادة الآخرة حال المترفهين المتورعين ، فلا تسخو نفسُه الا بالأعمال الظاهرة ، التى لا كبير مؤنة عليها ، ولا مشقة ، ولا تَقْطَعَ عليه لذته ،

---

(١) فتح هنا : بمعنى هيأ ويسر . الوجهة : هى الجهة ، والمراد هنا : الباب والمدخل .
التعرف : طلب المعرفة : تقول : تعرف لى فلان : اذا طلب معنى معرفته .
المعرفة : تمكن حقيقة العلم بالمعروف من القلب حتى لا يمكن انفكاك عنه بحال
فلا تبال معها أن قل عملك : بفتح همزة أن : أى فلاتبال معها بقلة عملك .

وآثرها على عبادة الثقلين والله أعلم . فإذا أنزل الله على العبد شيئا من البلايا ؛ ولا تفوته شهوته ، ومراد الله منه أن يطهره من أخلاقه اللئيمة ، ويحول بينه وبين صفاته الذميمة ، ويخرجه من أثر وجوده الى متسع شهوده ، ولا سبيل له الى الوصول الى هذا المقام على غاية الكمال والتمام الا بما يضاد مراده ، ويشوش عليه معتاده ، ويكون حاله حينئذ المعاملة بالباطن ولا مناسبة بينها وبين الأعمال الظاهرة ، فاذا فهم هذا علم أن اختيار الله له ، ومراده منه — خير له من أختياره لنفسه ، ومراده لها .

. وقد روى أن الله تعالى أوحى الى بعض أنبيائه : أنزلت بعبدى بلاء ، فدعانى فماطلته بالاجابة ، فشكانى ، فقلت : عبدى كيف أرحمك من شيء به أرحمك . وفى حديث أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال : « قال الله تبارك وتعالى : اذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكنى الى عواده أنشطته من عقالى ، وبدلته لحما خيرا من لحمه ، ودما خيرا من دمه ويستأنف العمل .

قال أبو عبد الله محمد بن على الترمذى — رضى الله عنه — ولقد مرضت فى سالف أيامى مرضة ، فلما شفانى الله تعالى منها — مثلت فى نفس ما دبر الله تعالى من هذه العلة فى مقدار هذه المدة وبين أن تكون لى عبادة الثقلين فى قدر أيام علتى ، فقلت : لوخيرت بين هذه العلة ، وبين عبادة الثقلين فى مقدار مدتها الى أيهما يميل اختيارى ؟ فصح عزمى ، ودام يقينى ، ووقعت بصيرتى أن ما اختار الله تعالى أكثر شرفا ، وأعظم خطراً ، وأنفع عاقبة ، وهى العلة التى دبرها لى ، ولا شوب[1] فيه اذا كان فعله ، فشتان[2] بين فعله بك لتنجو به ، وبين فعلك لتنجو به . فلما رأيت ذلك دق فى عينى عبادة الثقلين فى مقدار تلك المدة فى جنب ما آتانى ، فصارت العلة عندى نعمة ، وصارت النعمة منة ، وصارت المنة أملا ، وصار الأمل عطفا ، فقلت فى نفسى : بهذا كانوا يستمرون فى البلاء على طيب النفوس مع الحق ، وبهذا الذى انكشف كانوا يفرحون بالبلاء . أهـ .

فهذه هى وجهة التعرف التى فتحها الله تعالى له ، وحصلت له الغبطة بها ،

---

(١) لا شوب فيه اذا كان فعله : أى لا شائبة فيه : أى لا شبهة فيه ولا عيب .

(٢) شتان : يقال شتان ماهما ، وشتان بينهما ، وشتان ما بينهما : أى بعد وعظم الفرق بينهما .

فليستشعر ما ذكرناه ، وليجعله نصب عينيه ، وليجدد تذكاره على نفسه ، حتى يحصل له من السكون والطمأنينة ما يحمل عنه أثقال ذلك ، ويزيل عنه مرارته ، ويوجده حلاوته ، وعند ذلك يكون حاله فى بلائه حال الشاكرين من الفرح ، والاغتباط به ، فيرى من حق شكره أن يأتى بما يمكنه من أعمال بره ، واعتبر جميع ما قلناه فى هذه المسأله بالحكاية التى ذكرها أبو العباس بن العريف رحمه الله فى كتابه « مفتاح السعادة ومنهاج سلوك طريق الارادة » قال فيه : كان بالمغرب عمره الله بالاسلام — رجل يدعى أبا الخيار — رحمه الله ، ونفعنا بذكره — أصله من صقلية ، وموطنه بغداد ، وجاوز سنه التسعين ، وهو فى الرق لم يعتقه مولاه — وذلك منه عن قصد واختيار — وعم جسده الجذام ، ورائحة المسك توجد منه على مسافة بعيدة . قال الذى حدثنى : رأيته يصلى على الماء ، ثم لقيت بعده محمدا الاسفنجى ، فاذا هو الأبرص ، فقلت له : يا سيدى ، كأن الله تعالى لم يجد للبلاء محلا من أعدائه حتى أنزله بكم ، وأنتم خاصة أوليائه ، قال : فقال لى : اسكت ، لا تقل ذلك ، إنه لما أشرفنا على خزائن العطاء — لم نجد عند الله شيئا أشرف ولا أقرب اليه من البلاء ، فسألناه اياه ، فكيف بك لو رأيت سيد الزهاد ، وقطب العباد ، وامام الأولياء الأوتاد — بغار فى ارض « طرسوس » وجبالها — لحمه يتناثر ، وجلده يسيل قيحا وصديدا ، وقد أحاط به الذباب والنمل ، فإذا كان الليل لم يقنع بذكر الله ، وشكره على ما أعطاه من الرحمة ، وأسكن جسده من العافية ، حتى يشد نفسه بالحديد ويستقبل القبلة عامة ليله ، حتى يطلع الفجر أ هـ . وسيأتى شىء من كلام المؤلف رحمه الله فى هذا المعنى ، والتنبيه عليه ، والله ولى التوفيق .

تعقيب

أيها المريد : اذا فتح الله لك — وهو الفتاح العليم — جهة من جهات التعرف اليه ، كالأمراض والبلايا والفاقات — فانها سبب لمعرفة الله بصفاته : كاللطف والقهر والرحمة وغيرها — فلا تبال معها بقلة عملك ، أى لا تهتم بقلة الأعمال ، فان الله تعالى يقول فى الحديث القدسى : « اذا ابتليت عبدى المؤمن ببلاء فصبر و لم يشكنى إلى عواده .. أبدلته لحماً خيراً من لحمه ، ودما خير من دمه ، فإذا أبرأته ، أبرأته ،

ولا ذنب له ، وان توفيته ، فإلى رحمتى « رواه مالك فى الموطأ » . عن عطاء بن يسار : عن أبى سعيد رضى الله عنه ، عنه ﷺ .

والمخاطب بذلك : هو المتيقظ بذكر الله عند نزول المصائب والنوازل — وليس الغافل الذى يسخط عند نزولها . ولا شك أن تلك المصائب والنوازل — قد تعوق عن العمل فيقل . فلا تبال بما يفوتك بها من الأعمال البدنية ، فانما هى وسيلة للأعمال القلبية . فطب نفسا أيها المريد بما ينزل عليك من هذه التعرفات الجلالية والنوازل القهرية .

ويستفاد من ذلك : أن العمل القليل مع المعرفة خير من العمل الكثير بدونها .

الحكمة العاشرة

قال ابن عطاء الله :

« الأَعْمَالُ صُوَرٌ قَائِمَةٌ ، وَأَرْوَاحُهَا وُجُودُ سِرِّ الإِخْلاَصِ فِيهَا[1]

قال ابن عباد :

اخلاص كل عبد فى أعماله على حسب رتبته ومقامه ، فأما من كان منهم من الأبرار فمنتهى درجة اخلاصه أن تكون أعماله سالمة من الرياء الجلى والخفى ، وقصد موافقة أهواء النفس ، طلبا لما وعد الله تعالى به المخلصين من جزيل الثواب ، وحسن المآب،وهربا عما أوعد به المخلطين من أليم العذاب ، وسوء الحساب ، وهذا من التحقق بمعنى قوله تعالى : « إياك نعبد »[2] ـــ أى لا نعبد إلا إياك ، ولا نشرك فى عبادتنا غيرك .

وحاصل أمره اخراج الخلق عن نظره فى أعمال بره ، مع بقاء رؤيته لنفسه فى النسبة اليها ، والاعتماد عليها . وأما من كان منهم من المقربين فقد جاوز هذا الى عدم رؤيته لنفسه فى عمله ، فاخلاصه انما هو فى شهود انفراد الحق تعالى بتحريكه وتسكينه ، من غير أن يرى لنفسه فى ذلك حولا ولا قوة ، ويعبر عن هذا المقام بالصدق الذى به يصح مقام الاخلاص .

---

(١) الأعمال هنا : عبارة عن الحركه الجسمية أو القلبية .

الصور : جمع صورة ، وهو ما يتشخص فى الذهن من الكيفيات . صور قائمة : أى أشباح وأشخاص لا أرواح فيها ، فلانفع بها .

الروح : السر المودع فى الحيوانات ، وهو هنا : عبارة عما يقع به الكمال المعتبر فى الأعمال .

والاخلاص : افراد القلب لعبادة الرب ، وسره : لبه ، وهو الصدق المعبر عنه بالتبرى من الحول والقوة .

(٢) من آية ٥ من سورة الفاتحة .

وصاحب هذا مسلوك به سبيل التوحيد واليقين ، وهو من التحقق بمعنى قوله تعالى : " وإياك نستعين[1] " أى لا نستعين إلا بك ، لا بأنفسنا وحولنا وقوتنا ، فعمل الأول هو العمل لله تعالى ، وعمل الثانى هو العمل بالله ، فالعمل لله يوجب المثوبة ، والعمل بالله يوجب القربة ، والعمل لله يوجب تحقيق العبادة ، والعمل بالله يوجب تصحيح الارادة ، والعمل لله نعت كل عابد ، والعمل بالله نعت كل قاصد ، والعمل لله قيام بأحكام الظواهر ، والعمل بالله قيام بالضمائر ، وهذه العبارات للامام أبى القاسم القشيرى[2] رضى الله عنه ــ وبهذا يتبين الفرق بين المقامين ، وتباينهما فى الشرف والجلالة ، فاخلاص كل عبد هو روح أعماله ، فبوجود ذلك تكون حياتها وصلاحيتها للتقرب بها ، ويكون فيها أهلية وجود القبول لها ، وبعدم ذلك يكون موتها وسقوطها عن درجة الاعتبار ، وتكون إذ ذاك أشباحا بلا أرواح ، وصورا بلا معان .

قال بعض المشايخ : " صحح عملك بالإخلاص ، وصحح إخلاصك بالتبرى من الحول والقوة .

تعقيـــب

وخلاصة معنى الحكمة كما يقول ابن عجيبة فى ايقاظ الهمم : الأعمال كلها أشباح وأجساد ، وأرواحها وجود الاخلاص فيها ، وكما أنه لا قيام للأشباح إلا بالأرواح ، والا كانت ميتة ساقطة ، كذلك لا قيام للأعمال البدنية والقلبية إلا بوجود الإخلاص فيها ، وإلا كانت صورا قائمة ، وأشباحا خاوية لا عبرة بها . قال تعالى : " وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء " (من آية ٥ من سورة البينة) وقال تعالى : " فاعبد الله مخلصا له الدين " (من آية ٢ من سورة الزمر) .

---

(١) من آيه ٥ من سورة الفاتحة .

(٢) القشيرى : هو الامام العالم الجامع بين الشريعة والحقيقة : ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى ٣٧٦ هـ ــ ٤٦٥ هـ بمدينة نيسابور (الرسالة القشيرية) .

والإخلاص على ثلاث درجات : درجة العوام ، والخواص ، وخواص الخواص . فإخلاص العوام : هو إخراج الخلق من معاملة الحق ، مع طلب الحظوظ الدنيوية والأخروية ، كحفظ البدن والمال وسعة الرزق والقصور والحور ، وإخلاص الخواص : طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية . وإخلاص خواص الخواص : إخراج الحظوظ بالكلية ، فعبادتهم تحقيق العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية ، أو محبة وشوقا إلى رؤيته ، كما قال ابن القارض .

ليس سؤلى من الجنـان نعيما غيـر انـى أحبهـا لأراكـا

وقال آخر : (وينسب الى رابعة العدوية)

كلهم يعبدون من خوف نارٍ ويرون النجاة حظا جزيلا

أو بأن يسكنوا الجنان فيضحوا فى رياض ويشربوا سلسبيلا

ليس لى فى الجنان والنار حظ أنا لا أبتغى بحبى بديـلا

الحكمة الحادية عشرة

قال ابن عطاء الله :

" ادْفِنْ وُجُودَكَ فِي أَرْضِ الْخمُولِ ، فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ لاَ يَتِمُّ نِتَاجُهُ "

قال ابن عباد :

لاشيء أضر على المريد من الشهرة ، وانتشار الصيت ، لأن ذلك من أعظم حظوظه التى هو مأمور بتركها ، ومجاهدة النفس فيها ، وقد تسمح نفس المريد بترك ما سوى هذا من الحظوظ ــ ومحبة الجاه ، وإيثار الاشتهار ، مناقض للعبودية التى هو مطالب بها .

قال إبراهيم بن أدهم ــ رضى الله عنه ــ: ما صدق الله من أحب الشهرة ، وقال بعضهم طريقتنا هذه لا تصلح الا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل .

وقال أيوب السختيانى ــ رضى الله عنه ــ: والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه .

وقال رجل لبشر بن الحارث ــ رضى الله عنه ــ: أوصنى فقال : اخمل ذكرك ، وأطب مطعمك . وقال بعضهم رضى الله عنه : ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح .

وقال أيضا : لا يجد حلاوة الآخرة من أحب أن يعرفه الناس .

الدفن : التغطية والستر .

المراد بالخمول : سقوط المنزلة عند الناس ، وعدم الشهرة ، يقال خمل الرجل خفى فلم يعرف ولم يذكر .

أرض الخمول : من اضافة المشبه به الى المشبه . أى الخمول الذى هو كالارض للميت فى التغطية التامة .

النتاج : ثمرة الشىء ، ونتاج الشجرة : ثمرتها .

وقال الفضيل ــ رضى الله عنه ــ بلغنى أن الله عز وجل يقول فى بعض ما يمن به على عبده : ألم أنعم عليك ؟ ألم أسترك ؟ ألم أخمل ذكرك ؟

ثم إن تلك الأشياء الراجعة إلى محبة الاشتهار والاستعلاء مما يقدح فى إخلاص العبد على اختلاف مراتبه ، لأنه إما بسقوط الناس عن النظر اليهم ، أو بسقوط النفس عن النظر إليها ، ولا يثبت للمريد جميع ذلك الا بالخمول ، وسقوط المنزلة عند نفسه ، وعند الناس ؛ لأنه إن لم يكن بهذه المثابة لم ينفك عن الأغراض التى تبعثه على استمالة قلوب الخلق ، لما يرى لنفسه عليهم من الحق ، فتدعوه نفسه الى ذلك دعاء خفيا ، فينصبغ عمله بالرياء انصباغا ، ولايتفطن له ، كما سيأتى عند قوله : ربما دخل الرياء عليك جيث لا ينظر الخلق إليك .

وبقدر تحققك بوصف الخمول يتحقق لك مقام الإخلاص ، حتى تتخلص بذلك من رؤية إخلاصك ، وبهذا يتبين لك إفلاس جميع الناس ، إلا من رحم الله تعالى ، وأن الاخلاص فى غاية الصعوبة على النفس ، وأنه أعز الأشياء فى الوجود .

وقيل لسهل بن عبد الله ــ رضى الله عنه ــ أى شىء أشد على النفس ؟ قال : الاخلاص ، لأنها ليس لها فيه نصيب .

وقال يوسف بن الحسين ــ رضى الله عنه ــ أعز شىء فى الدنيا الاخلاص وكم اجتهد فى اسقاط الرياء عن قلبى ، فكأنه ينبت فيه على لون آخر .

قال الشيخ أبو طالب المكى ــ رضى الله عنه ــ: والإخلاص عند المخلصين ــ إخراج الخلق عن معاملة الخالق ، وأول الخلق النفس ، والإخلاص عند المحبين ــ ألاَّ يعمل عملا لأجل النفس ، وإلا دخل عليه مطالعة العوض ، أو تشوف الى حض طبع ، والإخلاص عند الموحدين ــ خروج الخلق من النظر اليهم فى الأفعال ، وترك السكون والاستراحة بهم فى الأحوال أ هـ .

فإذا أخمل العبد نفسه ، وألزمها التواضع والمذلة ، واستمر على ذلك ، حتى صار له خلقا وجبلة ، بحيث لا يجد لضعته ألما ، ولا لمذلته طعما ، فحينئذ تتزكى نفسه ، ويستنير بنور الإخلاص قلبه ، وينال من ربه أعلى درجات الخصوصية ، ويحصل على أو فى نصيب من المحبة الحقيقية .

قال الشيخ أبو طالب : ومتى ذل فى نفسه ، واتضع عند نفسه ، فلم يجد لمذلته طعما ، ولا لضعته حسا ، فقد صار الذل والتواضع كونه ، فهذا لا يكره الذم من الخلق ؛ لوجود النقص فى نفسه ، ولا يحب المدح منهم ؛ لفقد القدر والمنزلة فى نفسه ، فصارت الذلة والضعة صفة له[1] ، لا تفارقه ، لازمة لزوم الزبالة للزبال ، والكساحة للكساح ، وهما صنعتان له كسائر الصنائع ، وربما فخروا بهما ، لعدم النظر الى نقصهما ، فهذه ولاية عظيمة له من ربه ، قد ولاه على نفسه ، وملكه عليها فقهرها بعزه ، وهذا مقام محمود محبوب ، وبعده مقام المكاشفات بأسرار الغيوب . ثم قال : ومن كان حاله مع الله تعالى الذل — طلبه واستحلاه ، كما يطلب المستكبر العز ويستحليه اذا وجده ، فان فارق ذلك الذل ساعة — تغير قلبه ، لفراق حاله ، كما أن المتعزز اذا فارق العز ساعة — تكدر عيشه ، لأن ذلك حياة نفسه أ هـ . فإذن لابد للمريد من اسقاط جاهه ، وإخمال ذكره ، وفراره عن مواضع اشتهاره ، وتعاطيه أمورا مباحة ، تسقطه من أعين الناس ، كقصة السائح الذى سمع به ملك زمانه فجاء اليه ، فلما علم بذلك السائح — استدعى بقلا ، وجعل يأكله أكلا عنيفا ، بمرأى من الملك ، فلما رآه على تلك الحالة — استحقره ، واستصغره ، ولنصرف عنه ، ذامًّا له . وسيأتى نص هذه القصة بعد هذا عند قوله : ربما دخل الرياء عليك حيث لا ينظر الخلق اليك .

وقد بالغ أئمة الصوفية — رضى الله عنهم — فى مداواة علة الجاه الذى علق بالقلوب ، حتى استعملوا فى ذلك أشياء منكرة فى ظاهر الشرع ، ورأوا ذلك جائزا لهم أن يفعلوه ويأمروا به ، وذلك مثل قصة الرجل الذى دخل الحمام ، ولبس من فاخر ثياب الناس تحت ثيابه ، بحيث تظهر ، ومشى بذلك متحيرا ، بحيث يُرى ويُظن به السرقة ، فلما رآه الناس أخذوه وصفعوه ، ونزعوا الثياب عنه ، واشتهر عندهم بالسرقة ؛ حتى كان يعرف عندهم بلص الحمام ، فحينئذ وجد قلبه .

---

(١) يلاحظ أن هذا منهج خاص ببعض طبقات الصوفية ، أى : انه حالة خاصة لا يطلبها الشرع من أتباعه ، ولا يلزمهم بها ، بل وقد يأمر بعكسها حين يوصى باتقاء الشبهات : من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، وهو ما يتناقض مع ما يدعو اليه الشارح من التظاهر بالوضاعة حتى تذل النفس ، وهى على أية حال طريقة خاصة جدا ببعض من مضوا على هذا المنهج . (المراجع)

ومثله ما يروى عن أبى يزيد — رضى الله عنه — فى قصة الشاهد الذى امره بحلق رأسه ولحيته ، وتعليق مخلاة الجوز فى عنقه ، واعطائة لمن يصفعه من الصبيان ، وطوافه على تلك الحالة فى المحافل والمحاضر ، والحكايتان مشهورتان : ذكرهما الامام الغزالى — رضى الله عنه — وغيره .

وقال بعض المصنفين : وإذا جاز لمن غص بلقمة من طعام حلال أن يسيغها بجرعة من الخمر اذا لم يجد غيره ، مع أن تحريمه مقطوع به ، ولا يفوته الا حياة فانية ؛ فلأن يجوز ، مثل هذا اذا تعين أولى ؛ إذ يفوته بذلك الحياة الباقية ، والقرب من الله تعالى .

فاذا التزم العبد هذه الطرق من الرياضات — ماتت نفسه — وحيى قلبه ، وقرب من حضرة ربه ، واجتنى ثمرة غرسه ، على غاية الكمال والتمام .

وتلك الثمرة اخلاق الايمان التى تكيفت بها نفسه . وصارت كصفات ذاتية له . وهى نتيجة الحكمة التى أنبتها الله فى قلوب عباده المتواضعين '' ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا '' (من آية ٢٦٩ من سورة البقرة)

قال عيسى عليه الصلاة والسلام لأصحابه : أين تنبت الحبة ؟ قالوا : فى الارض ، فقال عليه الصلاة والسلام : كذلك الحكمة لا تنبت الا فى القلب مثل الأرض .

قلت : وقد ورد عن النبى ﷺ فى مدح الخمول ، وذم الشهرة — أحاديث كثيرة : منها ما روى أبو أمامة — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ — أنه قال : '' يقول الله عز وجل : إنَّ اغبط أوليائى عندى لمؤمن خفيف الحاذ[1] ذو حظ من الصلاة ، أحسن عبادة ربه ، وأطاعه فى السر ، وكان غامضا فى الناس لا يشار اليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافا ، فصبر على ذلك ، ثم نفض يده ، فقال : '' عجلت منيته ، قلت بواكيه ، قلّ عزاؤه '' .

وفى حديث أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ —

(١) خفيف الحاذ : خفيف الظهر ، والمراد : خفيف الحال ، غير متكثر من الدنيا .

" رب أشعث[1] أغبر[2] ذى طمرين[3] ، تنبو عنه أعين الناس — لو أقسم على الله لأبره " . وروى معاذ بن جبل — رضى الله عنه — عن رسول الله — ﷺ — أنه قال : " إن يسيرا من الرياء شرك ، وان من عادى اولياء الله — فقد بارز الله بالمحاربة ، وان الله يحب الاتقياء الاخفياء الذين اذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يدعوا ، ولم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة "

وروى أبو هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله — ﷺ — فى حديثه الذى نوه فيه باسم « أويس القرنى » وأشاد بذكره ، ونبه على عظيم أمره — رضى الله عنه — أنه قال : « بينما نحن عند رسول الله — ﷺ — فى حلقة من أصحابه إذ قال : « ليصلين معكم غدا رجل من أهل الجنة » ، قال أبو هريرة فطمعت أن أكون ذلك الرجل ، فغدوت فصليت خلف النبى ﷺ ، فأقمت فى المسجد حتى انصرف الناس ، فبقيت أنا وهو ﷺ ، فبينما نحن كذلك إذ أقبل رجل أسود ، متزر بخرقة ، مرتد برقعة ، فجاء حتى وضع يده فى يد رسول الله — ﷺ — ثم قال : يا نبى الله ، ادع الله لى بالشهادة ، فدعا ﷺ له بالشهادة ، وأنا لنجد منه ريح المسك الأذفر ، فقلت يارسول الله ، أهو هو ؟ قال نعم ، إنه لمملوك بنى فلان ، قلت : أفلا تشتريه ، فتعتقه ،يا نبى الله ؟ فقال : وأنَّى لى بذلك ؟ إن كان الله يريد أن يجعله من ملوك الجنة يا أبا هريرة . إن لأهل الجنة ملوكا وسادة ، وأن هذا الأسود أصبح من ملوك الجنة وساداتهم يا أبا هريرة . إن الله عز وجل يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء الشعثة رءوسهم ، المغبرة وجوههم ، الخمصة بطونهم من كسب الحلال ، الذين اذا استأذنوا على الأمراء — لم يؤذن لهم ، وان خطبوا المتنعمات لم ينكحوا ، وان غابوا — لم يفتقدوا ، وان حضروا لم يدعوا ، وان طلعوا — لم يفرح بطلعتهم ، وان مرضوا — لم يعادوا ، وان ماتوا لم يشهدوا . قالوا يا رسول الله ، كيف لنا برجل منهم ؟

قال ذلك « أويس القرنى » قالوا : وما أويس القرنى » ؟

---

(١) اشعث : شَعِث بدنه : اتَّسخ ، فهو أشعث ، وهى شعثاء (ج) شعث .
(٢) غَبَر الشيءَ ، صار لونه كلون الغبار ، فهو أغبر ، وهى غبراء (ج) غبر .
(٣) الطِّمر : الثوب البالى .

قال : اشهل[1] ذو صهوبة[2] ، بعيد ما بين المنكبين ، معتدل القامة ، آدم شديد الأدمة ضارب بذقنه الى صدره ، رام بنظره الى موضع سجوده ، واضع يمينه على شماله ، يتلو القرآن ، يبكى على نفسه ، ذو طمرين ، لا يؤبه له ، متزر ازار صوف ، ورداء صوف مجهول في أهل الأرض ، معروف فى أهل السماء ، لو أقسم على الله لأبر قسمه ، ألا وان تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء ، ألا وانه اذا كان يوم القيامة قيل للعباد : ادخلوا الجنة ويقال « لأويس القرنى » قف فاشفع ، فيشفعه الله فى مثل عدد ربيعة ومضر ، ياعمر ياعلى اذا انتما لقيتماه ، فاطلبا اليه : يستغفر لكما ، يغفر الله لكما ، وذكر باقى الحديث . وفى حديث آخر أن رسول ﷺ قال : « يكون فى أمتى رجل يقال له « أويس القرنى » يدخل فى شفاعته عدد ربيعة ومضر ، لو أقسم على الله لأبره ، فمن لقيه بعدى ، فليقرئه منى السلام ، ثم سئل عن علامته ؟

فقال هو رجل أصهب أشهل ذو طمرين أبيضين ، له أم ، وقد كان به بياض ، فدعا الله عز وجل ، فأذهبه عنه ، الا مقدار الدينار أو الدرهم ، لا يؤبه له ، مجهول فى الأرض ، معروف فى السماء .

وكان قد بلغ من شدة خموله ، ونهاية ضعفه ــ أن الناس كانوا يسخرون منه ، ويستهزئون به ، ويؤذونه ، ويرون فيه أهلية الخداع والتلصص ، وينسبونه الى ذلك . فقد روى فى ذلك أنه دفع اليه بعض فقهاء الكوفة ــ ثوبين ــ وكان يجالسه ، فانقطع عن مجلسه ، لأجل العرى ، فردهما عليه بعد أن أخذهما منه ، وقال : ان الناس يقولون : من أين له هذان الثوبان ؟ ترى من خدع عليهما ؟ وكان فى ذلك الوقت يجالس الفقهاء ، ويظهر للناس ، وذلك قبل أن يعرف برفعة القدر ، وجلالة الخطر ، وتنويه عمر ، رضى الله عنه ــ به على المنبر . فلما رأى أن الناس عرفوا حاله ــ هرب عنهم ، واستخفى منهم ولبس أمره عليهم برعاية الابل وغير ذلك .

وقيل لعمر ــ رضىٌ الله عنه ــ لما سأل عنه قومه ، ما فينا أخمل منه ذكرا ،

---

(١) أشهل : الشهلة : أن يشوب انسان العين حمرة .

(٢) الأصهب : ذو اللون الأصفر الضارب الى شيء من الحمرة والبياض .

فلما لقيه هو وعلى – رضى الله عنهما – وسأله من هو ؟ فقال له : راعى غنم ، وأجير قوم ، وستر ذكر « أويس » فلما سأله عن اسمه ؟

قال له عبد الله : فلما سأله عن اسمه الذى سمته به أمه ، امتنع أن يجيبه عن ذلك ، فلما أخبراه بوصف النبى ﷺ – له ، وانهما عرفاه بذلك ، قال لهما : عسى أن يكون ذلك غيرى . فلما قال له : أخبرنارسول الله – ﷺ – أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء ، وطلبا منه أن يوضحها لهما ، لم يجد بدا من أن يوضحها لهما ، وذلك – والله اعلم – ليريهما رؤية عين صحة قول رسول الله ﷺ وصدقه فى اخباره بالغيب ، وذلك أمر واجب عليه ، والا فلعله كان يتعلل لهما كما فعله فى كل ما سئل عنه .

ثم بعد ذلك ، لما سأله عمر – رضى الله عنه – أن يلتقى معه ، ويجعل ذلك الموضع ميعادا بينه وبينه ، قال له : يا أمير المؤمنين : لا ميعاد بينى وبينك ، ولا أعرفك ، ولا تعرفنى بعد اليوم ، ثم دفع الابل الى أصحابها ، وخلا عن الرعاية ، وكذلك فعل مع هرم بن حيان – رضى الله عنه – لما لقيه بشاطىء الفرات ، ووقع بينهما التعرف ، قال له : « حدثنى بحديث عن رسول الله – ﷺ – « أحفظه عنك ، فقال له لا أحب أن أفتح هذا الباب على نفسى ، لا أحب أن أكون محدثا ، ولا مفتيا ولا قاضيا ، فلما فرغا من الكلام الذى كانا بصدده ، سأله مداومة الاجتماع به ، فأبى وامتنع ، وقال له : لا أراك بعد اليوم تطلبنى ، ولا تسأل عنى ، انطلق أنت ها هنا ، حتى أنطلق أنا ها هنا . ثم بعد ذلك ، اجتهد فى طلبه ، والبحث عنه ، فلم يقع له على خبر . ومن عجيب أمره أن حقق الله تعالى له هذا الحال من التخفى والتستر ، وأتمه له بعد موته مع ما أظهره بسببه من الآيات والعبر ، حينئذ قال عبد الله بن سلمة : غزونا أذربيجان زمن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – ومعنا « أويس القرنى » رضى الله عنه ، فلما رجعنا مرض فمات ، فنزلنا ، فاذا قبر محفور ، وماء مسكوب ، وحنوط ، فغسلناه ، وكفناه وصلينا عليه ، ودفناه ، فقال بعضنا لبعض لورجعنا ، فعلمنا قبره ، فرجعنا ، فاذا لا قبر ولا أثر .

قلت والحكايات والآثار فى مدح الخمول ، وذم الاشتهار أكثر من أن يأتى عليها انحصار وقد أورد كثيرا منها ، الأئمة المصنفون فى هذا العلم ، فليطالع ذلك المريد

مستمدا من الله تعالى أحسن التوفيق والتأييد ، وتعبير المؤلف رحمه الله ها هنا : بالدفن والارض والنبات والنتاج من ملح الاستعارات .

تعقيـــب

ادفن وجودك فى الخمول الذى هو كالأرض للميت فى التغطية التامة ، ولا تتعاط أسباب الشهرة ، فان الخمول مما يعين على الاخلاص ، بخلاف حب الظهور فانه من جملة القواطع القاصمة للظهور ، فان سلكت الطريق بعد شهرتك — فالواجب عليك التواضع ، فلا شيء أضر على المريد من الشهرة ، وانتشار الصيت . ومحبة الجاه وايثار الاشتهار — مناقض للعبودية التى يطالب بها المريد .
قال الشيخ أبو العباس المرسى — رضى الله عنه — من أحب الظهور فهو عبد الظهور ، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ، ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أو أخفاه .

ومن ثم قال رجل لبشر بن الحارث — رضى الله عنه — أوصنى .
قال : أخمل ذكرك ، وأطب مطعمك » .

الحكمة الثالثة عشرة

قال ابن عطاء الله :

« كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ ٱلْأَكْوانِ مُنْطَبِعةٌ فِي مِرْآتِهِ ، أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللهِ ، وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَواتِهِ ، أَمْ كَيفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللهِ ، وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّر مِنْ جَنَابَةِ غَفَلاَتِهِ ، أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ ٱلْأَسْرَارِ ، وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ »

قال أبن عباد :

الجمع بين الضدين محال ، كا جتماع الحركة والسكون ، والنور والظلمة ، وهذه الأشياء التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى ـــ أضداد لا تجتمع ؛ فإن إشراق القلب بنور الايمان واليقين مضاد للظلمة التى استولت عليه من ركونه الى الأغيار والأكون ، واعتماده عليها ، والمسير الى الله تعالى ، بقطع عقبات النفس ـــ مضاد للاعتقال فى حبس الهوى والشهوات ودجول حضرة الله ، المقتضية لطهارة الداخل ونزاهته ـــ مضاد لما هو عليه من جنابة غفلانه التى مقتضاها الإقصاء والإبعاد ، وفهم دقائق الأسرار المستفاد من التقوى ـــ مضاد للإصرار على المعاصى والهفوات ، وإليه الإشارة بقوله عز من قائل : « واتقوا الله ويعلمكم الله»[1] .

وبما روى فى بعض الأخبار : « من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

قال يحيى بن معين رحمه الله تعالى : التقى أحمد بن حنبل ، واحمد بن أبى الحوارى فقال ابن حنبل لابن أبى الحوارى : يا أحمد ، حدثنا بحكاية سمعتها من

---

(١) من آية ٢٨٢ من سورة البقرة .

استاذك أبي سليمان ، فقال : يا احمد ، قل سبحان الله بلا عجب ، فقال ابن حنبل : سبحان الله وطولها بلا عجب ، فقال ابن أبي الحوارى ، سمعت أبا سليمان يقول : اذا عقدت النفوس على ترك الآثام — جالت فى الملكوت ، وعادت الى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدى اليها عالم علما . قال : فقام أحمد بن حنبل ثلاثا ، وجلس ثلاثا وقال : ما سمعت فى الاسلام بحكاية أعجب الىَّ من هذه ، ثم ذكر الحديث الذى ذكرناه : «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم» .

ثم قال لأحمد بن الحوارى : صدقت يا أحمد ، وصدق شيخك . ولاجل كون هذه الأشياء أضدادا — عجب المؤلف رحمه الله تعالى ممن يعتقد صحة اجتماعها ، وممن طمع فى نيل مراتب الرجال ، مع كونه على أقبح الخلال .

تعقيـــب

ينفى ابن عطاء الله اجتماع الضدين ، ويتعجب من ذلك ، فكيف يشرق قلب صور الأكوان ثابتة فى بصيرته ؟ وذلك باعتقاده أنها تضر وتنفع ، وبتطلعه لها ، وتعلقه بها ؛ فانّ اشراق القلب بنور الايمان مضاد للظلمة التى استولت عليه بالركون الى الاغيار ، فكيف يجتمع نور وظلمة فى قلب ، وهما ضدان ؟ وكيف يرحل قلب الى الله وهو مقيد بشهواته ؟ فالمقيد لا يمكنه السير ، فهما ضدان ، وكيف يطمع قلب أن يدخل حضرة الله ، ودائرة ولايته — وهى مقتضية الطهارة — وهو لم يتطهر من غفلاته الشبيهة بالجنابة ؟ فدخول الحضرة مضاد لما هو عليه من جنابة الغفلات .

وكيف يرجو قلب أن يفهم دقائق الأسرار — المتوقفة على التحرر من المعاصى — وهو لم يرجع عن معاصيه ؟ ففهم دقائق الأسرار — لا يكون أبدا مع الإصرار . كما قال الله تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

والاستفهام — فى هذه المواطن الأربعة — إنكارى للنفى أو التعجب .

وكل واحد منها وسيلة لما بعده ؛ فإشراق القلب وسيلة لدخول دائرة الولاية ، وهذه وسيلة للاطلاع على دقائق الأسرار .

الحكمة الرابعة عشرة

قال ابن عطاء الله :

« الْكَوْن[١] كُلُّهُ ظُلْمَةٌ[٢] ، وإنّمَا أنَارَهُ[٣] ظُهُورُ الْحَقِّ فِيهِ[٤] فَمَنْ رَأَى الْكَوْنَ — وَلَمْ يَشْهَدْهُ فِيهِ أَوْعِنْدَهُ ، أَوْ قَبْلَهُ ، أَوْ بَعْدَهُ — فَقَدْ أَعْوَزَه[٥] وجُودُ الأنْوَارِ ، وَحُجِبَتْ[٦] عَنْهُ شُمُوسُ الْمَعَارِفِ[٧] بِسُحُبِ الْآثَارِ[٨] » .

قال ابن عباد :

العدم ظلمة ، والوجود نور ، فالكون بالنظر الى ذاته عدم مظلم ، وباعتبار تجلى نور الحق عليه ، وظهوره فيه ، وجود مستنير ، ثم اختلفت أحوال الناس ههنا ، فمنهم من لم يشاهد إلا الأكوان ، وحجب بذلك عن رؤية المكوِّن ، فهذا تائه فى الظلمات محجوب بسحب آثار الكائنات ، ومنهم من لم يحجب بالأكوان عن المكون ، ثم هم فى مشاهدتهم إياه فرق : فمنهم من شاهد المكون قبل الأكوان ، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالمؤثر على الآثار ، ومنهم من شاهده بعد الأكوان ، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالآثار على المؤثر ، ومنهم من شاهد مع الأكوان ، والمعية

---

(١) الكون : ما كونته القدرة ، وأظهرته للعيان

(٢) الظلمة : ضد النور ، وهى عدمية ، والنور وجودى

(٣) أناره : أوجده ، وصيره نورا .

(٤) ظهور الحق فيه : أى ظهوره عز وجل ، وتجليه ، بمعنى أنه تجلى عليه بذاته ، وقال له : كن فكان .
لم يشهده فيه : أى احجبه ما فى الكون عن المكون وهو الله سبحانه وتعالى .

(٥) أعوزه : فاته . وجود الأنوار : أى الأنوار الالهية التى يدرك بها مشاهدة الله على وجه ما .

(٦) حجبت : غابت .

(٧) شموس المعارف : المعارف التى كالشموس . من اضافة المشبه به الى المشبه .

(٨) بسحب الآثار : أى بالآثار وهى المكونات التى كالسحب . من اضافة المشبه به الى المشبه .

ههنا ، إما معية اتصال ، وهو شهوده فى الاكوان ، وإما معية انفصال ، وهو شهوده عند الأكوان . وهذه الظروف المذكورة ليست بزمانية ولا مكانية ، لأن الزمان والمكان من جملة الأكوان ، والاتصال والانفصال المذكوران ليسا على ما يفهم من معانيهما ، فانهما أيضا من جملة الأكوان ، ومعرفة تفصيل هذه الأمور ، والتفرقة بين هذه الحقائق على ما هى عليه — موكول الى أربابه ، فلنقتصر على ما ذكرناه ، فههنا زلت أقدام كثير من الناس ، فتكلموا بكلمات موهمة ، وعبروا بعبارات منكرة فى الشرع ، فكفروا بذلك ، وبدعوا ، فاعتقد كمال التنزيه ، وبطلان التشبيه . وتمسك بقوله عز وجل « ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير[1] » سبحانه لا إله غيره[2] .

(١) من آية ١١ من سورة الشورى

(٢) سبق تفصيل قضايا التنزيه ، والتجسيد ، والتشبيه .

الحكمة السادسة عشر

قال ابن عطاء الله :

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٍ ، وَهُوَ الَّذِى أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ؟
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٍ ، وَهُوَ الَّذِى ، ظَهَرَبِكُلِّ شَيْءٍ ؟
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٍ ، وَهُوَ الَّذِى ظَهَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؟
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٍ ، وَهُوَ الَّذِى ظَهَرَ لِكُلِّ شَيْءٍ ؟
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٍ ، وَهُوَ الظَّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ كُلَّ شَيْءٍ ؟
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٍ ، وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٍ ؟
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٍ ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟.
كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٍ ، وَلَوْلَاهُ مَا كَانَ وُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ ؟
يَا عَجَباً ! كَيْفَ يَظْهَرُ الْوُجُودُ فِي الْعَدَمِ ؟ أَمْ كَيْفَ يَثْبُتُ الْحَادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ الْقِدَمِ ؟

قال ابن عباد :

« كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذى أظهر كل شيء » بما أشرف عليه من نور الوجود ، وقد كان فى ظلمة العدم كما تقدم .

« كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذى ظهر بكل شيء ، حتى استدل عليه المستدلون بالأشياء ، كما قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » .

« كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذى ظهر فى كل شيء » اذ هو المتجلى فيها بمحاسن صفاته وأسمائه .

« كيف يتصور أن يحجبه شيء » وهو الذى ظهر لكل شيء » فى طور ذلك الشيء ، ولذلك كان ساجدا له ، ومسبحا بحمده ، ولكن لا نفقه ذلك .

كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الظاهر قبل كل شيء لتحقق هذا الاسم له أزلا وأبدا .

كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو أظهر من كل شيء لأن الوجود أظهر من العدم على كل حال .

كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الواحد الذى ليس معه شيء إذ كل ما سواه عدم ، لا وجود له على التحقيق .

كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو أقرب اليك من كل شيء لثبوت احاطته بك ووجود قيومته عليك .

كيف يتصور أن يحجبه شيء ، ولولاه ما كان وجود كل شيء ؛ حتى استدل به الشاهدون على الأشياء ، كما قال الله تعالى : « أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد »[1] يا عجبا كيف يظهر الوجود فى العدم ؛ لأن العدم ظلمة والوجود نور ، وهما ضدان لا يجتمعان .

أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم ؛ لأن الباطل لا يثبت مع ظهور الحق ، كما قال الله تعالى : « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا »[2] .

وقال عز من قائل « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق[3] .

قلت : وهذا الفصل من قوله : الكون كله ظلمه الى هنا أبدع فيه المؤلف غاية الابداع ، وأتى فيه بما تقربه الأعين ، وتلذ به الأسماع ، فإنه رضى الله عنه ذكر جميع متعلقات الظهور ، وأبطل حجابية كل ظلام ونور ، وأراك فيه الحق رؤية عيان وبرهان ، ورفعك من مقام الايمان الى أعلى مراتب الاحسان . كل ذلك فى أوجز

---

(١) من آية ٥٣ من سورة الشورى .
(٢) آية ٨١ من سورة الإسراء .
(٣) من آية ١٨ من سورة الأنبياء .

لفظ ، وأفصح عبارة ، وأتم تصريح ، وألطف اشارة . فلو لم يكن فى هذا الكتاب الا هذا الفصل لكان كافيا شافيا ، فجزاه الله عنا خيرا .

تعقيـــب

تضمنت هذه الحكمة عددا من الأدلة استدل بها ابن عطاء الله على أنه سبحانه وتعالى ــ لا يحتجب بالأكوان ، وأتى بها على سبيل التعجب ، واستبعاد أن يتصور ذلك فى الأذهان ، فقد استدل على بطلان الحجاب فى حقه تعالى بعشرة أدلة ، متعجبا من كل واحد منها ، لظهوره مع خفائه ، أى لشدة ظهوره عند العارفين ، ولشدة خفائه عند الغافلين ؛ حتى قال ابن عباد : هذا الفصل من قوله « الكون كله ظلمة » إلى هنا ــ أبدع فيه المؤلف غاية الإبداع ، وأتى فيه بما تقر به الأعين ، وتلذ به الأسماع .

. . . الى أن قال : فلو لم يكن فى هذا الكتاب الا هذا الفصل ــ لكان كافيا شافيا . فجزاه الله عنا خيرا .

الحكمة السابعة عشرة

قال ابن عطاء الله :

« مَا تَرَكَ مِنَ الْجَهْلِ[1] شَيْئاً مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحْدِثَ فِي الْوَقْتِ غَيْرَ ما أَظْهَرَهُ الله فِيه »

قال ابن عباد :

اذا أقام الله تعالى العبد فى حال من الأحوال التى لا يذمها الشرع ـــ فليلتزم حسن الأدب فى اختيار بقائه عليها ، ورضاه بها ، وليراقب الله تعالى فى مراعاة آدابها . . وليوافق مراد الله تعالى فى ذلك ، حتى يكون هو الذى ينقله عنها .

قال أبو عثمان ـــ رضى الله تعالى عنه ـــ منذ أربعين سنة ، ما أقامنى الله فى حال ، فكرهته ولا نقلنى الى غيره ، فسخطته . وقد تقدم حكاية المؤلف رحمه الله تعالى ـــ مع شيخه أبى العباس المرسى حين عزم على التجرد ، وترك ما كان عليه من الاشتغال بالعلم الظاهر ، وما أجابه به الشيخ رضى الله تعالى عنه ، وهذا من نتائج العلم بالله تعالى ومعرفة ربوبيته ، فإنْ سَخِطَ تلك الحال ، وتشوف الى الانتقال عنها بنفسه ـــ وأراد أن يحدث غير ما أظهره الله تعالى ـــ فقد بلغ غاية الجهل بربه ، وأساء الأدب فى حضرة مولاه عز وجل وهذا من معارضة حكم الوقت الذى تشير اليه الصوفية ، وهو عندهم من أعظم ذنوب الخاصة .

---

(١) الجهل : ضد العلم ، وقيل هو عدم العلم بالمقصود ، وهو على قسمين : بسيط ومركب ، فالبسيط أن يجهل ويعلم أنه جاهل ، والمركب أن يجهل جهله وأقبح الجهل ـــ الجهل بالله وانكاره بعد طلب معرفته .

والوقت هنا : الزمان الذى لا يقبل غير ما أظهره الله فيه .

فالواجب على العبد الاستسلام لحكم الله تعالى فى ذلك الوقت ، فهو أدب العبودية ، ومقتضى العلم بالله تعالى ، وهذا هو أحد معانى لفظ الوقت فى اصطلاحهم[1] قال الامام أبو القاسم القشيرى — رضى الله تعالى عنه — وقد يريدون بالوقت ما يصادفهم من تصريف الحق لهم دون ما يختارون لأنفسهم ، ويقولون : فلان بحكم الوقت ، أى أنه مستسلم لما يبدو من الغيب من اختيار ، وهذا فيما ليس لله عز وجل عليهم فيه أمر أو اقتضاء بحق شرع ، اذ التضييع لما أمرت به ، واحالة الأمر فيه على التقدير ، وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير — خروج عن الدين . ومن كلامهم : الوقت سيف : أى كما أن السيف قاطع — فالوقت بما يقتضيه الحق ، ويجريه غالب .

وقيل : السيف لين مسه ، قاطع حده ، فمن لاينه سلم ، ومن خاشنه اصطلم[2] ، وكذلك الوقت : من استسلم لحكمه نجا ، ومن عارضه بترك الرضا — انتكس وتردى ، وأنشدوا :

وكالسيف إن لاينته لان مسه وحداه أن خاشنته خشنان

ومن ساعده الوقت ، فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت ، فالوقت عليه مقت ، هذا كلام ابى القاسم ، وهو موافق لما ذكره صاحب الكتاب ، والله الموفق .

تعقيب

من آداب العارف الحقيقى : أن يقر الأشياء فى محلها ، ويسير معها على سيرها ، فلا ينكر شيئا ، ولا يجهل شيئا ، ولذا قال بعض العارفين :

« ليس فى الامكان أبدع مما كان » أى أن ما سبق فى علم الله لا بد أن يكون ، ولا يكون غيره ، فليس هناك أبدع منه .

---

(١) قد يريدون بالوقت غير هذا ، مثل : طيبة القلب ، ومنه قولهم : فلان صاحب وقته ، وطاب لوقته ، ومثل الاجتماع للسماع ، ومنه قولهم : صنع فلان وقتا ، وحضرنا وقتا .

(٢) اصطلم : المراد : انقطع .

و ترشد هذه الحكمة : إلى أن من حسن الأدب أن يكون المريد راضيا بما أقامه الله فيه ، فان سخط من الحالة التى يكون عليها ، وتشوف إلى الانتقال عنها ، وأراد أن يحدث غير ما أظهره الله ــ فقد بلغ غاية الجهل ، وأساء الأدب .

وإنما كانت معاندة الوقت غاية الجهل ؛ لا نسداد أبواب العلم ، وطرقه فى حق صاحب هذه الحالة .

وفى بعض الأخبار : يقول الله تبارك وتعالى « من لم يرض بقضائى ، ولم يصبر على بلائى ؛ فليخرج من تحت سمائى ، وليتخذ ربا سواى » .

الحكمة الثامنة عشرة

قال ابن عطاء الله :

« إِحَالَتُكَ[1] الْأَعْمَالَ عَلَى وُجُودِ الْفَرَاغِ[2] مِنْ رُعُونَاتِ[3] النَّفْسِ »

قال ابن عباد :

اذا كان العبد متلبسا بحال من أحوال دنياه ، وكان له فيها شغل يمنعه من العمل بالأعمال الصالحة ، وأحال ذلك العمل على فراغه من تلك الأشغال ، وقال : إذا تفرغت عملت ، فذلك من رعونة نفسه ، والرعونة : ضرب من الحماقة وحماقته من وجوه : الأول : إيثار الدنيا على الآخرة ، وليس هذا من شأن عقلاء المؤمنين ، وهو خلاف ما طلب منه ، قال الله تعالى : « بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى[4] ».

والثانى : تسويفه بالعمل الى أوان فراغه ، وقد لا يجد مهلة ، بل يختطفه الموت قبل ذلك ، أو يزداد شغله ؛ لأن اشغال الدنيا يتداعى بعضها الى بعض ، كما قيل :

فما قضى أحد منها لبانته[5] ولا انتهى أرب إلا إلى أرب[6]

---

(١) الإحالة على الشىء : هو تسليطه واغراؤه عليه ، والمراد هنا : توقف الامر عليه ، بحيث لا يتوجه له حتى يتيسر وجوده .

(٢) الفراغ من الشىء : خلوه منه ، وفراغ القلب : خلوه مما يشغله ، وفراغ الجوارح : خلوها من الأشغال .

(٣) الرعونات : جمع رعونة ، وهى ضرب من الحماقة ، فيظن بصاحبها العقل ، وليس بعاقل فى نفس الأمر .

(٤) الآيتان : ١٦ ١٧ من سوره الأعلى .

(٥) اللبانة : الحاجة .

(٦) الأرب : البغية والأمنية . وفى معنى هذا البيت يقول الشاعر الآخر :

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجات من عاش لاتنقضى

والثالث : أن يفرغ منها إلى الذى لا يرضيه من تبدل عزمه ، وضعف نيته ، ثم فيه من دعوى الاستقلال ورؤية الحول والقوة فى جميع الأحوال ما يستحقر فى جنبه جميع هذا ، بل الواجب عليه أن يبادر الى الأعمال على أى حال كان ، وأن ينتهز فرصة الامكان قبل مفاجأة الموت ، وحلول الفوت ، وأن يتوكل على الله تعالى فى تيسيرها عليه ، وصرف الموانع الحائلة بينها وبينه .

وما أحسن قول ابن الفارض فى هذا المعنى

وعد من قريب فاستجب واجتنب غدا ... وشمر عن الساق اجتهادا بنهضة
وكن صارما كالوقت فالمقت فى عسى ... وإياك عَلَّ فهى أخطر علة
وسر زمنا وانهض كسيراً فحظك البـ ... ـطالة ما أخرت عزما لصحة
وَجُذَّ بسيف العزم سوف فان تجد ... نفسا فالنفس إن جُدْتَ جَدَّتِ

تعقيـــب

الواجب على المرء أن يبادر الى الأعمال الصالحة التى توصله الى مولاه ، قبل فوات الأوان ؛ ولذلك قيل : « الوقت كالسيف ، ان لم تقطعه قطعك » فعلى العاقل المؤمن أن ينتهز فرصة عمل الطاعات ، وأن يتوكل على الله ؛ كى ييسرها له ، ويصرف عنه الموانع التى تحول بينها وبينه .

قال (ﷺ) « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى »

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « ما من يوم إلا وهو ينادى : يابن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فاغتنم منى ، فإنى لا أعود إلى يوم القيامة » .

الحكمة التاسعة عشرة

قال ابن عطاء الله :

« لاَ تَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ[1] ، لِيَسْتَعْمِلَكَ فِيما سِوَاهَا[2] ؛ فَلَوْ أَرَادَكَ[3] لاَسْتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ »

قال ابن عباد :

كما أنه اذا كان المرء على حالة لا توافق غرضه ، كانت متعلقة بالدين أو بالدنيا ، لا ينبغى له أن يروم الخروج منها بنفسه ، ويعارض حكم وقته ، فيحدث فيه غير ما أظهرْ الله فيه كما تقدم فى قوله[4] : ما ترك الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه « مع الشرط المتقدم ، وهو ألا يكون فى ذلك مخالفة أمر ، أو ارتكاب نهى ، فينبغى له أيضا ألا يعارض حكم الوقت ، ويطلب من مولاه أن يخرجه منها ، ويستعمله فيما سواها ؛ لأن هذا من التخيير على الله تعالى ، ولا خيرة له فى ذلك ، بل ينبغى له حسن الأدب معه ، وإيثار مراده به على اختياره هو ، وحينئذ يتحقق بحال يتعرف فيها محبة الله تعالى ، وارادته له ، فيستعمله استعمالا

---

(١) يخرجك من حالة : المراد : حالة موافقة للشرع ، دينية كطلب العلم ، أو دنيوية كالصناعة .

(٢) ليستعملك فيما سواها : لتوهمك أن غيرها أرقى منها ، وأن ما أنت فيه عائق عن نهوضك لحضرته :

(٣) لو أرادك : أى أحبك ، وجعلك سبحانه من أهل ارادته ومحبته وخاصته .

استعملك من غير اخراج : أى استعملك استعمالا محبوبا عنده ، بأن يوفقك للأعمال الصالحة ، من غير اخراج من الحال التى أنت عليها .

وفى شرح الشيخ الشرقاوى للحكم : ولو قال لحصل لك المطلوب من غير اخراج لكان أولى » .

(٤) أى فى قول ابن عطاء الله رضى الله عنه ، فى الحكمة السابعة عشرة .

محبوبا عنده مع بقائه على حالته التى هو عليها ، فيكون إذ ذاك بمراد الله تعالى ، لا بمراده لنفسه ، وهو خير مما اختاره .

قال فى التنوير[1] : « يحكى عن بعضهم أنه كان يقول : وددت لو أننى تركت كل الأسباب ، وأعطيت كل يوم رغيفين ، يريد بذلك أن يستريح من تعب الأسباب . قال : فسجنت ، ثم كنت فى السجن ، يؤتى إلى كل يوم برغيفين ، فطال ذلك علىَّ ، حتى ضجرت ، ففكرت يوما فى أمرى ، فقيل لى : انك طلبت منا كل يوم رغيفين ، ولم تطلب منا العافية ، فأعطيناك ما طلبت . فاستغفرت من ذلك ، ورجعت الى الله تعالى ، فاذا بباب السجن يقرع ، فتخلصت ، وخرجت . قال فيه : فتأدب بهذا أيها المؤمن ، ولا تطلب أن يخرجك من أمر ، ويدخلك فيما سواه ، اذا كان ما أنت فيه ، مما يوافق لسان العلم ، فان ذلك من سوء الأدب مع الله تعالى .

فاصبر ، لئلا تطلب الخروج بنفسك ، فتعطى ما طلبت ، وتمنع الراحة فيه ، فرب تارك شيئا ، وداخل فى غيره ، ليجد الثروة والراحة ـــ فيتعب[2] ، وقوبل بوجود التعسير عقوبة لوجود الاختيار » أ هـ كلامه فى التنوير ، وهو كالتفسير لما ذكره ها هنا ، فلذلك أوردته .

تعقيـــب

قال « ابن عجيبة « فى ايقاظ الهمم فى شرح الحكم » صـ ٦٤ :

« من آداب العارف الاكتفاء بعلم الله ، والاستغناء به عما سواه ، فاذا أقامه الله تعالى فى حالة من الأحوال ـــ فلايستحقرها ، ويطلب الخروج منها الى حالة أخرى ، فلو اراد الحق تعالى أن يخرجه من تلك الحالة ، ويستعمله فيما سواها ـــ لا ستعمله من غير أن يطلب منه أو يخرجه ، بل يمكث على ما أقامه فيه الحق تعالى ؛ حتى يكون هو الذى يتولى إخراجه كما يتولى إدخاله :

« وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق »[3]

---

(١) التنوير فى إسقاط التدبير : لابن عطاء الله السكندرى .

(٢) فى نسخة « فتعب » وذلك أقرب الى السياق .

(٣) من آية ٨٠ من سورة الاسراء .

هذا اذا كانت الحالة موافقة للشرع كما تقدم ، أما اذا كانت الحالة غير موافقة للشرع فيجب على المريد ــ المبادرة ، وطلب الاخراج منها ، والانتقال الى غيرها ، كما قيل :

فـإن أقـامك عـظيم المنـةْ   فى عمـل موافـق للسنـةْ
فهو مقامك الذى يليق بكْ   فلا تـرم خلافـه بشهـوتكْ
لـو شاء ربنـا العـظيم المالكْ   ومن له التصريف فى الممـالكْ
لكنت فى المطلوب من غير طلبْ   فارض بحكم الله والزم الأدبْ
وان أقـامك هـواء الطبـع   فى عمـل مخالـف للشـرعِ
فبـادر الخروج لا تماطـل   واقطع بسيف العزم كل حائلِ

الحكمة العشرون

قال ابن عطاء الله :

« مَا أَرَادَتْ هِمَّةُ سَالِكٍ[1] أَنْ تَقِفَ عِنْدَمَا كُشِفَ لَهَا إِلاَّ وَنَادَتْهُ هَوَاتِفُ الْحَقِيقَةِ[2] الَّذِى تَطْلُبُ أَمَامَكَ ، وَلاَ تَبَرَّجَتْ[3] لَهُ ظَوَاهِرُ الْمُكَوَّنَاتِ إِلا وَنَادَتْهُ حَقَائِقُهَا[4] : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ[5] فَلاَ تَكْفُرْ » .

قال ابن عباد :

السائر الى الله تعالى يتجلى له فى أثناء سلوكه أنوار ، وتبدو له أسرار ، فان أرادت همته أن تقف عندما كشف لها من ذلك ، لا عتقاده أنه وصل الى الغاية القصوى ، والنهاية من المعرفة ــ نادته هواتف الحقيقة : المطلوب الذى تطلب أمامك ؛ فجدّ فى السير ، ولا تقف ، فان تبرجت له ظواهر المكونات بزينتها ، فمال الى حسنها وجمالها ــ نادته حقائقها الباطنة ، انما نحن فتنة فلا تكفر ، وغمض عينيك عن ذلك ، ولا تلتفت إليه ، ودم على سلوكك وسيرك . واعلم أنه مادامت لك همة وارادة ــ فأنت بعد فى الطريق لم تصل ، فلو فنيت عنهما لوصلت .

---

(١) همة السالك : هى القوة الباعثة له على السير ، ووقوفها مع الشىء : اعتقادها أن ما وصلت اليه هو الغاية أو فيه الكفاية .

(٢) نادته هواتف الحقيقة : هواتف : جمع هاتف ، وهو ما يسمع صوته ولا يرى شخصه . أى قالت له بلسان الحال : الذى تطلبه أمامك ، فلا تقف .

(٣) تبرجت له : أظهرت له زينتها . ظواهر المكونات : ما كساها من الحسن والحكمة (وفى شرح العارف بالله الشيخ زروق : « ظواهر المكنونات »

(٤) حقائقها : نورها الباطن ، وهو تجلى المعنى فيها ، ونادته حقائقها : أى بواطنها بلسان الحال .

(٥) فتنة : ابتلاء واختبار . فلاتكفر : أى فلاتفتتن بنا ، ولا تقف عندنا ، فتحجب بنا عن معرفة الله .

وما أحسن قول الشيخ أبى الحسن الششترى فى هذا المعنى[1]

ولا تلتفت فى السير غيرًا فكل ما سوى الله غيرٌ فاتخذ ذكره حصنا
وكل مقام لا تَقُم فيه أنه حجاب فجدّ السَّيْرواستنجد العونا
ومهما ترى كل المراتب تجتلى عليك فَحُلْ عنها فَعَنْ مثلها حُلْنَا
وقل : ليس لى فى غير ذاتك مطلبٌ فلا صورةٌ تُجْلَى ولا طَرْفَهُ تُجْنَى

وقد رأيت لسيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه كلاما حسنا مناسبا لماذكره المؤلف رحمه الله تعالى هنا من الترق فى الأحوال ، وظهور النقص فى رؤية الكمال فرأيت أن أذكره ههنا بنصه ، لما فيه من سنىّ الفوائد ، وشريف المقاصد .

قال رضى الله عنه : اعلم أنك اذا أردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله تعالى — فعليك برفض الناس جملة ، الا من يدلك على الله تعالى باشارة صادقة ، وأعمال ثابتة ، لا ينقصها كتاب ولا سنة ، وأعرض عن الدنيا بالكلية ، ولا تكن ممن يُعرِضُ عنها ؛ ليعطى شيئا على ذلك ، بل كن فى ذلك عبد الله ، أمرك أن ترفض عدوه ، فان أتيت بهاتين الخصلتين : الاعراض عن الناس ، والزهد فى الدنيا ، فأقم مع الله بالمراقبة ، والتزم التوبة بالرعاية والاستغفار والانابة والخضوع للأحكام بالاستقامة .

وتفسير هذه الوجوه الأربعة : أن تقوم عبدا لله فيما تأتى وما تذر ، وتراقب قلبك . ألا يرى قلبك فى المملكة شيئا لغيره ، فان أتيت بهذا نادتك هواتف الحق من أنوار العزة : انك قد عميت عن طريق الرشد ، من أين لك القيام مع الله تعالى بالمراقبة ، وأنت تسمع قوله « وكان الله على كل شىء رقيبا »[2] .

---

(١) يقول عنه صاحب طبقات الشاذلية الكبرى : أنه العالم الوزير والاستاذ الجليل الكبير وسلطان الواصلين : سيدى أبو الحسن على بن عبد الله الششترى الأندلسى المغربى الشاذلى كان أبوه أميرا لقرية « ششتر » ونشأ فى عز ورفاهية ، ثم اتجه الى الله سبحانه وتعالى وجاهد وارتاض وكتب الشعر ، وكانت له سياحات كثيرة ، وورد مصر واستوطن دمياط وصار مرابطا بها الى أن توفى سنة ٦٨٨ هـ .

(٢) من آية ٥٢ من سورة الأحزاب .

فهناك يدرك من الحياء ما يحملك على التوبة مما ظننت أنه قريب .
فالتزم التوبة بالرعاية لقلبك : ألا يشهد ذلك منك بحال ، فتعود الى ما خرجت عنه ، فان صحت هذه منك نادتك الهواتف أيضا من قبل الحق تعالى : التوبة منه بدت والانابة منه تتبعها ، واشتغالك بما هو وصف لك حجاب عن مرادك ، فهناك تظهر أوصافك ، فتستعيذ بالله منها ، وتأخذ فى الاستغفار والانابة ، والاستغفار طلب الستر من أوصافك بالرجوع الى أوصافه ، فان كنت بهذه الصفة ، أعنى : الاستغفار والانابة ـــ ناداك عن قريب : اخضع لأحكامى ، ودع عنك منازعتى ، واستقم مع ارادتى برفض ارادتك ، وانما هى ربوبية '' تولت عبودية '' وكن عبدا مملوكا ، لا تقدر على شىء ، فمتى رأيت منك قدرة وكلتك اليها ، وأنا بكل شىء عليم ، فان صح لك هذا الباب ولزمته ـــ أشرفت من هناك على أسراره، لا تكاد تُسْمَعُ من أحدٍ من العالمين .

تعقيـــب

الوقوف بالمهمة على شىء دون الحق حرمان ، والاشتغال بطلب ما يقرب الى الله كرامة من الله ورضوان ، فاشتغال النفس بالطلب له مفتاح كل خيز .
وأبيات الششترى تشير الى التنبيه على عدم الوقوف مع المقامات والكرامات ، ففى ذلك كفر لحق المنعم ، وشكر النعم يكون بالاقبال على المنعم ، إذ إن المعروف لا يتناهى ، فالمعرفة به لا تتناهى فى الدار الآخرة ، فضلا عن الدار الدنيا .
فعلى المسلم أن يجد فى الطلب ، وأن يلتزم حسن الأدب .

الحكمة الحادية والعشرون

قال ابن عطاء الله :

" طَلَبُكَ مِنْهُ[1] ـــ اتِّهَامٌ لَهُ ، وَطَلَبُكَ لَهُ[2] غَيْبَةٌ مِنْكَ عَنْهُ ، وَطَلَبُكَ لِغَيْرِهِ[3] ـــ لِقِلَّةِ حَيَائِكَ مِنْهُ وَطَلَبُكَ مِنْ غَيْرِهِ[4] لِوُجُودِ بُعْدِكَ عَنْهُ "

قال ابن عباد :

الطلب الذى يتصور من العبد على أربعة أوجه ، وكلها مدخولة معلولة : طلبه من الله ، وطلبه له ، وطلبه لغيره ، وطلبه من غيره .

مما قاله " ابن عجيبة " فى ايقاظ الهمم فى شرح الحكم :

(١) طلبك منه : يكون بالتضرع والابتهال

(٢) طلبك له : يكون بالبحث والاستدلال

(٣) طلبك لغيره : يكون بالتعرف والاقبال

(٤) طلبك من غيره : يكون بالتملق والسؤال

وحاصلها أربعة : طلب الحق ومنه طلب الباطل ، وكلها مدخولة عند المحققين أما طلبك منه ـــ فلوجود تهمتك له ، لأنك انما طلبته مخافة أن يهملك ، أو يغفل عنك ، فانما ينبه من يجوز منه الاغفاء ، وانما يذكر من يمكن منه الاهمال .

" وما الله بغافل عما تعملون " (النمل ٩٣) ـــ " أليس الله بكاف عبده " (الزمر ٣٦) .

وقال ﷺ : يقول الله تعالى : " من شغله ذكرى عن مسألتى ـــ أعطيته أفضل ما أعطى السائلين "

وأما طلبك له ـــ فهو دليل على غيبتك عنه ، فلو حضر قلبك ، وغبت عن نفسك ووهمك ـــ لما وجدت غيره :

أراك تسأل عـــن نجد وأنت بها وعـــن تهامـــة هـــذا فعـــل متهم

وأما طلبك لغيره ـــ فلقلة حيائك منه ، وعدم أنسك به .

وأما طلبك من غيره ـــ فلوجود بعدك عنه ، اذ لو تحققت بقربه منك ، وهو كريم ـــ ما احتجت الى سؤال غيره ، وهو لئيم .

فطلبه من الله ـــ تهمة له ، اذ لو وثق به فى ايصال منافعه اليه من غير سؤال ـــ لما طلب منه شيئا .

وطلبه له ـــ غيبة عنه ، إذ الحاضر لا يطلب .

وطلبه لغيره ـــ قلة حياء منه ، اذ لو استحيا منه ـــ انقبض عما يكرهه له من طلبه لغيره ، ومن حق الحياء منه ـــ ألا يذكر معه غيره ، ولا يؤثر عليه سواه ، وطلبه من غيره ـــ لوجود بعده عنه ، اذ لو كان قريبا منه ـــ لكان غيره بعيدا عنه ، فلا يطلب منه .

فالطلب كله عند الموحدين العارفين معلول : سواء كان الطلب متعلقا بالحق أو بالخلق ، الا ما كان من الطلب على وجه التأدب والتعبد ، واتباع الأمر ، وإظهار الفاقة والفقر ، فحينئذ تزول العلة عنه .

تعقيـــب

طلبك من الله تعالى ـــ وأنت معتمد على الطلب ، معتقد أنه لولاه لما حصل مطلوبك ـــ اتهام له تعالى بأنه لا يرزقك الا بالطلب .

أما اذا كان الطلب على وجه التعبد ، امتثالا لقوله تعالى : " ادعونى استجب لكم " فلا يكون معلولا ، وبهذا يجمع بين طلب الدعاء ، والنهى عنه .

وكذلك طلبك له ، بأن تطلب قربك منه ، والوصول اليه بعملك ـــ غيبة منك عنه ، اذ الحاضر لا يطلب ، وهو تعالى أقرب اليك من حبل الوريد .

وكذلك طلبك لغيره ـــ من الأعراض الدنيوية أو المراتب الأخروية ـــ لقلة حيائك منه ؛ اذ لو استحييت منه ـــ لم تؤثر عليه سواه .

وكذلك طلبك من غيره ـــ غافلا فى حال الطلب عن مولاك ـــ انما يكون لوجود بعدك عنه ، اذ لوكان قريبا منك ـــ لكان غيره بعيدا عنك .

فالعارفون لا يرون غير الله تعالى ، فطلبهم ليس من المخلوق فى الحقيقة ، وان كان منه بحسب الظاهر .

الحكمة الثانية والعشرون

قال ابن عطاء الله :

« مَا مِنْ نَفَسٍ[1] تُبْدِيهِ[2] ـــ إِلاَّ وَلَهُ قَدَرٌ[3] فِيكَ يُمْضِيهِ »

قال ابن عباد :

الأنفاس أزمنة دقيقة ، تتعاقب على العبد ما دام حيا ، فكل نفس يبدو منه ظرف لقدر من أقدار الحق تعالى ، ينفذ فيه كائنا ما كان ، فاذا كانت جزيئات العبد ودقائقه قد استغرقتها أحكام الله تعالى وأقداره ، وكان جميع ذلك يقتضى منه حقوقا لازمة من حقوق الله تعالى ، يقوم بها ، وهو مطالب بذلك ، ومسئول عنه ، وعن أنفاسه التى هى أمانة للحق عنده ـــ لم يبق له اذا ذاك مجال لتدبير أمور دنياه ، ولا محل لمتابعة شهوته وهواه .

تعقيـــب

تشير الحكمة الى ضرورة التسليم بكل ما يجرى به القدر والقضاء ، فاذا علمت أيها الانسان أن أنفاسك ، قد عمها القدر ، ولا يصدر منك ولا من غيرك الا ما سبق به علمه ، وجرى به قلمه ـــ لزمك أن ترضى بكل ما يجرى به القضاء ،

---

(١) النفس : بفتح الفاء : جزء من الهواء يخرج من باطن البدن فى جزء من الزمن

(٢) تبديه : تظهره بقدرة الله تعالى .

(٣) القدر : هو العلم السابق للأشياء قبل أن تظهر ، وهو علم أوقاتها وأماكنها ومقاديرها وعدد أفرادها ، وما يعرض لها من الكيفيات ، وما ينزل بها من الآفات .

قدر : أمر مقدر ، ناشىء عن قدرته تعالى .

يمضيه : أى ينفذه كائنا ما كان .

واذا كانت الانفاس معدودة ، فما بالك بالخطوات والخطرات ، وغير ذلك من سائر التصرفات . ولله در القائل :

مشيناها خطـا كتـبت علينـا ومن كتبت عليه خطا مشاها
ومـن كانت منيتـه بـأرض فليس يموت فى أرض سواها

الحكمة الرابعة والعشرون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ تَسْتَغْرِبْ[1] وُقُوعَ الأَكْدَارِ[2] ، مَادُمْتَ فِى هَذِهِ الدَّارِ ، فَإِنَّها مَا أَبْرَزَتْ إِلّا مَا هُوَ مُسْتَحِقُّ وَصْفِهَا[3] ، وَواجِبُ نَعْتِها[4] » .

قال ابن عباد :

جعل الله تعالى الدنيا دار فتنة وابتلاء ، ليعمل كل أحد فيها على مقتضى ما سبق له ، ويوفى جزاءه فى الدار الآخرة ، قال الله تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة[5] . وعمل كل واحد فيها انما هو مخالفة شهوات نفسه ، أو موافقتها ، وذلك لا محالة ، يستدعى وجود محبوب ، أو مكروه ، بفعل أو بترك ، فمن ضروريات الدنيا وجدان المكاره ، والمشاق فيها ، فتقع الأكدار ، بسبب ذلك أيضا ، فحاصل الدنيا أمور وهمية ، انقادت طباع الناس اليها ، وهى لا تفى بجميع مطالبهم ، لضيقها وقلتها وسرعة تقضيها وتفلتها ، فتجاذبوها بينهم ، فتكدر عيشهم ، ولم يحصلوا على كلية أغراضهم ، كما قيل فى المعنى .

---

(١) الاستغراب : تصيير الشيء غريبا ، حتى يتعجب منه .
لا تستغرب وقوع الأكدار : لا تعد وقوع الأكدار أمرا غريبا .

(٢) الاكدار : كل ما يكدر النفس ويؤلمها .
ما دمت فى هذه الدار : مدة كونك فى هذا الدار .
ما ابرزت : ما أظهرت .

(٣) مستحق وصفها : ما تستحق أن توصف به .

(٤) واجب نعتها : ما يجب أن تنعت به .

(٥) من آية ٣٥ من سور الأنبياء .

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجُوَّعَ
أراها وإن كانت تُحَبُّ كأنها سحابةُ صيف عن قريب تقشَّعُ

فلا يستغرب وقوع امثال هذا ، فانه ما ظهر منها الا ما هو مستحق وصفها ، وواجب نعتها ، من وجدان المكاره التى هى ذاتية لها .

قال بعض الحكماء : لولا أن الدنيا مبنية على المكاره ــ لجعلت منفعة .

وسيأتى التنبيه على الحكمة فى هذا عند قوله : انما جعلها محلا للأغيار ، ومعدنا لوجود الأكدار ، تزهيدا لك فيها .

وفى بعض الحكايات المنقولة عن جعفر الصادق رضى الله عنه [1] ، أنه قال : من طلب ما لم يُخْلَق أتعب نفسه ، ولم يُرْزَقْ ، فقيل له : وماذاك ؟ قال : الراحة فى الدنيا ، وفى معناه أنشدوا :

تطلب الراحة فى دار العنا خاب من يطلب شيئا لا يكون

وقال بعض البلغاء : ملتمس السلامة ــ فى دار المتالف والمعاطب ــ كالمتمرغ على مزاحف الحيات ، ومدابّ العقارب .

وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه [2] : الدنيا كلها غموم ، فما كان منها فى سرور فهو رِبْحٌ .

وقال الامام الجنيد رضى الله تعالى عنه : لست أستبشع ما يرد على من العالم ؛ لأنى قد أصَّلْتُ أصلاً ، وهو أن الدنيا دار هم وغم وبلاء وفتنة ، وأن العالم كله شر ومن حُكْمِه أن يتلقانى بكل ما أكره ، فان تلقانى بكل ما أحب فهو فضل ، والا فالأصل هو الأول .

---

(١) جعفر الصادق : هو أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر زين العابدين بن الحسين الهاشمى القرشى سادس الأئمة الاثنى عشر عند الامامية . كان من أجلاء التابعين وله منزلة رفيعة فى العلم ، أخذ عنه جماعة منهم : أبو حنيفة ، ومالك . ولد بالمدينة المنورة سنة ٨٠ هـ ٦٩٩ م وتوفى بها سنة ١٤٨ هـ ــ ٧٦٥ م (انظروفيات الأعيان ، والاعلام للزركلى)

(٢) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهزلى : من أكابر الصحابة : علما وعقلا وقربا من رسول الله ﷺ وهو من السابقين الى الاسلام ، وكان خادم رسول الله ﷺ ، ورفيقه فى حله وترحاله وغزواته . كان عمر رضى الله عنه يقول عنه : انه وعاء ملىء علمًا . توفى بالمدينة المنورة فى خلافة عثمان رضى الله عنه ، عن نحو ستين عاما (الاعلام للزركلى)

وقال أبو تراب رضى الله تعالى عنه : ياأيها الناس : أنتم تحبون ثلاثة أشياء ، وليس هى لكم ـــ تحبون النفس ، وهى لهواها ، وتحبون الروح ، والروح لله ، وتحبون المال ، والمال للورثة .

وتطلبون اثنين ـــ ولا تجدونهما : الراحة والفرح ، وهما فى الجنة .

فالواجب على العبد : ألا يوطن على الراحة فى الدنيا نفسا ، ولا يركن فيها الى ما يقتضي فرحا وأنسا ، وأن يعمل على قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : « الدنيا سجن المؤمن[1] » .

فتوطين العبد على المحن فى دنياه ـــ يهون عليه ما يلقاه ويجد السلوان عند فقدان ما يهواه ، كما قيل فى المعنى :

يمثل ذو اللب فى لبه ... شدائده قبل أن تنزلا
فان نزلت بغتة لم ترعه ... لما كان فى نفسه مُثِّلا
رأى الأمر يُفْضى الى آخرٍ ... فَصَيَّر آخره أولا
وذو الجهل يأمن أيامه ... وينسى مصارع من قد خلا
فإن دهمته صروف الزمان ... ببعض مصائبه اعولا
ولو قدم الحزم فى نفسه ... لعلَّمه الصبر عند البلا

فليتق المريد ما يَردُ عليه من ذلك بالصبر والرضا والاستسلام عند جريان القضاء ، فعن قريب إن شاء الله ـــ ينجلى الأمر ، ويستوجب من الله تعالى جزيل الأجر ، والله تعالى ولى التوفيق .

قال أحمد بن أبى الحوارى رضى الله تعالى عنه : قال لى أبو سليمان الدارانى : جوع قليل ، وعرى قليل ، وذل قليل ، وصبر قليل ، وقد انقضت عنك أيام الدنيا . وأعلم أن ما ذكرناه من الصبر هو جماع كل فضيلة ، وملاك كل فائدة جزيلة ، ومكرمة نبيلة . قال الله تعالى : '' وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ''[2] .

---

(١) '' الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر '' رواه الامام احمد ، ومسلم والترمذى وابن ماجة عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) من آية ١٣٧ من سورة الأعراف .

وقال تعالى : '' وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ''[1]

وقال عز من قائل : '' إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ''[2]

وفى وصية رسول الله ﷺ ، لابن عباس رضى الله عنهما : '' إن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين ــ فافعل ، وان لم تستطع ــ فاصبر ، فان فى الصبر على ما تكرهه خيرا كثيرا ''

واعلم أن النصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، واليسر مع العسر . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ــ لرجل : إن صبرت مضى أمر الله ، وكنت مأجورا ، وإن جزعت قضى أمر الله ، وكنت مأزورا .

وقال على رضى الله عنه : الصبر مطية لا تكبو ، وسيف لا ينبو .
وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أفضل العدة الصبر عند الشدة .
وفى بعض الأخبار : انتظار الفرج بالصبر عبادة .
وقد قال الشاعر :

ان الامور اذا انسدت مسالكها فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
لا تيأسن وان طالت مطالبة اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

فمن جعل الصبر معتمده فى نوازله ، واعتده من أعظم عدده ، ووسائله ــ فهو مصيب فى رأيه ، منجح فى سعيه ، ومن جزع من المصائب واضطرب عند وقوع النوائب ــ كان عاملا فيما يزيده ضرا ، ويكسبه وزرا ، ويفوته أجرا ، وناهيك به خسرا ، كما قيل :

واذا تصبك مصيبة فاصبر لها عَظُمَتْ مصيبة مبتلى لا يصبر[3]

---

(١) من آية ٢٤ من سورة السجدة .
(٢) من آية ١٠ من سورة الزمر .
(٣) صحة البيت :
واذا أتتك مصيبة فاصبر لها عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر
وذلك لأن '' اذا '' من أدوات الشرط غير الجازمة .
وقد جاءت هذه الرواية فى شرح الحكم للشيخ محمد بن مصطفى بن أبى العلا .

وكما قيل أيضا :

وعوضت أجرًا من فقيد فلا تكن   فقيدك لا يأتى وأجرك يذهب

تعقيب

من ضروريات الحياة الدنيا — وجود المكاره والمشاق فيها ، لأن الله تعالى — جعلها محلا للأغيار ، وموطنا لوقوع الأكدار ؛ تزهيدا فيها ، وقد أشار الى هذا المعنى الامام جعفر الصادق فيما نقل عنه ، وكذلك ابن مسعود ، رضى الله عنهما وقد سبق ذلك .

ولذا سميت " الدنيا " ووصفت بالدناءة والخساسة ، والدنو ، فعمرها قصير ، ومتاعها قليل ، وآفاتها غزيرة ، ومن وطن نفسه على ذلك — وجد الراحة ، وكان دهره كله عافية ، ومن نظر الى غير ذلك — أتعب نفسه ، ونغص حياته ، وكلف الأيام ضد طباعها ، كما قال الشاعر أبو الحسن التهامى :

طبعت على كدر وأنت تريدها   صفوا من الأقذار والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها   متطلب فى الماء جذوة نار

الحكمة الخامسة والعشرون

قال ابن عطاء الله :

" مَاَ تَوَقَّف [1] مَطْلَبٌ[2] أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ[3] ، وَلاَ تَيَسَّرَ[4] مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ[5]

قال ابن عباد :

من أنزل حوائجه بالله تعالى ، والتجأ إليه ، وتوكل فى أمره كله عليه — كفاه كل مؤنة[6] وقرب عليه كل بعيد ، ويسر عليه كل عسير ، ومن سكن الى علمه وعقله ، واعتمد على قوته وحوله — وكله الله الى نفسه ، وخذله ، وحرمه توفيقه ، وأهمله ، فلم تنجح مطالبه ، و لم تتيسر مآربه ، وهذا معلوم على القطع من نصوص الشريعة ، وانواع التجارب . قلت : وكلام المؤلف رحمه الله تعالى فى هذه المسأله عام : يتناول كل مطلب من المطالب الدينية والدنيوية ، التى مآل أمرها الى الدين ، وأشرف تلك المطالب ، وأكثرها قواطع ، ومعاطب — أخذ المريد فى سلوك سبيل التوحيد ، ففيه التعلق بالله تعالى أحق وأصوب ، وفى جميع جزئياته ، فالرجوع الى الله تعالى — أولى وأوجب .

---

(١) التوقف : الحبس والتعذر ، وتوقف : تعسر .

(٢) المطلب : ما يطلب قضاؤه ، والمراد مطلب من مطالب الدنيا والآخرة

(٣) أنت طالبه بربك : أى بالاعتماد عليه ، والتوسل اليه .

(٤) التيسير : التسهيل .

(٥) أنت طالبه بنفسك : أى وأنت معتمد على حولك وقوتك ، غافل عن الله .

(٦) المؤنة : والمؤونة : القوت . وما يدخر منه ، والجمع : مؤن ومؤونات .

فلا جرم كان من الرأى السديد ، والامر الآكيد أن يخصصه من ذلك العام ، وأن يفرده عقيب هذه المسأله بمزيد من الكلام فلذلك قال :

تعقيـــب

العاقل لا يعتمد على حوله وقوته ، غافلا عن الله ؛ حتى لا تتعسر مطالبه ، فاذا عَرَضَتْ لك حاجة من حوائج الدنيا والآخرة ، وأردت أن تُقْضَى لك سريعا ـــ فاطلبها بالله ، ولا تطلبها بنفسك ، فانك اذا طلبتها بالله ـــ تيسر قضاؤها ، وإن طلبتها بنفسك ـــ صعب قضاؤها .

قال تعالى " ومن يتوكل على الله فهو حسبه "[1] أى كافيه كل ما أهمه . وقال تعالى : "قال موسى لقومه استعينوا بالله وأصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين"[2] فكل من استعان بالله ، فصبر فى طلب حاجته ـــ كانت العاقبة له ، وكان من المتقين .

---

(١) من آية ٣ من سورة الطلاق .

(٢) آية ١٣٨ من سورة الاعراف .

الحكمة السادسة والعشرون

قال ابن عطاء الله :

« مِنْ عَلاَمَاتِ[1] النُّجحِ فِي النِّهايَاتِ[2] ــ الرُّجُوعُ الَى اللهِ [3] تَعَالَى فِي الْبِدَايَاتِ[4] ».

قال ابن عباد :

للمريد بداية ونهاية ، فبدايته حال سلوكه ونهايته حال وصوله ، فمن صحح بدايته بالرجوع الى الله تعالى ، والتوكل عليه ، والاستعانة به ، كما ذكرنا ــ أفلح وأنجح فى نهايته ، وكان وصوله الى الله تعالى ، فأمن عليه من الرجوع والانقطاع .

قال بعض المشايخ : ما رجع من رجع الا من الطريق ، ولو وصلوا ما رجعوا ، ومن لم يصحح ذلك بما ذكرناه من تعلقه بالحق ، وفراره اليه من نفسه والخلق ــ انقطع ورجع من حيث جاء .

قال بعض العلماء : من ظن انه يصل الى الله تعالى بغير الله ــ قطع به ، ومن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه ــ وكل الى نفسه .

فعلى العبد السالك أن يجعل معتمد أمره ــ الاستعانة بالله تعالى على ما هو بسبيله ، ولا يرى حول نفسه ولا قوتها فى كثير من عمله ــ ولا قليله ــ فهذا هو أساس السلوك الذى ينبى عليه قواعده .

---

(١) النجح : بضم النون ، أى : الظفر بالمقصود .
(٢) النهايات : جمع نهاية ، ونهاية الشىء : تمامه .
(٣) الرجوع الى الله : أى : بالتوكل عليه ، والاستعانة به .
(٤) البدايات : جمع بداية ، وبداية كل شىء : أوله .

تعقيـــب

هذه الحكمة تخصيص للحكمة السابقة ، وتتميم لمعناها ، وشرح لها ، فمن صحح بدايته — بالرجوع الى الله تعالى ، والتوكل عليه فى جميع أموره — نجح فى حياته ، ووصل الى مطلوبه . ومن لم يصحح بدايته — انقطع عن الوصول ، ولم يبلغ فى نهاية أمره — المأمول .

فاذا توجهت همتك أيها المريد — الى طلب شىء ما ، وأردت أن ينجح مسعاك — فارجع الى الله فى بداية طلبك ، وانسلخ من حولك وقوتك ، وقل كما قال ﷺ : " إن يكن من عند الله يمضه "

فلا تحرص عليه ، ولا تهتم بشأنه ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلو اجتمعت الانس والجن على أن ينفعوك بشىء ، ولم يقدره الله لك ، لم يقدروا على ذلك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء ، لم يقدره الله عليك ، لم يقدروا على ذلك .

" جفت الأقلام ، وطويت الصحف " كما جاء فى الحديث .

الحكمة السابعة والعشرون

قال ابن عطاء الله :

« مَنْ أَشْرَقَتْ بِدَايَتُه[1] ـــ أَشْرَقَتْ نِهَايَتُهُ[2] »

قال ابن عباد :

ـ هذه عبارة أخرى موافقة لمعنى ما تقدم ، فاشراق بداية المريد ، برجوعه الى الله تعالى فى مهماته ، وثقته به فى ملماته ، وإشراق نهايته ـــ الوصول الى قربته ، والحصول فى حضرته .

تعقيـــب

نعم من أشرقت بدايته ـــ أشرقت نهايته ، ومن كان قليل الاجتهاد فى بدايته ـــ لم يحصل له إشراق فى نهايته ؛ ذلك أن الإمداد بالأنوار والمعارف فى النهاية ـــ يكون على قدر الاجتهاد فى البداية ، فمن جد وجد ، ومن زرع حصد ، ولكل مجتهد نصيب وبقدر المجاهدة تكون المشاهدة .

قال تعالى : " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين "[3]

وقال تعالى : " ان رحمة الله قريب من المحسنين "[4]

---

(١) أشرقت بدايته : أى عمر أوقاته بأنواع الطاعات والأوراد ، وثابر على ذلك كل المثابرة .

(٢) أشرقت نهايته : أى باضافة الأنوار والمعارف عليه ، وزوال كدرات النفس ، الحائلة بينه وبين مولاه ، على وجه أتم ، حتى يظفر بالمراد .

(٣) آية ٦٩ من سورة العنكبوت .

(٤) من آية ٥٦ من سورة الاعراف .

الحكمة الثامنة والعشرون

قال ابن عطاء الله :

" مَا اسْتُودِعَ فِي غَيْبِ السَّرائِرِ ـ ظَهَرَ فِي شَهَادةِ الظَّواهِرِ "

قال ابن عباد :

هذا بيان علامة يعرف بها حال المريد السالك ، وما تعمر به باطنه من المزيد المتدارك ، لأن الظاهر مرآة الباطن ، كما قيل : الاسرة تدل على السريرة ، وما خامر القلوب فعلى الوجوه يلوح أثره ، فما استودعه الله القلوب والاسرار من المعارف والأنوار لابد وأن تظهر آثار ذلك على الجوارح ، فيستدل بشاهد العبد على غائبه ـ من أراد صحبته والوصلة به ، وما أشبه هذا من الأغراض والمقاصد .

قال أبو حفص رضى الله تعالى عنه : حسن أدب الظاهر ـ عنوان حسن أدب الباطن . فان النبى ﷺ ـ قال : " لو خشع قلب هذا ـ خشعت جوارحه " .

وقيل لما ورد أبو حفص العراق ـ جاء اليه الجنيد ، فرأى أصحاب أبى حفص وقوفا على رأسه ، يأتمرون بأمره ، لا يخطىء أحد منهم . فقال يا أبا حفص : أدبت أصحابك أدب الملوك ، فقال : لا يا أبا القاسم ، ولكن حسن الأدب فى الظاهر ـ عنوان أدب الباطن . قلت : وآكد من ذلك ـ أن يعرف المريد نفسه . ويكون من أمرها على بصيرة ولا ينخدع بما يتوهمه من صلاح سريرته دون علانيته ، فمن ادعى بقلبه معرفة الله تعالى ومحبته ، ولم تظهر على ظاهره ثمرات ذلك ، وآثاره من اللهج بذكره ، والمسارعة الى اتباع أمره ، والاغتباط بوجوده ، والاستبشار عند يقين شهوده ، والفرار من القواطع الشاغلة عنه ، والاضراب عن الوسائط المبعدة منه ـ فهو كذاب فى دعواه ، متخذ آلهه هواه . فان كان موصوفا بأضداد هذه الخصال ،

منحرفا بظاهره عن جادة الاعتدال ـــ فهو فى دعواه أكذب ، وحاله للنفاق ، والشرك أقرب .

قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه : قد جعل الله وصف الكافرين أنهم اذا ذكر الله وحده فى شىء ـــ انقبضت قلوبهم ، واذا ذكر غيره فى شىء ـــ فرحوا . وجعل من نعوتهم أنهم اذا ذكر الله تعالى بتوحيده وافراده بشىء ـــ غمطوا ذلك[1] ، وكرهوه . واذا أشرك غيره فى ذلك ـــ صدقوا به .

فقال تعالى : " واذا ذُكِرَ الله وحَده اشمأزَّتْ قلوبُ[2] الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون[3] "

وقال أيضا : " ذلكم بأنه اذا دُعِيَ الله وحده كفرتم وان يُشْرَكْ به تؤمنوا[4] .

والكَفْرُ : التغطية ، والشرك : الخلط ، أى: إنه يخلط بذكره ذكر سواه ، ثم قال : « فالحكم لله العلى الكبير »[5] يعنى لا يشركه خلق فى حكمه ، لأنه العلى فى عظمته الكبير فى سلطانه ، لا شريك له فى ملكه وعطائه ، ولا نظير له فى عباده . ففى دليل هذا الكلام وفهمه من الخطاب ـــ أن المؤمنين اذا ذكر الله بالتوحيد ، والافرّاد فى شىء انشرحت صدورهم ، واتسعت قلوبهم ، واستبشروا بذكره وتوحيده ، واذا ذكرت الوسائط والأسباب التى دونه ـــ كرهوا ذلك ، واشمأزت قلوبهم . وهذه علامة صحيحه ، فاعرفها من قلبك ، ومن قلب غيرك ، لتستدل بها على حقيقة التوحيد فى القلب أو وجود خفى الشرك فى السر ، إن كنت عارفا أ هـ .

قلت : وهذه المسأله التى تضمنها كلام الشيخ أبو طالب رضى الله عنه ـــ من أعظم المسائل على صدق الصادق ـــ وكذب الكاذب ، ومن أوضح الدلائل .

---

(١) غمطوا ذلك : أنكروه

(٢) اشمأزت قلوبهم : ضاقت ونفرت وانقضت عن التوحيد .

(٣) آية ٤٥ من سورة الزمر .

(٤) آية ١٢ من سورة غافر .

(٥) من آية ١٢ من سورة غافر .

ولما كان قصدنا فى هذا التنبيه ــ استغنام ذكر الفوائد العجيبة ، والحرص على رسم المقاصد الغريبة ، لغربة الدين فى هذا الزمان الرذل[1] ، واستيلاء الغرة ، والجهل على المنسوبين إلى العلم والفضل ــ حسن منا ايراد هذه الكلمات على جهة ضرب المثل ، والاكتفاء بالنهْل عن العلَل[2] ، ليعمل بمقتضى ذلك مريد سالك ، ولينتهج من مناصحة ربه في دينه وقلبه ــ أوضح المسالك . وأجمل على هذا الأسلوب كل كلام لم تظهر لك مطابقته ، ولم يتم فى نظرك مناسبته ؛ لتسلم بذلك من الاعتراض ، وتعلو همتك عما تولع به أصحاب القلوب المراض ، عافانا الله من ذلك بمنه وفضله .

تعقيــــب

أعمال الجوارح تابعة لأحوال القلوب ، وأحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن ، فمن طابت سريرته ــ حمدت سيرته ، وما فى القلب يظهر على الجوارح ؛ لأن الظاهر مرآة الباطن :

ومهما تكن عنْد أمرىء من خليقة   وان خالَها تخفى على الناس تعلم

دلائل الحب لا تخفى على أحد   كحامل المسك لا يخفى اذا عبقا

قال تعالى : « تعرفهم بسيماهم »[3]

وقال تعالى : « سيماهم فى وجوههم »[4]

وقال ﷺ : « من سر سريرة كساه الله رداءها »

---

(١) الزمان الرذل : أى الردىء .

(٢) النهل : الشرب الأول ، العلَل : الشرب الثانى : يقال : شرب عللاً بعد نَهَل

(٣) من آية ٢٧٣ من سورة البقرة .

(٤) من آية ٢٩ من سورة الفتح .

الحكمة التاسعة والعشرون

قال ابن عطاء الله :

« شَتَّان[١] بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ[٢] بِهِ ، أَوْ يِسْتَدِلُّ عَلَيْهِ[٣]: المُسْتَدِلُّ بِهِ عَرَفَ الْحَقَّ لأَهْلِهِ[٤] ، فَأَثْبَتَ الأَمْرَ[٥] مِنْ وُجُودِ أَصْلِهِ ، والا سْتِدْلاَلُ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، وَالاَّ فَمَتَى غَابَ[٦] حَتَّى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ[٧] ؟ وَمَتى بَعُدَ حَتَّى تَكُونَ الآثَارُ هِيَ الَّتى تُوَصِّلُ إِلَيْهِ[٨] » ؟

قال ابن عباد :

بنو آدم فى أول نشأتهم ، ومبدأ خلقتهم ، وخروجهم من بطون أمهاتهم — موسومون بالجهل ، وعدم العلم ، قال الله تعالى : « والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا »[٩] ، ثم ان الله تعالى اختص بعضهم بخصوصية عنايته واختارهم من أهل ولايته ، وماذاك الا لحصول العلم الذى تضمنه قوله تعالى :

---

(١) شتان : اسم فعل ماض ، بمعنى بعد وافترق ولا تكون الا فى افتراق المعانى دون الحسيات .

(٢) يستدل به : أى يستدل به تعالى على المخلوقات . أو : بمعنى الواو .

(٣) يستدل عليه : أى يستدل عليه تعالى بالمخلوقات .

(٤) عرف الحق : وهو الوجود الذاتى . لأهله : وهو الله تعالى .

(٥) فأثبت الأمر : أى وجود الحوادث . من وجود أصله : وهو الله تعالى : أى جعل وجودهم مستمدًا من وجوده ، اذ لولا ايجاده لهم — لما وجدوا .

(٦) والا فمتى غاب : أى الحق سبحانه وتعالى .

(٧) حتى يستدل عليه : أى بالمخلوقات : أى يستدل بمخلوقاته عليه .

(٨) الآثار هى التى توصل اليه : أى الآثار الناشئة عن قدرته هى التى توصل اليه .

(٩) « والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا . وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون » آية ٧٨ من سورة النحل .

وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » الذى يحقق لهم النسبة ، ويوجب لهم الزلفى والقربة المشار الى ذلك بقوله تعالى « لعلكم تشكرون » وجعلهم على قسمين : مرادين ومريدين ، وان شئت قلت : مجذوبين وسالكين . وكلاهما مراد ومجذوب على التحقيق .

قال الله تعالى : « الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب »[1] فالمريدون السالكون الى الله تعالى فى حال سلوكهم ـــ محجوبون عن ربهم برؤية الأغيار والآثار ، والأكوان ظاهرة لهم ، وموجودة لديهم ، والحق تعالى غيب عنهم ، فلم يروه ، فهم يستدلون بها عليه ، فى حال ترقيهم .

والمرادون المجذوبون ـــ واجههم الحق تعالى بوجهه الكريم الأكرم ، وتعرف اليهم ، فعرفوه به ، فلما عرفوه على هذا الوجه ، انحجبت الأغيار عنهم ، فلم يروها ، فهم يستدلون به عليها فى حال تدليهم .

فهذا هو حال الفريقين ، وشتان ما بينهما ، أى بعد ما بينهما ، وذلك أن المستدل به على غيره ـــ عرف الحق الذى هو الوجود الواجب لأهله ، وهو المختص بوصف القدم ، وأثبت الأمر المشار به الى الآثار العدمية ، من وجود أصله المشار به الى المؤثر ، المحقق وجوده ، والمستدل بغيره عليه ، على عكس ما ذكرناه ، لأنه استدل بالمجهول على المعلوم ، وبالمعدوم على الموجود ، وبالأمر الخفى على الظاهر الجلى ، وذلك لوجود الحجاب ، ووقوفه مع الأسباب ، وعدم احتظائه بالوصول والإقراب . والا فمتى غاب ، حتى يستدل عليه بالأشياء الحاضرة ؟ ومتى بعد ؛ حتى تكون الآثار القريبة هى التى توصل اليه ؟ أو فقد ؛ حتى تكون الآثار الموجودة هى التى تدل عليه ؟ وأنشد .

عجبت لمن يبغى عليك شهادة وأنت الذى أشهدته كل مشهد

قال فى لطائف[2] المنن : واعلم أن الأدلة انما تنصب لمن يطلب الحق ، لا لمن يشهده ، لأن الشاهد غنى بوضوح الشهود عن أن يحتاج الى دليل ، فتكون المعرفة

---

(١) من آية ١٣ من سورة الشورى .

(٢) أى قال ابن عباد نقلا عن لطائف المنن .

باعتبار توصيل الوسائل إليها ــ كسبية ، ثم تعود ــ الى نهايتها ــ ضرورية .

وإذا كان من الكائنات ما هو غنى بوضوحه عن اقامة دليل ــ فالمكون أولى بغناءه عن الدليل منها ، ثم قال : ومن أعجب العجب ــ أن تكون الكائنات موصلة اليه . فليت شعرى : هل لها وجود معه ، حتى توصل اليه ؟

أو هل لها من الوضوح ما ليس له ، حتى تكون هى المظهرة له ؟

وان كانت الكائنات موصلة اليه ــ فليس لها ذلك من حيث ذاتها ، لكن هو الذى ولاّها رتبة التوصل ، فوصّلت ، فما وصل اليه غير الهيته ، ولكن الحكيم ــ هو واضع الأسباب ، وهى لمن وقف عندها ، ولم تنفذ قدرته عين الحجاب .

تعقيـــب .

الحق سبحانه وتعالى قسم الخلق قسمين : قسما اختصهم بمحبته ، وجعلهم من أهل ولا يته ، ففتح لهم الباب ، وكشف لهم الحجاب .

وقسما أقامهم لخدمته ، وجعلهم من أهل حكمته ، فوقفوا مع ظواهر القشور ولم يشهدوا بواطن النور ، مع شده الظهور .

فأما أهل المحبة : فهم يستدلون بالنور على وجود الستور ، وبالحق على وجود الخلق ، وأما أهل خدمته : فهم يستدلون بظهور الستور على وجود النور ، وبالخلق على وجود الحق .

أما من يستدل عليه ــ فلبعده عنه فى حال قربه منه ، والا فمتى غاب حتى يستدل عليه اذ هو أقرب اليك من حبل الوريد ، ومتى بعد حتى تكون الآثار الوهمية هى التى توصل إليه « وهو معكم أينما كنتم » والله بما تعملون بصير[1]

---

(١) مما قاله « ابن عجيبة » فى ايقاظ الهمم فى شرح الحكم صفحات ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ والآيه من سورة الحديد / ٤ .

الحكمة الثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ[1] : الْوَاصِلُون إِلَيْه ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ[2] : السَّائِرُون إِلَيْهِ » .

قال ابن عباد :

هذه إشارة مليحة الى حال الفريقين : فالواصلون الى الله تعالى — لما خرجوا من سجن الأغيار الى فضاء التوحيد ، وكمال الاستبصار ، اتسعت مسافة نظرهم ؛ فأنفقوا من سعتهم ، وتصرفوا فى عوالمهم ، كيف شاءوا .

والسالكون اليه — مقدور عليهم فى أرزاق العلوم والفهوم ، محبوسون فى مضيق الخيالات والرسوم ، ينفقون مما آتاهم الله من الرزق المعلوم المقدر المضيق .

تعقيـــب

العارفون : وسعت عليهم أرزاقهم من العلوم والمعارف ، فأنفقوا على مقدار ما وصل اليهم .

والسالكون : ضيقت عليهم أرزاق العلوم ، فأنفقوا على قدر ما عندهم . وهذا التفسير الصوفى للآية الكريمة : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا »[1]

---

(١) السعة : الغنى .

(٢) قدر عليه : ضيق عليه .

(٣) آية ٧ من سورة الطلاق .

هذا التفسير الصوفى — لا يرفع الحكم الأصلى — للآية الكريمة — وهو أنها نزلت فى نفقة الزوجات ، فالتفسير الصوفى له اشارات ، وهذه الاشارات — لا تنفى تفسير الآيه الكريمة حسب مقتضى اللغة وأسباب النزول ، وعلى ذلك فلا وجه لمن يحاولون انتقاد التفسير الصوفى ، فما هو الا بيان لخصوبة التعبير القرآنى ، دون أن يكون فيه تعطيل لمعنى شرعى[1] .

---

(١) من شرح العارف بالله الشيخ « زروق » تحقيق العارف بالله الشيخ « عبد الحليم محمود »

الحكمة الحادية والثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« اهْتَدَى الرَّاحِلُون إِلَيْه بأَنوار التَّوَجُّهِ ، وَالْوَاصِلُونَ لَهُمْ أَنْوار الْمُواَجَهَةِ : فَالْأَوَّلُون لِلأَنْوَارِ ، وَهَؤُلاَءِ الأنوارَ لَهُمْ ؛ لأَنَّهُمْ لله ، لاَ لِشَىءٍ دُونَهُ : (قُلِ الله ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ »[1] .

قال ابن عباد :

أنوار التوجه ــ هو ما صدر منهم الى الله تعالى من عبادات ومعاملات ، ومكابدات ومجاهدات ، وأنوار المواجهة ــ هو ما صدر من الله لهم من تعرف وتقرب وتودد وتحبب . فالأولون عبيد الأنوار ، لوجود حاجتهم اليها فى الوصول الى مقصودهم ، والآخرون الأنوار لهم لوجود غناهم عنها بربهم ، فهم لله لا لشىء دونه ، وسيأتى هذا المعنى عند قوله : « أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فاذا شهدته كانت الأكوان معك » ، قال الله تعالى : « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ».

إفراد التوحيد بعدم ملاحظة الأغيار ــ هو حق اليقين ، ورؤية ما سوى الله ــ خوض ولعب ، وهما من صفات الكاذبين والمنافقين .

قال الله عز وجل إخبارا عنهم : « وكنا نخوض مع الخائضين »[2] .

وقال الله تعالى : « بل هم فى شك يلعبون »[3] .

---

(١) الانعام / ٩١

(٢) آية ٤٥ من سورة المدثر .

(٣) آية ٩ من سورة الدخان .

تعقيب

المريد ما دام فى السير — فهو يهتدى بأنوار التوجه ، مفتقرًا اليها ، لسيره بها ، فاذا وصل الى مقام المشاهدة — حصلت له أنوار المواجهة ، فلم يفتقر الى شىء ، لأنه لله ، لا لشىء دونه .

والآية الكريمة « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » جاءت على طريق أهل الاشارة ، فهى تجمع حقائقهم على وجه الاستدلال لمقاصدهم .

فالتقدير : حسبى الله ، أى اكتفيت به عن كل شىء سواه .

ومعنى « ذرهم فى خوضهم يلعبون » أى اتركهم يتشاغلون بكل شىء لا حقيقة له ؛ لأن اللعب هو التشاغل بما لا حقيقة له ، والوجود كله كذلك من حيث التحقيق[1]

---

(١) من شرح الشيخ " زروق " تحقيق الشيخ " عبد الحليم محمود " .

الحكمة الثانية والثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« تَشَوُّفُكَ[1] إِلَى مَا بَطَنَ فِيكَ[2] مِنَ الْعُيُوبِ ـ خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ إِلَى مَا حُجِبَ[3] عَنْكَ مِنَ الْغُيُوبِ » .

قال ابن عباد :

حكم المريد أن يتشوف الى معرفة ما غاب عنه من معايب نفسه ، ويتطلبها ، ويبحث عنها ؛ فان ذلك هو حق الحق تعالى منه ، فينبغي أن يحرص عليه ، ويصرف فيها عنان اعتنائه اليه ، ليحصل له صفاء أعماله من الآفات ، ونقاء أحواله من الكدورات ، وينتفي عنه الجهل والغرور ، وتنقطع من باطنه مواد الشرور .

وقد ذكر الشيخ أبو حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه فى كتابه « رياضة النفس » فصلا فى الطريق الذى به يتعرف الانسان عيوب نفسه ، فلينظر فيه المريد . وقد جعل حاصله أربعة أوجه : أحدها أن يجلس بين يدى شيخ بصير بالعيوب والآفات ، فيحكمه فى نفسه ، ويتابع اشاراته فيما يشير به عليه .

والثانى مصاحبة صديق صدوق ، يجعله رقيبا على أحواله وأعماله ، لينبهه على ما يخفى عليه من مذام خلاله .

والثالث أن يستفيد معرفة عيوبه من أعدائه ، إذ لا بد من جريان ذلك على ألسنتهم عند تلبسهم وغيبتهم .

---

(١) التشوف الى الشيء : الاهتمام به ، والتطلع اليه . وتشوفك : أى تطلعك بعين البصيرة .

(٢) ما بطن فيك من العيوب : أى ماخفى فيك من العيوب ، كالكبر ، والحقد والعجب والرياء .

(٣) ما حجب عنك من العيوب : أى ماغاب عنك كالأسرار الالهية ، والكرامات الكونية .

والرابع أن يستفيد ذلك من مخالطة الناس ، اذ يطلع بذلك على مساويهم ، فإذا اطلع عليها منهم — علم أنه لا ينفعك هو عن شيء منها ؛ لأن الطباع البشرية فى ذلك متقاربة ، وقد يظهر له فى نفسه ما هو أعظم مما يراه فى غيره ، فيطالب نفسه حينئذ بالتطهر منها ، والتنزه عنها ، فهذا تلخيص ما ذكره ، ثم قال : وهذه كلها حيل من فقد شيخا عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس ، مشفقا ناصحا فى الدين ، فارغا من تهذيب نفسه ، مشغولا بتهذيب عباد الله ، ناصحا لهم فمن وجد الطبيب فليلازمه ؛ فهو يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذى هو بصدده أ هـ .

وأما طلبه للغيوب المحجوبة عنه من خفايا القدر ، ولطائف العبر ، فإنه حظ نفسه ، لا حق عليه فيه للحق تعالى ، فليطب عنها نفسا ، ولا يشغل بها عقلا ولا حسا ، وما ظهر له منها لا يسكن اليه ، ولا يعول عليه ، فان ذلك من المعايب القادحة فى عبوديته ، ولهذا قالوا : كن طالبا للاستقامة ، ولا تكن طالبا للكرامة فإن نفسك تتحرك وتطلب الكرامة ، ومولاك يطالبك بالاستقامة ، ولأن تكون بحق مولاك — أولى بك من أن تكون بحظ نفسك .

ومن الحكايات فى المعنى الذى ذكرناه — ماروى فى الاسرائيليات عن وهب بن منبه رضى الله تعالى عنه : أن رجلا من بنى اسرائيل صام سبعين سنه ، يفطر فى كل سنة سته أيام ، فسأل الله تبارك وتعالى : أن يريه كيف تقوى الشياطين على الناس ؟ فلما طال ذلك عليه ، ولم يجب ، قال : لو أطلعت على خطيئتى وذنبى بينى وبين ربى — لكان خيرا لى من هذا الأمر الذى طلبته ، فأرسل الله اليه ملكا ، فقال له : إن الله تعالى أرسلنى اليك ، وهو يقول لك : ان كلامك هذا الذى تكلمت به أحب الى مما مضى من عبادتك ، وقد فتح الله بصرك ، فانظر ، فاذا جنود ابليس قد أحاطت بالأرض ، واذا ليس احد من الناس الا والشياطين حوله كالذباب ، فقال : أى رب من ينجو من هذا ؟

قال : الورع اللين .

وسيأتى بيان أن الكرامات غير مطلوبه التحصيل ، ولا مغتبط بوجودها لدى كل عالم نبيل عند قوله : « ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه ».

تعقيـــب

تطلعك أيها الإنسان إلى ما خفى فيك من العيوب ، كالحسد والكبر والعجب ، والرياء . وسعيك للتخلص منها ــ أفضل من تطلعك الى ما حجب عنك من الأسرار مثل : أسرار العباد ، وما يأتى به القدر ، والأسرار الالهية ؛ لأن تطلعك الى عيوبك ــ سبب فى حياة قلبك ، أما تطلعك الى الغيوب ــ فإنما هو فضول ، وقد يكون سببا فى هلاك نفسك ، فبحثك عن عيوبك ، وسعيك فى التطهر منها ــ أولى من تطلعك إلى ما حجب عنك من الغيوب .

الحكمة الثالثة والثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« الْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ ، وَإِنَّمَا الْمَحجُوبُ أَنْتَ عَنَ النَّظَرِ إِلَيهِ ؛ إِذْ لَو حَجَبَهُ شَيءٌ ـــ لَسَتَرهُ مَا حَجَبَهُ ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ ـــ لَكَانَ لِوُجُودِهِ حَاصِرٌ ، وَكُلُّ حَاصِرٍ لِشَيْءٍ ـــ فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِه) » .

قال ابن عباد :

الحجاب على الحق تعالى محال ، واستدل المؤلف على ذلك بما ذكره هنا ، وهو بيِّن ، لا إشكال فيه ، والحجاب على العبد واجب ، من حيث ذاته ، إذ هو عدم كما تقدم ، ولا نسبة بين العدم والوجود ، فان أراد الله تعالى رفع هذا الحجاب عمن شاء ، كيف شاء ، متى شاء ، رأى من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وهذا مما يجب اعتقاده .

تعقيـــب

الحق ـــ سبحانه وتعالى ـــ محال فى حقه الحجاب ، فلا يحجبه شيء ؛ لأن من أسمائه الحسنى ـــ الظاهر ، قال تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم[1] » فلا يتصف بالحجاب لا ستحالته فى حقه .

وقد استدل ابن عطاء الله على ذلك بقوله : « اذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه ولو كان له ساتر ـــ لكان لوجوده حاصر ـــ وكل حاصر لشيء ، فهو له قاهر » ولا يصح ذلك فى حقه تعالى ، لقوله فى القرآن الكريم :

« وهو القاهر فوق عباده »[2]

---

(١) آية ٣ من سورة الحديد .

(٢) من آية ٦١ من سورة الأنعام .

الحكمة الرابعة والثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« اخْرُجْ مِنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعُبُودِيَّتِكَ ؛ لِتَكُونَ لِنِدَاءِ الْحَقِّ مُجِيباً ، وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيباً »[1]

قال ابن عباد :

أوصاف البشرية المتعلقة بأمر الدين نوعان : أحدهما ما يتعلق بظاهر العبد وجوارحه وهى الأعمال . والثانى ما يتعلق بباطنه وقلبه ، وهى العقود .

فأما ما يتعلق بظاهره وجوارحه ــ فينقسم قسمين : أحدهما ما وافق الأمر ، ويسمى طاعة ، والثانى ما خالفه ، ويسمى معصية .

وأما ما يتعلق بباطنه وقلبه ــ فينقسم أيضا إلى قسمين : أحدهما : ما وافق الحقيقة ، ويسمى ايماناوعلما . والثانى : ما خالفها ، ويسمى نفاقا وجهلا .

والنظر فيما يتعلق بظاهر العبد ــ يسمى فى الاصطلاح تفقها . والنظر فيما يتعلق بباطنه ــ يسمى فى الاصطلاح تصوفا .

فهذان الأمران هما كلية العبد . وظاهره تَبَعٌ لباطنه بالضرورة ؛ لأن القلب هو الملك ، والجوارح جنوده ورعيته ، ومن شأن الرعية طاعة الملك فيما يأمر به ، وينهى عنه ، وقد نبه على هذا المعنى رسول الله ﷺ ، حيث قال : « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

وصلاح القلب إنما يكون بطهارته عن الصفات المذمومة كلها : دقيقها

---

(١) أوصاف البشرية : هى الأخلاق التى تناقض خلوص العبودية ، وهى نوعان : ظاهرة ، وهى أعمال الجوارح ، وباطنة ، وهى أعمال القلب . وكل من النوعين إما طاعة ، وإما معصية .

وجليلها . وهذه هى الصفات المناقضة للعبودية من أوصاف البشرية التى أشار اليها المؤلف رحمه الله تعالى . وهى التى تسم صاحبها بسمة النفاق والفسوق ، وهى كثيرة : مثل الكبر والعجب والرياء والسمعة والحقد والحسد وحب الجاه والمال ، ويتفرع عن هذه الأصول فروع خبيثة من العداوة والبغضاء ، والتذلل للأغنياء ، واستحقار الفقراء ، وترك الثقة بمجيء الرزق ، وخوف سقوط المنزلة من قلوب الخلق ، والشح والبخل وطول الأمل والأشر والبطر ، والغل والغش ، والمباهاة والتصنع ، والمداهنة والقسوة ، والفظاظة والغلظة ، والغفلة والجفاء والطيش ، والعجلة والحدة ، والحمية وضيق الصدر ، وقلة الرحمة ، وقلة الحياء ، وترك القناعة ، وحب الرياسة ، وطلب العلو ، والانتصار للنفس اذا نالها الذل ، وذهاب ملك النفس اذا رد عليه قوله ، الى غير ذلك من النعوت الذميمة ، والأخلاق اللئيمة . وأصل فروعها ، وعنصر ينابيعها انما هو رؤية النفس والرضا عنها ، وتعظيم قدرها وترفيع أمرها .

فبهذه الامور كفر من كفر ، ونافق من نافق ، وعصى من عصى ، وبها خلع من عنقه ربقة العبودية — لربه عز وجل — من خلع . حسبما يقوله المؤلف رحمه الله تعالى بأثر هذا : وشأن الصوفى انما هو النظر فيما يطهرها ويزكيها من أنواع الرياضات والمجاهدات ، وقد بينوا طرق ذلك فى كتبهم .

قال الشيخ أبو طالب رضى الله عنه : فلا يكون المريد بدلا ، حتى يبدل[1] بمعانى صفات الربوبية صفات العبودية ، وأخلاق الشياطين بأوصاف المؤمنين ، وطبائع البهائم بأوصاف الروحانيين من الأذكار والعلوم ، فعندها يكون بدلا مقربا ، قال : والطريق الى هذا بأن يملك نفسه ، فبملكها — تسخر له ، ويسلط عليها .

فان أردت أن تملك نفسك — فلا تملكها ، وضيق عليها ، ولا توسع لها ؛ فان ملكتها ملكتك ، وان لم تضيق عليها — اتسعت عليك ، واذا أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها ، واحبسها عن معتاد ملائمها ، فان لم تمسكها انطلقت بك .

---

(١) المعروف أن هذا التعبير الذى يستخدم فيه الفعل (يبدل) وما فى معناه — يجيء بعده طرفان ، أحدهما تدخل عليه الباء ، وهو المتروك ، والآخر هو المأخوذ ، وعلى هذا النسق جاء تعبير القرآن دائما . غير أن تعبير أبى طالب المكى هنا على خلاف هذا ، فالباء فيه تدخل على المأخوذ المرغوب ، رغم عدم التوازن فى ترتيب الأطراف ، وتأمل الأزواج التالية للفعل (يبدل) لتدرك ذلك .

وان أردت ان تقوى عليها ــ فأضعفها بقطع أسبابها ، وحبس موادها ، والا قويت عليك فصرعتك أ هـ .

فاذا قام بذلك المريد على الوجه الذى رسموه له ، والتزم الوظائف التى أمروه بها ــ طهر قلبه ، وتزكت نفسه ، واتصفت بمحاسن الصفات التى تزينه بين العباد وينال بها ــ من قرب ربه ــ غاية المراد ــ فيظهر حيئنذ عليه آثار حميدة : من التواضع لله ، والخشوع بين يديه ، والتعظيم لأمره ، والحفظ لحدوده والهيبة له ، والخوف منه ، والتذلل لربوبيته ، والاخلاص فى عبوديته ، والرضا بقضائه ، ورؤية المنة له عليه ، فى منعه واعطائه ، ويتصف فيما بين خلقه : بالرأفة والرحمة واللين والرفق وسعة الصدر ، والحلم والاحتمال ، والصيانة والنزاهة ، والأمانة والثقة ، والعطف والتأنى ، والوقار والسخاء ، والجود والحياء ، والبشاشة والنصيحة ، وسلامة الصدر الى غير ذلك من أخلاق الايمان التى ينال بها العبد غاية السعادة ، والحسنى والزيادة .

قلت : وهذان المعنيان هما اللذان يعبر عنهما أئمة الصوفية رضى الله تعالى عنهم بالتحلى والتخلى . أى التخلى عن الصفات المذمومة ، والتحلى بالصفات المحمودة . ويعبرون عنهما أيضا ــ بالتزكية والتحلية . وهما حقيقة السلوك الذى يعبرون عنه أيضا . وستأتى الاشارة الى كيفية ذلك عند قوله : لولا ميادين النفوس ــ ما تحقق سير السائرين .

فاذا صح للمريد هذا السفر ، وانقلب منه الى أفضل مستقر ــ تحققت عبوديته لربه عز وجل ــ فلم يملكه غيره ، ولم يسترقه سواه ، وارتقى فى القرب من ربه إلى أشرف محل ، فيكون هناك منزله ومثواه ، فيكون حيئنذ كما قال المؤلف رحمه الله تعالى : « لنداء الحق مجيباً » لأنه اذ ذاك مناديه باسم العبد ، فيقول له : ياعبدى ، فيجيب حيئنذ مولاه باسم الرب ، فيقول له : لبيك يارب ، فيكون صادقا فى اجابته ، متحققا فى نسبته ، ويكون أيضا من حضرته قريبا ، لوجود بعده عن نفسه التى من شأنها النفور عنها ، والفرار منها .

فاذا اقامه الحق تعالى مقام العبودية ، وحاز مرتبة القرب من حضرة الربوبية ،

كان محظوظا من اقتحام الأوزار ، ميسر عليه أعمال الأخيار ، متحليا فى الظاهر والباطن بأشرف الحلى ، محتظيا بفضيلة التشبه بالملأ الأعلى . قال الله عز وجل : « ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون »[1] وقد قال الله تعالى : « ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون »[2] وقال عز من قائل : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »[3] فمرتبة العبودية أنالتهم هذه الخصوصية ، وكذلك من تشبه بهم فى محاسن صفاتهم من الصفوة الصوفية ، الا أن هؤلاء محفوظون لا معصومون على ما اصطلحوا عليه من الفرق بين الحفظ والعصمة ، والفرق بينهما هو ما قاله الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه : إن المعصوم لا يلم بذنب البتة ، والمحفوظ قد تحصل منه همات وقد تكون له فى الندرة زلات ، ولكن لايكون له إصرار . أولئك الذين يتوبون الى الله من قريب ، وقد وصف الله تعالى عباده ذوى التخصيص ، أولى التطهير والتمحيص فى آيات كريمة ، بصفات جليلة عظيمة ، وأعد لهم على ذلك خيرات جسيمة ، فقال تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » الى قوله : « خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاما »[4]

وعليك النظر فيما قاله فيها أهل التفسير ، وما استنبطه منها أرباب الاشارات والتذكير . وأما من عدا هؤلاء فهم عبيد نفوسهم الشهوانية ، ومسترقو حظوظهم الدنيوية ، قال الله تعالى : " أرأيت من اتخذ الهه هواه "[5]

وقال النبى ﷺ فيما روى عنه : " تعس عبد الدينار ، وتعس عبد الدرهم " الحديث

---

(١) من آية ١٩ — وآية ٢٠ من سورة الأنبياء .
(٢) آية ٢٠٦ من سورة الأعراف .
(٣) من آية ٦ من سورة التحريم .
(٤) الآيات من ٦٣ الى ٧٦ من سورة الفرقان .
(٥) من آية ٤٣ من سورة الفرقان

وهؤلاء هم من عبيد العدد[1] المعنيين بقوله عز وجل : " إن كل من فى السماوات والأرض الا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا[2] . وأعلم أنه لا يتهيأ هذا السلوك الى حضرة ملك الملوك الا لمن وفقه الله الى معرفة نفسه ، وماركبت عليه من مذام الصفات . ومن عرف ذلك من نفسه — لا يزال متهما لها ، مسيئا ظنه بها ، آخذا حذره منها ، والا وقع فى المعاصى والذنوب ، من حيث لا يشعر . وقد نبه المؤلف رحمه الله تعالى على هذا بقوله :

---

(١) يقصد بعبودية العدد من يدخلون فى قوله تعالى " لقد أحصاهم وعدهم عدا ، والعبودية قسمان : عبودية ملك وقهر ، وهى عامة لكل المخلوقات ، كما فى قوله تعالى : " ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا " وعبودية خاصة بأحبابه جل وعلا ، وهى تتحقق بالاخلاص فى العبودية ، وتقرب صاحبها من حضرته تعالى .

(٢) الآيات ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ من سورة مريم .

الحكمة الخامسة والثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ [1] ، وَغَفْلَةٍ[2] وَشَهْوَةٍ[3] ـــ الرِّضَا عَنِ النَّفْسِ[4] ، وَأَصْلُ كُلِّ طَاعَةٍ[5] ، وَيقَظَةٍ[6] ، وَعِفَّةٍ[7] ـــ عَدَمُ الرِّضَاَ مِنْكَ[8] عَنْهَا ، وَلأَنْ تَصْحَبَ جَاهِلاً لاَ يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ ـــ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عَالِماً يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ[9] ، فَأَىُّ عِلْمٍ لِعَالِمٍ[10] يِرْضَى عَنْ نَفْسِهِ ؟ وأَىُّ جَهْلٍ لِجَاهِلٍ[11] لاَ يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ ›› .

قال ابن عباد :

الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة ، وعدم الرضا عنها أصل

---

(١) معصية : مخالفة لما أمر الله به ، ونهى عنه .

(٢) غفلة : المراد غفلة القلب عن حضرة الرب .

(٣) شهوة : تعلق بما يشغل عن الله .

(٤) الرضا عن النفس : لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها .

(٥) طاعة : موافقة للأمر والنهى .

(٦) يقظة : دخول فى حضرة الرب .

(٧) عفة : علو الهمة عن الشهوات .

(٨) عدم الرضا منك عنها : لأن من لم يرض عن نفسه ـــ لم يستحسن حالها . ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه .

(٩) لا يرضى عن نفسه : أى يسخط عليها ، ويعتقد نقصها .

خير من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه : أى أن صحبة من يرضى عن نفسه ـــ شر محض ، لأنها تؤثر فيمن يصحبه .

(١٠) فأى علم لعالم يرضى عن نفسه : لأن رضاه صار حجابا له عن ربه .

(١١) وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه : إذ إنه بعدم رضاه عن نفسه بحث عن عيوبها وتخلص منها .

الصفات المحمودة وقد اتفق على هذا جميع العارفين ، وأرباب القلوب ، وذلك لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ومساويها ، ويصيرُ قبيحها حسنا ، كما قيل :

'' وعين الرضا عن كل عيب كَلَيلَةٌ ''

وعدم الرضا عن النفس على عكس هذا ؛ لأن العبد إذ ذاك يتهم نفسه ، ويتطلب عيوبها ، ولا يغتر بما يظهر من الطاعة والانقياد ، كما قيل فى الشطر الأخير :

'' كما أن عين السخط تبدى المساويا ''

فمن رضى عن نفسه استحسن حالها ، وسكن اليها ، ومن استحسن حال نفسه ، وسكن اليها — استولت عليه الغفلة ، وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره ؛ فتثور حينئذ دواعى الشهوة على العبد ، وليس عنده من المراقبه والتذكير ما يدفعها به ، ويقهرها ، فتصير الشهوة غالبة له ، بسبب ذلك .

ومن غلبته شهوته — وقع فى المعاصى لا محالة ، وأصل ذلك كله رضاه عن نفسه ، ومن لم يرض عن نفسه — لم يستحسن حالها ، ولم يسكن اليها .

ومن كان بهذا الوصف كان متيقظا منتبها للطوارق والعوارض ، وبالتيقظ والتنبه — يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها ، وعند ذلك تخمد نيران الشهوة ، فلا يكون لها عليه غلبة ولا قوة ، فيتصف العبد حينئذ بصفه العفة ، فاذا صار عفيفا — كان مجتنبا لكل ما نهاه الله عنه ، محافظا على جميع ما أمره به ، وهذا هو معنى الطاعة لله عز وجل ، وأصل هذا كله عدم رضاه عن نفسه .

فإذن لا شىء أوجب على العبد من المعرفة بنفسه ، ويلزم من ذلك عدم الرضا عنها ، وبقدر تحقق العبد فى معرفة نفسه — يصلح له حاله ، ويعلو مقامه . .

وقد ورد عن الكبار ، والأئمة الأخيار من الكلمات المتضمنة لعيبهم لنفوسهم ، والتهمة منهم لها ، وعدم رضاهم عنها أكثر من أن يحصى .

ولذا قال أبو حفص رضى الله تعالى عنه : من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ، ولم يجرها إلى مكروهها فى سائر أيامه — كان مغرورا ، ومن نظر اليها باستحسان شىء منها — فقد أهلكها .

وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه والكريم بن الكريم يقول : « وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء »[1]

وقال أيضا أبو حفص رضى الله تعالى عنه : منذ أربعين سنة ، اعتقادى فى نفسى أن الله ينظر إلى نظر السخط ، وأعمالى تدل على ذلك .

وقال الجنيد رضى الله تعالى عنه : لا تسكن الى نفسك ، وان دامت طاعتها لك فى طاعة ربك . وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه : ما رضيت عن نفسى طرفة عين . ويحكى عن سرىّ السقطى رضى الله تعالى عنه : أنه قال : إنى لأنظر الى وجهى فى اليوم كذا وكذا مرة ، مخافة أن يكون قد اسودّ ، لما أخافه من العقوبة .

وقال أيضا رضى الله تعالى عنه : من الناس ناس لو مات نصف أحدهم — ما انزجر النصف الآخر ، ولا أحسبنى الا منهم ، الى غير هذا من العبارات الصادرة من المشايخ — رضى الله عنهم — فى هذا المعنى .

وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى — رضى الله تعالى عنه : جزءا صغير الجرم ، عظيم الفوائد فى عيوب النفس ، وكيفية مداواتها ، فلينظر فيه المريد .

وكذلك ألف قبله الأمام أبو عبد الله الحارث المحاسبى — كتابا سماه النصائح — جمع فيه من معايب النفس ، وخدعها وغرورها وشرورها — جملة شافية ، ونبه فيه على سنن دارسة عافية ، مما كان عليه سلفنا الصالح ، رضوان الله تعالى عليهم ، من التفتيش والتفقد ، والنظر فيما تصلح به أعمالهم وأحوالهم وأنفسهم ، والمحافظة على تطهير الأسرار والقلوب ، والمبالغة فى الحذر من محقرات الذنوب .

وقد نقل الامام أبو حامد الغزالى — قدس الله روحه — منه فصلا فى كتابه ، واعتمد فيه ذِكْرَهَ بلفظِه ، ونصِّ خطابِه ، بعد أن اثنى على مؤلفه بما هو أهله ، فبان للجاهل به علمه وفضله ، فقال فى حقه : والمحاسبى رحمه الله تعالى حبر الأمة فى علم

---

(١) من آية ٥٣ من سورة يوسف ، وسياق النص الكريم يجعل هذا القول لامرأة العزيز ، لا ليوسف عليه السلام . (المراجع)

المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وإغرار العبادات وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه ، ثم ذكره .

وقد كان أوحد زمانه علما وعبادة ، ونخبة أوانه ورعا وزهادة ، سيدى الحاج أبو العباس بن عاشر رحمة الله تعالى عليه ورضوانه — يكثر من التحريض على مطالعة ذلك الكتاب ، والعمل بما تضمنه من حق وصواب ، وأظنني سمعته ذات يوم يقول : لا يعمل بما فيه إلا ولىّ ، أو كلاماً هذا معناه ، فليتخذ المريد مطالعته ورداً وليحرص على العمل بما تضمنه . مستعينا بالله تعالى ، وسائلا منه توفيقا ورشدا ، لينصح لمولاه فى مراعاة إصلاح باطنه ، والقيام على قدم الصدق فى مواطنه ، وليجعل هَجِّيراه[1] مطالعة كتب التصوف ، وموالاة أهله ، بالتألف والتعرف ؛ فبذلك تتقوى أنوار إيمانه ويقينه ، وتنفى عنه الغِرَّة فى عمله بوظائف دينه ، ولا يُقَدِّمُ على ذلك إلا فرض العين ، وما يستجم به نفسه من مكابدة التعب والدين ، ولا يشغل نفسه بعلم يغبر على وجه مقصوده ، ويوجب له انتكاث مواثيقه وعهوده .

وما أكب الناس عليه اليوم ، وحادوا به عن سنن القول ، حتى أكسبهم ذلك من رذائل الصفات ، وعظائم الآفات — ما صار بهم الى الهلاك والشقاء ، وأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم اللقاء ، وسجل عليهم بالكذب فى دعواهم — أنهم قاصدون بعلمهم رضا مولاهم . فاياك وأياهم ، وأنشد :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

ولذلك قال المؤلف : وَلَأَنْ تصحب جاهلا ، لا يرضى عن نفسه — خير لك من أن تصحب عالما ، يرضى عن نفسه ، فأى علم لعالم يرضى عن نفسه ؟ وأى جهل لجاهل ، لا يرضى عن نفسه ؟

فائدة الصحبة انما هى الزيادة فى الحال ، وعدم النقصان فيها ، حسبما يأتى الكلام عليه ، عند قوله :

ولا تصحب من لا يُنْهِضُكَ حالُه ، ولا يدلُّك على الله مقاله ، فصحبة من يرضى عن نفسه وان كان عالما — شرّ محض ، ولا فائدة فيها ، لأن علمه غير نافع

(١) أى :ليجعل دأبه وشأنه وعادته . (المراجع)

له ، وجهله الذى أوجب رضاه عن نفسه ـــ صار غاية الضرر ، وكأنه ـــ اذ فاته هذا العلم الذى يريه عيبه ، حتى لا يرضى عن نفسه ، لا علم عنده ، وصحبة من لا يرضى عن نفسه ، وان كان جاهلا خير محض ، وفيه كل الفائدة ، لأن جهله غير ضار ، وعلمه الذى أوجب له عدم رضاه عن نفسه نافع غاية النفع ، وكأنه اذ حصل له هذا العلم ـــ لا جهل عنده .

الحكمة الثامنة والثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ تَتَعَدَّ[1] ، نِيَّةَ هِمَّتِكَ[2] إِلَى غَيْرِهِ ، فَالْكَرِيمُ ــ لاَ تَتَخَطَّاهُ الْآمَالُ[3] » .

قال ابن عباد :

الهمة العلية تأنف من رفع حوائجها الى غير الكريم ، ولا كريم على الحقيقة سوى الله تعالى . قال الجنيد رضى الله تعالى عنه : الكريم الذى لا يحوجك الى مسألة .

وقال الحارث المحاسبى رضى الله تعالى عنه : الكريم الذى لا يبالى من أعطى .
وقيل : الكريم الذى لا يخيب رجاء المؤملين .

وأجمع العبارات فى معنى وصف الكريم ــ ما قيل : الكريم الذى اذا قدر عفا ، و اذا وعد وفى ، واذا أعطى زاد على منتهى الرجا ، ولا يبالى كم أعطى ، ولا لمن أعطى ، وان رفعت حاجة الى غيره ــ لا يرضى ، واذا جفا عاتب وما استقصى ، ولا يضيع من لاذ به والتجأ ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء .

فاذا كانت هذه الصفات لا يستحقها أحد سوى الله تعالى ــ فينبغى إذن ألا تتخطاه آمال المؤملين الى غيره ، كما قال بعضهم :

---

(١) لا تتعد : أى لا تتجاوز
(٢) نية همتك : قصدها الذى تتوجه به .
الهمة : القوة المنبعثة فى طلب المقاصد . الآمال : ما يقصده القاصدون .
(٣) لا تتخطاه الآمال : لا تتجاوزه الى غيره .

حرام على من وَحدَّ ، الله ربَّه وأَفْرَدَهُ أن يجتدى[1] أحدًا رِفْدَا[2]
ويا صاحبى قف بى مع الحق وقْفَةً أموتُ بها وَجْداً[3] وأحيا بها وُجْدَاً[4]
وقل : لملوك الارض تَجْهَدُ جُهْدها فذا الملكُ مُلْكٌ لا يُبَاعُ ولا يُهْدَى

---

(١) يجتدى : يسأل .
(٢) رفدا : أى عطاء .
(٣) الوَجْد : الحزن .
(٤) الوُجْد : اليسار ولسَّعة .

الحكمة التاسعة والثلاثون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ تَرْفَعَنْ إِلى غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ يَرْفَعُ غَيْرُهُ مَا كَانَ هُوَ لَهُ وَاضِعاً ؟ مَنْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَةً عَنْ نَفْسِهِ ــ فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَهَا عَنْ غَيْرِهِ رَافِعاً ؟

قال ابن عباد :

إذا أورد الله تعالى عليك حاجة ، أو أنزل بك نازلة ، فاعلم أنه لا رافع لها سواه ، إذ يستحيل أن يرفع غيره ما كان هو له واضعا ؛ لثبوت توحيده فى أن لا فاعل سواه ، وإذ هو غالب على أمره ، لا يغالبه أحد ، ويستحيل أيضا أن يرفعه عنك ــ من لا يستطيع أن يرفعها عن نفسه ، لو نزلت به ، لثبوت عجزه وضعفه .

ومن المحال تعلقك فى حاجتك بمن هو محتاج مثلك .

قال بعضهم : من اعتمد على غير الله ــ فهو فى غرور مما لا يدوم ، ولا يدوم شىء سواه ، وهو الدائم القديم الذى لم يزل ولا يزال ، وعطاؤه وفضله دائمان ، فلا تعتمد الا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء ، فى كل نفس وحين ، وأوان وزمان .

قال عطاء الخراسانى رضى الله تعالى عنه : لقيت وهب بن منبه فى الطريق ، فقلت حدثنى حديثا أحفظه عنك فى مقامى ، وأوجز . قال : « أوحى الله تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام : يا داود : أما وعزتى وجلالى لا يَسْتَنْصِر بى عبدٌ من عبادى دون خلقى ، أَعْلَمُ ذلك من نيته ــ فتكيده السماوات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ــ الا جعلت له منهن فرجا ومخرجا . أما وعزتى وجلالى

وعظمتى — لا يستعصم عبد من عبادى بمخلوق دونى — أعلم ذلك منه — الا قطعت أسباب السماوات السبع من دونه ، وأسخت[1] الارض من تحته ، ولا أبالى فى أى واد هلك » .

قال محمد بن الحسين بن حمدان : كنت فى مجلس يزيد بن هارون ، وكان الى جانبى رجل ، قلت له : ما اسمك ؟ فقال : سعيد ، فقلت : ما كنيتك ؟ قال : أبو عثمان ، فسألته عن قصته وخبره ، فقال : نَفِدَتْ نفقتى ، فقلت : ومن تؤمل لما قد نزل بك ؟ فقال : يزيد ، فقلت : اذن لا يسعفك بحاجتك ، ولا يُنْجِحُ طلبك ولا يُبَلِّغُكَ أملَك ، فقال : وما علمك بهذا رحمك الله ؟ قلت : إنى قرأت فى بعض الكتب : أن الله عز وجل يقول : وعزتى وجلالى ، وجودى وكرمى ، وارتفاعى فوق عرشى ، فى علو مكانى — لأقطعن أمل كل مؤمل لغيرى بالإياس [2] ، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس ، وَلأُ نَحِّيَنَّهُ من قربى ، ولأقطعنه من وصلى ، أَيُؤَمِّلُ غيرى فى النوايب ، والشدائِدُ بيدى ؟ وأنا أُنَحِّى ، وَيُرَجَى غيرى ؟ وتَطْرُقُ الفِكَرُ أبوابَ غيرى، وبيدى مفاتيح الأبواب ؟ وهى مغلقة ، وبابى مفتوح لمن دعانى ؟ من الذى أَمَّلَنِى لنائبةٍ فقطعت به دونها ؟ ومن الذى رجانى لعظيم جُرْمِه ، فقطعت رجاءه منى ؟ أم من ذا الذى قرع بابى فلم أفتحه له ؟

جعلت آمال خلقى بينى وبينهم متصلة ، فتعلقت بغيرى ، وجعلت رجاءهم مدخرا لهم عندى ، فلم يرضوا بحفظى ، وملأت سماواتى ممن لا يملون تسبيحى من ملائكتى . . وأمرتهم ألا يغلقوا الأبواب بينى وبين عبادى ، فلم يثقوا بقولى .

ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبى — أنه لا يملك كشفها أحد غيرى ؟
فمالى آراه بآماله معرضا عنى ؟ ومالى آراه لا هيا بسواى ؟

أعطيته بجودى ما لم يسألنى ، ثم انتزعته منه ، فلم يسألنى رده ، وسأل غيرى ، افترانى أبدأ بالعطية قبل المسألة ، ثم أُسْأَلُ فلا أجيب سائلى ؟ أبخيل أنا ، فيُبْخِلُنى[3] عبدى ؟ أليس الدنيا والآخرة لى ؟ أوليس الرحمة والفضل بيدى ؟

---

(١) اسخت الأرض من تحته : أى خسفتها — يقال ساخت الأرض بهم : انخسفت
(٢) الاياس : انقطاع الرجاء .
(٣) أبخله : وجده بخيلا (المراجع)

أو ليس الجود والكرم لى ؟ أوليس أنا محل الآمال ؟ فمن ذا الذى يقطعها دونى ؟ وما عسى أن يؤمل المؤملون لو قلت لأهل سماواتى وأهل أرضى : أَمِّلُونى ، ثم أعطيت كل واحد منهم من الفكر ما أعطيت الجميع — ما نقص ذلك منَ ملكى عُضْو ذَرة[1] كيف ينقص ملك كامل ، أنا قيمه ؟

فيابؤس القانطين من رحمتى ، ويا بؤس من عصانى ولم يراقبنى ، وثبت على محارمى[2] ولم يَسْتَحِي منى .

قال رحمك الله : أمل هذا الحديث على ، فكتبه ، ثم قال : والله لا أكتب حديثاً بعده ، قلت : والأصل الذى ينى عليه هذا المعنى هو تحقيق العبد فى مقام حسن الظن بالله تعالى ؛ ولذلك أخذ المؤلف رحمه الله تعالى فى ذكره فقال :

---

(١) الذرة ، وجمعها : الذر : صغار النمل (المراجع)

(٢) أى استحلها ثابتا مصرا ، عامدا متعمدا (المراجع)

الحكمة الأربعون

قال ابن عطاء الله

« إِنْ لَمْ تُحْسِنْ ظَنَّكَ بِهِ ؛ لِأَجْلِ حُسْنِ وَصْفِهِ[1] ـ فَحَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ[2] ، لِأَجْلِ مُعَامَلَتِهِ مَعَكَ ، فَهَلْ عَوَّدَكَ إِلاَّ حَسَناً ؛ وَهَلْ أَسْدَى إِلَيْكَ[3] إِلاَّ مِنَناً »[4] .[5]

قال ابن عباد :

حسن الظن بالله تعالى أحد مقامات اليقين ، والناس فيه على قسمين : خاصة ، وعامة . فالخاصة حسنوا الظن به ، لما هو عليه من النعوت السنية ، والصفات العلية . والعامة حسنوا الظن به ، لما هم فيه من سبوغ النعم ، وشمول الفضل والكرم .

والتفاوت بين المقامين ظاهر ، ولذلك لا يخاف من التغير والانقلاب فى أحدهما

---

(١) لأجل حسن وصفه : أى لأجل ما هو عليه من النعوت السنية ، والصفات العلية .

(٢) فحسن ظنك به لأجل معاملته معك : أى من اسباغ النعم ، وشمول الفضل والكرم .

(٣) أسدى اليك : أعطاك . يقال اسدى اليه معروفا : أعطى وأولى .

(٤) مننا : نعما : جمع منة : وهى الاحسان والانعام .

(٥) جاءت بداية الحكمة فى شرح الشيخ « زروق » تحقيق الشيخ « عبد الحليم محمود » هكذا :
« إن لم تحسن ظنك به ، لأجل جميل وصفه ــ حسن ظنك به ، لوجود معاملته معك » وفى شرح ابن عجيبة » هكذا :
« إن لم تحسن ظنك به ، لأجل وصفه ــ حسن ظنك به ، لأجل معاملته معك » وفى شرح الشيخ « عبد المجيد الشرنوبى » هكذا :
« إن لم تحسن ظنك به ، لأجل وصفه ــ حسن ظنك به ، لأجل معاملته معك » وكلها متقاربة فى المعنى .

ما يخاف فى الآخر ، لأن أرباب المقام الأول لما تحققوا فى المعرفة بالله تعالى واحتظوا بأنوار اليقين به ــ أطمأنت قلوبهم ، وسكنت نفوسهم ، فلم يبق فيهم متسع لوجود تهمة ، ولا مجال لسوء ظن .

وأرباب المقام الثانى لم يرتقوا عن نظرهم الى الأفعال ، وهى متلونة عليهم فى كل حال ، وعند وقوع بعض ما لا يلائمهم منها بهم ــ ربما تضعف عن تحمل مكارهها ــ قُوَى قلوبهم ، فلا تحصل لهم البراءة من خواطر سوء الظن بالله ، وتحدث النفس بما يقتضى وجود هلع وجزع ؛ فليكن العبد عند ذلك مشاهدا معنى قوله عز وجل : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم »[1] وما أشبهه ، وليقس النادر على الغالب .

قال أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله تعالى عنه : حسن الظن عبارة عن قطع الوهم ، أن يكون أو لايكون ، لأن الوهم قاتل[2] فمتى أعطيت أذنك للوهم ــ هلكت وحدك ، وكذلك الاصغاء بالاذن الى الشيطان والنفس جنس واحد أ هـ .

قلت : وحسن الظن يُطْلَبُ من العبد فى أمر دنياه ، وفى أمر آخرته . أما أمر دنياه فأن يكون واثقا بالله تعالى فى ايصال المنافع والمرافق اليه من غير كدّ ولا سعى فيها ، أو سعى خفيف مأذون فيه ، ومأجور عليه ، بحيث لا يفوّته ذلك شيئا من نفل ولا فرض ؛ فيوجب له ذلك سكونا وراحة فى قلبه وبدنه ، فلا يستفزه طلب ، ولا يزعجه سبب .

وأما أمر آخرته ــ فأن يكون قوى الرجاء فى قبول أعماله الصالحة ، وتوفية أجوره عليها فى دار الثواب والجزاء ، فيوجب له ذلك المبادرة ، لا متثال الأمر ، والتكثير من أعمال البر ، لوجود حلاوة واغتباط ، ولذاذة ونشاط .

وقد قال يحيى بن معاذ ، أوثق الرجاء ــ رجاء العبد لربه ، وأصدق الظنون ــ

---

(١) من آية ٢١٦ من سورة البقرة .

(٢) هنا جملة أسقطناها من الأصل وجاءت هكذا (وهو لوقت ٧ ثان) ولم نتحقق معناها ، ومضمون الجملة مستقيم بدونها (المراجع)

حسن الظن بالله تعالى ، ومن مواطن حسن الظن بالله تعالى التى لا ينبغى للعبد أن يفارقه فيها ، أوقات الشدائد والمحن وحلول المصائب فى الأهل والمال والبدن لئلا يقع ، بسبب عدم ذلك ـ فى الجزع والسخط ، وسيأتى هذا المعنى فى كلام المؤلف رحمه الله ، وهو قوله :

« من ظن انفكاك لطفه عن قدره ـــ فذلك لقصور نظره » . ومن أعظم مواطن حسن الظن بالله تعالى حالة الموت . وقد جاء فى الخبر : « لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله تعالى » وفى حديث جابر : « من استطاع منكم ألا يموت الا وهو يحسن الظن بالله تعالى ـــ فليفعل . ثم تلا هذه الآيه : « وَذِلَكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ »[1]

ولأنه تعالى قال فيما يروى عنه : « أنا عند ظِنِّ عبدى بى ، فَلْيَظُنَّ بِى مَا شَاء » قال أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه : وكان ابن مسعود يحلف بالله ما أحسن عبد ظنه بالله تعالى الا أعطاه عز وجل ذلك ، لأن الخير كله بيده ، فاذا أعطاه حُسْنَ الظنِّ به ـــ فقد أعطاه ما يَظُنُّه ، لأن الذى حَسَّنَ ظَنَّهُ به ـــ هو الذى أراد أن يُحَقِّقه له أ هـ .

وقد روى عن أبى النصر بن حيان قال : خرجت عائدا ليزيد بن الأسود ، فلقيت واثلة بن الأسقع ، وهو يريد عيادته . قال : فدخلنا عليه ، وهو فى فراشه ، فلما رأى واثلة ، بسط يده ، وطفق يشير اليه ، فأقبل واثلة ، حتى جلس على الفراش ، وأخذ يزيد بن الأسود بِكَفَّىْ واثلة ، حتى جعلها على وجهه ، فقال له واثلة : أسألك عن شيء تخبرنيه ؟ قال : لا تسألنى عن شيء أعلمه الا أخبرتك به .

قال له واثلة : كيف ظنك بالله عز وجل ؟ قال : ظنى والله بالله حسن . قال : فأبشر ، فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تبارك وتعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، إن ظن خيرا ، وإن ظن شرا »

وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : « عاد رسول الله ﷺ

---

(١) الآية : « وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » ٢٣ من سورة فصلت . وتلاوة جابر للآية توحى بأنه يحذر مخاطبيه من سوء الظن بالله ، الذى اردى أصحابه (المراجع)

مريضا ، فقال له رسول الله ﷺ : كيف ظنك بربك ؟ قال يا سول الله : حسن الظن .

قال : فظن به ما شئت ، فان الله تبارك وتعالى عند ظن المؤمن به » .

وروى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : أن النبى ﷺ ، قال : « ان حسن الظن بالله ـــ من حسن عبادة الله »

قلت : والأخبار والآثار فى الرجاء وحسن الظن بالله وسعة رحمته ـــ أكثر من أن تحصى ومطالعتها مما يزيد المريد قوة فى هذا المقام . فمن أراد الشفاء فى ذلك عليه بمطالعة كتاب « الرجاء » من « قوت القلوب »[1] وكتاب « الإحياء »[2] قال بعضهم :

وما زلت أرجو الله حتى كأننى أرى بجميل الصنع ما هو صانع

ثم بين رحمه الله تعالى الحالة التى بمنازلتها يتحقق العبد فى مقام حسن الظن بالله تعالى ، وهو عكوف العبد بباب الله ، وتعلق قلبه بواحدانيته ، وأشار الى أن ذلك هو غاية النعيم ، ومنتهى الأمانى ، لا ما تتوهمه النفس ، وتطلبه من النعيم المعقول ، والأمنيات التى تفنى وتزول .

تعقيب :

قال رسول الله ﷺ : « حسن الظن من حسن العبادة »

فعلى العبد المؤمن أن يحسن الظن بالله تعالى فى أمر دنياه ، وفى أمر آخرته ، وقد سبق ايضاح ذلك .

وحسن الظن بالله تعالى أحد مقامات اليقين .

والناس فى هذا ثلاث درجات :

قسم أحب الله ، وأحسن الظن به من أجل نعمه واحسانه ، وهو مقام العامة .

وقسم أحب الله وأحسن الظن به ، من أجل وصفه ، وهو مقام الخاصة .

---

(١) قوت القلوب ـــ لأبى طالب المكى

(٢) الإحياء ـــ لأبى حامد الغزالى

وقسم أحب الله ، وأحسن الظن به ، من أجلهما معا : نعمه واحسانه ، ونعوته وصفاته ، وهو أفضل حالا منهما ، وهو مقام خاصة الخاصة . وفى هذا المقام الأخير تقول رابعة العدوية :

أحبك حبين : حبَّ الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك لى الحجب حتى أراكا
ولا حمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

الحكمة الحادية والأربعون

قال ابن عطاء الله :

« الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّا لاَ انْفِكَاكَ لَهُ عَنْهُ ، وَيَطْلُبُ مَالاَ بَقَاءَ لَه مَعهُ ؛ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »

قال ابن عباد :

هرب العبد من مولاه باقباله على شهواته ، ومتابعته هواه ، وذلك نتيجة عَمى قلبه ، وجهله بربه ؛ لأنه استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وآثر الفانى الذى لا بقاء له ـــ على الباقى الذى لا انفكاك له عنه ، ولو كانت له بصيرة ـــ لآثر الباقى على الفانى ، ولفعل ما فعله سحرة فرعون ـــ لما آمنوا بربهم ، اذ لم يحفلوا بما وعدهم به فرعون من الاحسان والانعام والتقريب والاكرام ، ولم يكترثوا بما توعدهم به من العذاب والقتل والصلب على جذوع النخل ، بل قالوا : « لن نؤثرك على مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ والَّذى فَطَرَنَا » الآية ، ثم قالوا : « والله خَيْرٌ وَأَبْقَى »[1] .

فهؤلاء استنارت قلوبهم ، وشهدوا محبوبهم ، فكان منهم ما كان .

---

(١) « قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا . انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى » الآيتان ٧٢ ، ٧٣ من سورة طه .

الحكمة الثانية والأربعون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ[1] ؛ فَتَكُونَ كَحِمارِ الرَّحَى[2] ، يَسيرُ والْمَكانُ[3] الَّذِى ارْتَحَلَ إِلَيْهِ ــ هُوَ الَّذِى ارْتَحَلَ مِنْهُ ، وَلَكِنِ ارْحَلْ مِنَ الأَكْوَانِ إِلَى الْمُكَوِّنِ[4] . (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى)[5] ، وانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ صَلَى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ . (فَمَنْ كَانَتْ هِجرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ[6] ــ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ[7] وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصيبُها أو امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُها ــ فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ)[8] فَافْهَمْ قَوْلَهُ عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلامُ وَتَأَمَّلْ هَذَا الأَمْرِ إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ ، (والسَّلامُ)[9] .

---

(١) الكون : هو الكائن والحاصل .

(٢) كحمار الرحى : أى الطاحونة ، والتشبيه هنا للتنفير .

(٣) يسير والمكان ... : أى يسير الليل والنهار وهو فى موضعه .

(٤) ارحل من الأكوان الى المكون : وذلك بأن تخلص عملك لمولاك وحده .

(٥) (وأن الى ربك المنتهى) : يعنى منتهى كل شىء بدأ ، لأنه هو المبدىء والمعيد الفعال لما يريد وهذا مقام العارفين .

(٦) فمن كانت هجرته الى الله ورسوله : أى نية وقصدا .

(٧) فهجرته الى الله ورسوله : أى وصولا : وفى هذا المعنى الارتحال من الأكوان الى المكون ، وهو المطلوب من العبد .

(٨) فهجرته الى ما هاجر اليه : يعنى البقاء مع الأكوان ، وهو المنهى عنه .

(٩) (والسلام) لم تذكر هذه الكلمة فى آخر الحكمة فى شرح ابن عباد ، ولكنها وردت فى غيرها من الشروح . قال ابن عجيبة : ختمت الحكمة بالسلام ، لأنها تدل على سفر القلب من شهود الخلق الى شهود الخالق ، فناسب ختمها بالسلام ، لما فيه من ذكر السلامة .

قال ابن عباد :

العمل على طلب الجزاء والدرجات ، أو نيل الرتب العلية ، والمقامات — نقصان فى الحال ، وشوب فى اخلاص الأعمال ، وهو معنى الرحيل من كون الى كون ، وسبب ذلك بقاء اعتبار النفس فى أن تحصل لها رتبة ، أو تنال بسعيها موهبة ، وهذه كلها من الأكوان والأكوان كلها متساوية فى كونها أغيارا ، وان كان بعضها أنوارا ، وتمثيله بحمار الروحى مبالغة فى تقبيح حال العاملين على رؤية الأغيار ، وتلطف فى دعائهم الى حسن الأدب بين يدى الواحد القهار ، حتى يتحققوا بمعنى قوله تعالى : « وأن إلى ربك المنتهى »[1]

فيكون انتهاء سيرهم اليه ، وعكوف قلوبهم عليه ، وتكون أعمالهم اذ ذاك وفاء بحق العبودية ، وقياما بحقوق الربوبية فقط ، من غير التفات الى النفس على أى حالة تكون . فهذا هو تحقيق الاخلاص الكائن من مشاهدة التوحيد الخاص ، جعلنا الله من أهله بمنه وفضله ، إنه على كل شىء قدير (وانظر الى قوله ﷺ : « فمن كانت هجرته الى الله ورسوله — فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها — فهجرته الى ما هاجر اليه » فافهم قوله عليه الصلاة والسلام ، وتأمل هذا الأمر أن كنت ذا فهم) .

فى هذا الحديث النبوى تنبيه على المعنى الذى ذكره ، وموضع الاعتبار والتأمل هو — والله أعلم — قوله فى القسم الثانى — فهجرته الى ما هاجر اليه ، أى لا نصيب له من الوصول والقرب الذى حظى به من هاجر الى الله ورسوله ، وهو قوله : فهجرته الى الله ورسوله ، وهذا من باب حصر المبتدأ فى الخبر ، كما تقول : زيد صديقى أى لا صديق له غيرى .

وكأنه — ﷺ — نبه فى القسم الثانى بالدنيا التى يريد أن يصيبها ، والمرأة التى يريد أن يتزوجها — على حظوظ النفس ، والوقوف معها ، والعمل عليها كائنة ما كانت

---

(١) آية ٤٢ من سورة النجم .

وإن كان ظاهرها طلب الحظ العاجل ، فقوله : فهجرته الى الله ورسوله — هو معنى الارتحال من الأكوان الى المكون ، وهو المطلوب من العبد وهو مصرح به غاية التصريح .

وقوله : فهجرته الى ما هاجر اليه — هو البقاء مع الأكوان والتنقل فيها ، وهو الذى نهى عنه وهو مشار به غير مصرح .

فليكن المريد عالى الهمة ، والنية ، حتى لا يكون له التفات الى غيرٍ ، ولا كونٍ البتة ولقد أحسن الشاعر فى قوله :

وكل ما خلق الله وما لم يخلق محتقر فى همتى كشعرة فى مفرق[1]

قال رجل لأبى يزيد رضى الله تعالى عنه : أوصنى . فقال له : إن أعطاك من العرش الى الفرش ، فقل له : لا أنت أريد .

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه : لو خيرت بين ركعتين ، ودخول الفردوس — لاخترت الركعتين ، لأنى فى الفردوس بحظى ، وفى الركعتين بربى .

وقال الشبلى رضى الله تعالى عنه : احذر مكره ، ولو فى قوله : « وكلوا وأشربوا »[2] يريد : لا تستغرق فى الحظ ، ولتكن فى كل شيء به ، لا بنفسك ، فقوله تعالى : « وكلوا واشربوا » وان كان ظاهره اكراما وانعاما — فإن فى باطنه ابتلاء واختبارًا ؛ حتى ينظر من هو معه ، ومن هو مع الحظ .

---

(١) الشاعر هو المتنبى ، وهذان بيتان من ثلاثة هى .

أى عظيم أتقى أى المعالى أرتقى
وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محتقر فى همتى كشعرة فى مفرق

وعجيب أن يثنى المؤلف — ابن عباد على هذا القول الذى كان فى عرف النقاد مأخذا وغلوا أخلاقيا — على المتنبى ، لأن مما خلق الله (الرسول خير الخلق والملائكة ، وأشرف الخلائق) وكل ذلك لا وجه لا حتقاره ، لا اعتقادا ولا تصوفا (المراجع)

(٢) الأعراف / ٣١

الحكمة الرابعة والأربعون

قال ابن عطاء الله :

« رُبَّمَا كُنْتَ[1] مُسِيئاً[2] ، فَأَرَاكَ الْإِحْسَانَ[3] مِنْكَ ــ صُحْبَتُكَ مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالاً »

قال ابن عباد :

هذه أعظم آفة تدخل على من خالف ما ذكره ، وصحب من هو دونه فى الحال ، وهى استحسانه لما هو عليه ، فيؤديه ذلك الى رضاه ، عن نفسه ورؤيته لاحسانها ، وهو أصل كل شر كما تقدم .[4]

تعقيـــب

ترشد الحكمة الى أن صحبتك من هو دونك ــ شر محض ، لأنها تغطى عنك عيوبك ، وتبين لك كمالك ، فتوجب لك حسن الظن بنفسك ، فتعجب بأعمالك ، وتقنع بأحوالك ، وترضى عن نفسك ، والرضا عن النفس ، ورؤية احسانها ــ أصل كل شر .أما صحبتك لمن هو أحسن حالا منك ــ فتجعلك لا ترى من نفسك الا التقصير ، وفى ذلك خير كثير .

---

(١) رب : هنا : معناها التكثير .

(٢) مسيئا : يقال : أساء فلان : أى أتى بما يسوء ، وأساء الشىء : لم يحسن . وأساء الى فلان : الحق به ما يسيئه .

(٣) الاحسان : يقال أحسن : فعل ما هو حسن ، وفى القرآن الكريم « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم »

(٤) يشير ابن عباد هنا الى الحكمة السابقة وهى : « لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله » .

الحكمة الخامسة والأربعون

قال ابن عطاء الله :

« مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرزَ مِنْ قَلْبِ زَاهِدٍ ، وَلاَ كَثُرَ عَمَلٌ بَرزَ مِنْ قَلْبِ رَاغِبٍ »

قال ابن عباد :

مقادير الأعمال على حسب قلوب العمال ، فما صدر عن الزاهدين فى الدنيا من عمل طاعة ، وإن كان قليلا فى الحس — فهو كثير على التحقيق ، وما صدر عن الراغبين فيها من عمل بر — وان كان كثيرا فى الحس — فهو قليل على التحقيق ، وذلك لأن الزاهدين سلموا من الآفات التى تقدح فى اخلاص أعمالهم من مراآة الناس ، والتصنع لهم ، وطلب الأعواض الدنيوية عليها منهم ، لأنهم زهدوا فيها ، فيتحصل لهم قبول أعمالهم ، فيتوفر لهم قليلها بحسب ذلك ويكثر . والراغبون فى الدنيا تعتريهم الآفات المبطلة لأعمالهم القادحة فى اخلاصهم ، بسبب رغبتهم فى الدنيا ، فلا تقبل منهم ، فيقل الكثير من أعمالهم ، لوجود النقصان فيها .

وقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : كونوا لقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل ، فانه لا يقل عمل مع التقوى . وكيف يقل عمل يتقبل !؟

وقد وصف الله تعالى ذكر المؤمنين بالكثرة ، لما تضمنه من وجود الاخلاص ، وعدم رياء الناس ، فقيل فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا »[1] قيل : يعنى خالصا ، فسمى الخالص كثيرا ، وهو ما أخلصت فيه النية ،

---

(١) آية ٤١ من سورة الأحزاب .

لوجه الله العظيم ، ووصف ذكر المنافقين بالقلة ، لما اشتمل عليه من عدم الاخلاص ، ووجود رياء الناس فقال تعالى : « يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا »[1] يعنى : غير خالص .

وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه ــ أنه قال : ركعتان من زاهد عالم ــ خير من عبادة المتعبدين المجتهدين الى آخر الدهر أبدا سرمدا .

وقال بعض الصحابة لصدر التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم كانوا خيرا منكم ، قيل : ولم ذلك ؟ قال : كانوا أزهد منكم فى الدنيا . وعن بعض الصحابة أيضا ، قال : تابعنا الأعمال كلها ــ فلم نر فى أمر الدنيا والآخرة أبلغ من الزهد فى الدنيا .

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه : سألت معروفا الكرخى ــ رضى الله تعالى عنه ــ عن الطائعين لله ، بأى شىء قدروا على الطاعة ؟ فقال : باخراج الدنيا من قلوبهم ، ولو كان شىء منها فى قلوبهم ــ ما صلحت لهم سجدة .

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله تعالى عنه : شكا بعض الناس لرجل من الصالحين : أنه يعمل أعمال البر ، ولا يجد حلاوة فى قلبه ، فقال : لأن عندك بنت ابليس ، وهى الدنيا ، ولابدّ للأب أن يزور ابنته فى بيتها ، وهو قلبك ، ولا يؤثر دخوله الا فسادا .

وكان أبو محمد بن سهل ــ رضى الله تعالى عنه ــ يقول : يعطى الزاهد ثواب العلماء والعباد ، ثم يقسم على المؤمنين ثواب أعماله ، قال : ولا يُرَى فى القيامة أحدٌ أفضل من ذى زهد عالم ورع .

تعقيـــب :

العمل القليل من الزاهد ليس بقليل ، وذلك لفراغ قلبه ، وسلامة وقته ، وحضوره فى عبادته ، والعمل الكثير من غير الزاهد ليس بكثير ، لمزاحمته بالاضداد ،

---

(١) من آية ١٤٢ من سورة النساء .

لأن حقيقة الزهد — برودة الدنيا على القلب . جاء فى الخبر : ليس الزهد بتحريم الحلال ، ولا باضاعة المال ، انما الزهد أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك .

وفى بعض الأخبار : أن سيدنا عيسى عليه السلام — مر برجل نائم ، والناس يتعبدون ، فقال له عيسى عليه السلام : قم فتعبد مع الناس ، فقال : تعبدت يا روح الله ، فقال له : وما عبادتك ؟ قال : تركت الدنيا لأهلها ، فقال له : نم ، نعمت العبادة هذه .

الحكمة السادسة والأربعون

قال ابن عطاء الله :

« حُسْنُ الْأَعْمَالِ[1] ــ نَتَائِجُ حُسْنِ الْأَحْوَالِ[2] ، وَحُسْنُ الْأَحْوَالِ ــ مِنَ التَّحَقُّقِ[3] فِي مَقَامَاتِ الْإِنْزَالِ » .

قال ابن عباد :

حسن الأعمال ــ توفيقها بما يجب لها من شروط وآداب عبودية لله تعالى ، لا لطلب حظ عاجل ، ولا ثواب آجل .

وحسن الأحوال ــ أن تكون سالمة من العلل والدعاوى ، موسومة بسمة الصدق . والتحقق فى مقامات الانزال ــ هو ارتواء القلب بما ينزله الحق تعالى فيه من مقامات العلوم والمعارف ، بحيث ينتفى عنه كل شك وريب .

وهذه الثلاثة المذكورة مرتب بعضها على بعض ، وهو معنى ما يقوله الإمام أبو حامد رضى الله تعالى عنه : لا بد فى كل مقام من مقامات اليقين : من علم وحال وعمل . فالعلم ينتج الحال ، والحال ينتج العمل . وهذا الكلام الذى ذكره المؤلف رحمه الله تعالى ــ نوع استدلال على ما قاله فى الزاهد والراغب .

---

(١) الأعمال : حركة الجسم بالمجاهدة . الأحوال : حركة القلب بالمكابدة . المقامات سكون القلب بالطمأنينة . حسن الأعمال : أى خلوها عما يعوقها عن القبول من الرياء ونحوه .

(٢) نتائج حسن الأحوال : أى القائمة بالقلوب من الزهد فى الدنيا ، والاخلاص لله

(٣) من التحقق : أى التمكن

فى مقامات الانزال : أى المقامات التى تنزل فى قلوب العارفين . وهى كناية عن المعارف الإلهية .

تعقيــــب :

حركة القالب ــ تدل على صلاح القلب أو فساده ، لقوله عليه الصلاة والسلام :

« ان فى الجسد مضغة ، اذا صلحت ــ صلح الجسد كله ، و اذا فسدت ــ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب .

فاذا تحقق القلب بالزهد مثلا ، وصار له حالا أو مقاما ــ ظهر ذلك على جوارحه من الثقة بالله ، والاعتماد عليه ، وعدم التلهف والجرى وراء الأسباب .

وقد قيل : حسن أدب الظاهر ــ عنوان حسن أدب الباطن .

والرسول ﷺ يقول : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه .

الحكمة السابعة والأربعون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ تَتْرُكِ الذِّكْرَ[1] ، لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ اللهِ فِيهِ[2] ، لِأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ[3] أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ ، فَعَسى أَنْ يَرْفَعَكَ[4] مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وَجُودِ غَفلَةٍ — إِلى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ[5] ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقْظَةٍ — إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وجُودِ حُضورٍ[6] وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ — إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى الْمَذْكُورِ[7] ، ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾[8] » .

قال ابن عباد :

الذكر أقرب الطرق الى الله تعالى ، وهو عَلَمٌ على وجود ولا يته ، كما قيل : الذكر منشور الولاية ، فمن وفق للذكر — فقد أعطى المنشور ، ومن سلب الذكر — فقد عزل . قال الشاعر :

---

(١) لا تترك الذكر : يعنى : لازمه ، وداوم عليه .

(٢) لعدم حضورك مع الله فيه . بأن كان قلبك مشغولا بالوساوس الشيطانية والأغراض الدنيوية .

(٣) لأن غفلتك عن وجود ذكره — أشد .. لأن غفلتك عنه — اعراض عنه بالكلية وفى ذكره اقبال عليه بوجه ما .

(٤) فعسى أن يرفعك : أى يرقيك . ذكر مع وجود غفلة : أى غفلة عنه سبحانه .

(٥) ذكر مع وجود يقظه : أى تيقظ قلب .

(٦) ذكر مع وجود حضور : أى حضور فى حضرة الاقتراب ، بأن يدخل القلب حضرة الرب ، فيراقبه ، ولا يغفل عنه .

(٧) غيبة عما سوى المذكور : وهو الله تعالى . وفى هذا المقام ينقطع ذكر اللسان ، أو يخرج من غير قصد ، بل يكون الحق المبين لسانه الذى ينطق به ، لان صاحبه فى مقام الحب .

(٨) « وما ذلك على الله بعزيز » — آية ١٧ من سورة فاطر ، والمعنى ليس ذلك بممتنع فى قدرته ، ولا ببعيد عن كرمه .

والذكر أعظم باب أنت داخله   لله ، فاجعل له الانفاس حراسا

قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه : الذكر عنوان الولاية ، ومنار الوصلة ، وتحقيق الارادة ، وعلامة صحة البداية ، ودلالة صفاء النهاية ، فليس وراء الذكر شيء ، وجميع الخصال المحمودة — راجعة الى الذكر ، ومنشؤها عن الذكر ، وفضائل الذكر أكثر من أن تحصى ، ولم لم يرد فيه الا قوله تعالى فى كتابه العزيز : « فاذكرونى أذكركم »(١) ، وقوله عز وجل فيما يروى عنه رسول الله ﷺ : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى ، ان ذكرنى فى نفسه — ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ — ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلىّ شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب إلىّ ذراعا — تقربت منه باعا ، وإن أتانى يمشى — أتيته هرولة » — لكان فى ذلك اكتفاء وغُنْيَةٌ ، وهذا الحديث متفق على صحته .

قالوا : ومن خصائصه أنه غير مؤقت بوقت ، فما من وقت الا والعبد مطلوب به : إما وجوبا وإما ندبا ، بخلاف غيره من الطاعات .

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة الا جعل لها حدا معلوما ، ثم عذر أهلها فى حال العذر — غير الذكر ، فانه لم يجعل له حدا ينتهى اليه ، ولم يعذر أحدا فى تركه الا مغلوبا على عقله ، وأمرهم بذكره فى الأحوال كلها ، فقال عز من قائل : « فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم(٢)وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا »(٣)أى بالليل والنهار ، وفى البر والبحر ، والسفر والحضر ، والغنى والفقر ، وفى الصحة والسقم ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال .

وقال مجاهد رضى الله تعالى عنه : الذكر الكثير ألاّ ينساه أبدا ، وروى عن رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر الله ، حتى يقولوا مجنون » .

فينبغى للعبد أن يستكثر منه فى كل حالاته ، ويستغرق فيه فى جميع أوقاته ،

---

(١) من آية ١٥٢ من سورة البقرة .

(٢) من آية ١٠٣ من سورة النساء .

(٣) آية ٤١ من سورة الأحزاب .

ولا يغفل عنه ، وليس له أن يتركه لوجود غفلته فيه ، فإن تركه له ، وغفلته عنه — أشد من غفلته فيه ، فعليه أن يذكر الله تعالى بلسانه ، وان كان غافلا فيه ، فلعل ذكره ، مع وجود الغفلة — يرفعه الى الذكر مع وجود اليقظة ، وهذا نعت العقلاء .

ولعل ذكره مع وجود اليقظة — يرفعه الى الذكر مع وجود الحضور ، وهذه صفة العلماء .

ولعل ذكره مع وجود الحضور — يرفعه الى الذكر مع وجود الغيبة عما سوى المذكور ، وهى مرتبة العارفين المحققين من الأولياء .

قال تعالى : « واذكر ربك اذا نسيت[1] أى اذا نسيت مادون الله ، عند ذلك تكون ذاكرا لله ، وفى هذا المقام ينقطع ذكر اللسان ، ويكون العبد محوا فى وجود العيان ، وفى هذا المعنى أنشدوا :

ما ان ذكرتك الا هم يلعننى	سرى وقلبى وروحى عند ذكراك
حتى كأن رقيبا منك يهتف بى	اياك ويحك والتذكار اياك
أما ترى الحق قد لاحت شواهده	وواصل الكل من معناه معناك

وقال الواسطى مشيرا الى هذا المقام : الذاكرون فى ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره لأن ذكره سواه[2]

وقال ابو العباس بن البناء فى كلام ذكره على مقدمة كتاب أبى العزّ تقى الدين بن المظفر الشافعى ، وهو كتاب « الاسرار العقلية فى الكلمات النبوية » : ورأيت هذا الكلام بخطه رحمه الله : ومن أحسن الذكر ما هاج عن خاطر وارد من المذكور جل ذكره ، وهذا هو الذكر الخفى ، عند المتصوفة على الاستمرار والتمكن فى الاسرار .

وأما قولهم : حتى يتمكن الذاكر الى حالة يستغرق بها عن الذكر — فليس ذلك تمكن حلول ولا اتحاد . بل حكمة وقدرة من عزيز حكيم .

---

(١) من آية ٢٤ من سورة الكهف .

(٢) يريد أن حقيقة ذات الله غير حقيقة الذكر الذى يفعله العبد الذاكر : وقد عبر عن هذه الفكرة تعبيرا شديد الاختصار والإيجاز حين قال « لأن ذكره سواه » (المراجع)

وبيان ذلك : أن يكون القلب عند الذكر فى الذكر فارغا من الكل ، فلا يبقى فيه غير الله جل ذكره،فيصير القلب بيت الحق ، ويمتلىء منه ، فيخرج الذكر من غير قصد ولا تدبير ، وحينئذ يكون الحق المبين لسانه الذى ينطق به ، فإن بطش هذا الذاكر — كان يده الذى يبطش بها ، وإن سمع — كان سمعه الذى يسمع به قد استولى المذكور العلى على الفؤاد، فامتلكه ، وعلى الجوارح ، فصرفها فيما يرضيه ، وعلى الصفات من هذا العبد ، فقلبها كيف شاء فى مرضاته ، فلذلك يخرج الذكر من غير تكلف ، وتنبعث الأعمال بالطاعات : نشاطا ولذة من غير كلال .

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »[1] إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون[2] وقد وصف الله قلب أم موسى عليه السلام بمعنى ذلك فى قوله الحق : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغا »[3] أى فارغا من كل شيء الا من ذكر موسى ، فكادت أن تبدى به من عير قصد منها لذكره ولا تدبير . بل كان تركها للتصريح بذكره — صبرا لما ربط الله على قلبها ؛ لتكون من المؤمنين بما أوحى اليها من قبل فى شأن موسى ، وبأنه من المرسلين .

وبذلك يندفع الإشكال الذى ذكره أبو العز ، ووصفه بالعظم ، وهو اجتماع الضدين فى بادىء الرأى : وهما الذكر والغفلة عن الذكر .

وهذه المعالم والمراقى لا يعرف حقائقها الا السالكون وجدانا ، والعلماء ايمانا وتصديقا ، فاياك التكذيب بآيات الله ، فتكون من الصم البكم فى الظلمات .

ولما كان المذكور لا يجوز عليه وصف الفقد والعدم ، ولا يمنعه حجاب ، ولا يحويه مكان ولا يشتمل عليه زمان ، ولا يجوز عليه الغيبة بوجه ، ولا يتصف بحوادث المحدثين ، ولا يجرى عليه صفات المخلوقين — فهو حاضر عينا ومعنى ، وشاهد سرا ونجوى ، إذ هو القريب من كل شيء ، وأقرب الى الذاكر له من نفسه ، من حيث الا يجاد له ، والعلم به ، والمشيئة فيه ، والقدرة والتدبير له ، والقيام عليه .

---

(١) آية ٤ من سورة الجمعة

(٢) آية ١٢٨ من سورة النحل

(٣) من آية ١٠ من سورة القصص

خلق الخليقة ، فلا تلحقه أوصافها ، وأوجد الأعداد ، فلا تحصره معانيها ، سبحانه هو العلى الكبير ، انتهى كلام الشيخ أبى العباس رحمه الله فى معنى المقام الثالث من مقامات الذكر ، وهو فى غاية الحسن والتحقيق مشيرا الى توحيد الخواص من أهل هذا الطريق ، فلا ينبغى أن يستبعد العبد الوصول الى هذا المقام الكريم ، فليس ذلك بعزيز على الفتاح العليم ، فعلى العبد القيام بحق الأسباب ، ومن الله رفع الحجاب .

الحكمة الثامنة والأربعون

قالة ابن عطاء الله :

« مِنْ عَلاَمَاتِ مَوْتِ الْقَلْبِ ـــ عَدَمُ الْحُزنِ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنَ الْمُوافِقَاتِ ، وَتَرْكُ النَّدَمِ عَلَى مَا فَعَلْتَهُ مِنْ وُجُودِ الزَّلاَتِ » .

قال ابن عباد :

القلب اذا كان حيا بالايمان ـــ حزن على ما فاته من الطاعات ، وندم على ما فعله من الزلات ، ومقتضى هذا وجود الفرح بما يستعمل فيه من الطاعات ، ويوفق له من اجتناب المعاصى والسيئات . وقد جاء فى الخبر : « من سرته حسنته ، وساءته سيئته ـــ فهو مؤمن » .

فإن لم يكن العبد بهذا الوصف ، وعَدِمَ الحزنَ على ما فاته ، والندم على ما أتاه ـــ فهو ميت القلب ، وانما كان ذلك من قِبَلِ أن أعمال العبد الحسنة والسيئة ـــ علامتان على وجود رضا الله تعالى عن العبد ، أو سخطه عليه .

فاذا وفق الله تعالى عبده للصالحات ـــ سره ذلك ، لأنه علامة على رضاه عنه ، وغلب حينئذ رجاؤه ، واذا خذله ، ولم يعصمه ـــ فعمل بالمعاصى ـــ ساءه ذلك ، وأحزنه ، لأنه علامة على سخطه عليه ، وغلب حينئذ خوفه . والرجاء يبعث على الاجتهاد فى الطاعات . وليس من مقتضاه تركها ، وعدم الحزن على ما فاته منها أمنا واغترارا .

والخوف يبعث على المبالغة فى اجتناب المعاصى والسيئات ، وليس من مقتضاه فعلها وترك الندم عليها اياسا[1] وقنوطا .

---

(١) إياساً : أى يأسا .

وفى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ : إذ أتاه آت ، فلما حاذانا ، ورأى جماعتنا ـــ أناخ راحلته ومشى الى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أوضعت راحلتى من مسيرة تسع ، فسيرتها اليك ستا ، وأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وأنصبت راحلتى لا سألك عن إثنتين ، أسهرتانى .

فقال له النبى ﷺ : من أنت ؟ قال زيد الخيل : قال : بل أنت زيد الخير . سل ، فرب معضلة قد سئلت عنها . قال : جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد ، وعلامته فيمن لا يريد ، فقال له النبى ﷺ : بخ بخ[1] !كيف أصبحت يا زيد ؟ قال أصبحت أحب الخير وأهله ، وأحب أن يعمل به ، واذا فاتنى حننت اليه ، واذا عملت عملا ، قل أو كثر ـــ ايقنت بثوابه .

قال هى هى بعينها يا زيد ، ولو أرادك الله للأخرى ـــ هيأك لها ، ثم لا يبالى فى أى واد هلكت ، فقال زيد : حسبى حسبى ، ثم ارتحل ، ولم يثبت .

---

(١) بَخْ بَخْ ، بَخٍ بَخٍ : تقال عند الرضا والاعجاب بالشىء ، أو المدح ، أو الفخر .

الحكمة التاسعة والأربعون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ يَعْظُمِ الذَّنْبُ عِنْدَكَ ــ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ ــ اسْتَصْغَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ ».

قال ابن عباد :

عظمة الذنب عند مرتكبه على وجهين : أحدهما : أن يَعْظُمَ عنده عظمةً تحمله على التوبة منه ، والاقلاع عنه ، وصدق العزم على ألا يعود الى مثله ، فهذه عظمة محمودة ، وهى من علامات ايمان العبد ، كما قلنا ، قال عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وأن الفاجر[1] يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، قال به هكذا فأطاره[2] .

ويقال : إن الطاعة كلما استُصْغِرت ــ كَبُرت عند الله ، وإن المعصية كلما استُعْظِمتْ صَغُرت عند الله تعالى .

والثانى : أن يَعْظُم عنده عظمة توقعه فى اليأس والقنوط ، وتؤديه الى سوء الظن بالله تعالى ، فهذه عظمة مذمومة ، قادحة فى الايمان ، وهى شر عليه من ذنوبه .

وسبب ذلك جهله بصفات مولاه المحسن الجواد الكريم ، ووقوفه مع نفسه ، وقياسه بعقله وحدسه ، ولو كان عارفا بالله حق المعرفة ــ لا ستحقر ذنوبه فى جنب

---

(١) وفى رواية : والمنافق يرى ذنوبه .

(٢) قال به هكذا : أى فعل به هكذا ، وأشار بيده .

كرمه وفضله ، فأى قدر للعبد أو قيمة ؛ حتى يقع فى ذنب لا يسعه عفو ربه ، ويكبر عليه أن يغفره !؟

قال فى التنوير : واعلم أنه لا بد فى مملكته من عباد هم نُصُبُ الحِلْمِ ، ومحل ظهور الرحمة والمغفرة ، ووقوع الشفاعة .

وأفهم قوله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لو لم تذنبوا ــ لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون الله تعالى ، فيغفر لهم » .

وقوله ﷺ : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى »

وجاء رجل إلى الأستاذ أبى الحسن قدّس الله سره العزيز ، فقال : يا سيدى كان البارحة بجوارنا من المنكرات كيت وكيت ، وظهر من ذلك الرجل استغراب أن يكون هذا ، فقال : يا هذا ! كأنك تريد ألا يعصى الله تعالى فى مملكته ! من أحب ألا يعصى الله فى مملكته ــ فقد أحب ألا تظهر مغفرته ! وألا تكون شفاعة رسول الله ﷺ له ! وكم من مذنب ــ كثرت إساءته ومخالفته ــ وجبت له الرحمة من ربه ، فكان له راحما ، وبقدر إيمانه وان عصا عالما . أ هـ .

فلا ينبغى للعبد أن يستعظم ذنبه ؛ استعظاما يؤدّيه الى أن يلقى بيديه اياسا من روحه ، وقنوطا من رحمته ، وسوء ظن به .

بل عليه أن يتوب الى ربه منه ، ويرجع اليه عنه ، ويعلم حكمة الله تعالى فى تسليطه عليه ، وتخليته بينه وبينه .

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ : « لولا أن الذنب خير للمؤمن من العُجْبِ ــ ما خلّى الله تعالى بين مؤمن وبين ذنب أبدا » .

فنبهك بهذا على أن الذنب مانع من وجود العجب الذى هو حجاب بين العبد وبين مولاه ، لأن صاحبه ناظر الى نفسه ، لا الى ربه ، مستعظم لطاعته وعبادته ، ملاحظ لذلك ، ومساكن له ، بخلاف ذلك الذنب ، لأنه يوجب له الخوف والحذر ، واللجأ الى الله تعالى ، والفرار اليه من نفسه .

والعُجْبُ يصرف العبد عن الله تعالى ، والذنب يصرفه اليه ، والعُجْبُ يقبل به على نفسه ، والذنب يقبل به على ربه ، والعجب يؤديه الى الاستغناء ، والذنب يؤديه

الى الافتقار ، وأحب أوصاف العبد الى الله عز وجل ـــ افتقاره الى مولاه ، وأشرف أحوال المؤمن ـــ ما يرده اليه ، ويقبل به عليه .

تعقيـــب :

لما افادت الحكمة السابقة أن الندم على المعصية ـــ فيه حياة للقلب ـــ أشارت هذه الحكمة إلى أن المراد بالندم ـــ هو الندم الذى لا يؤدى بصاحبه الى اليأس من رحمة الله . إذ إن المطلوب من المسلم أن يكون خائفا راجيا ، تحقيقا لقوله تعالى : « ويرجون رحمته ويخافون عذابه » من آية ٥٧ من سورة الاسراء وقوله تعالى : « انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهبا » (من آية ٩٠ من سورة الأنبياء) .

فمن عرف ربه ـــ استصغر ـــ فى جنب كرم الله ـــ ذنبه . قال تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (من آية ١١٦ من سورة النساء) . وفى الحديث الصحيح : « أن العبد اذا أذنب الذنب ، فقال : يارب ، اغفر لى . قال الله تعالى : اذنب عبدى ذنبا ، فعلم أن له ربا ، يغفر الذنب ، ويأخذ به ، أشهدكم بأنى قد غفرت له . . الحديث » .

ولله در القائل :

ذنوبى ـــ إن فكرت فيها ـــ كثيرة ورحمة ربى ـــ من ذنوبى ـــ أوسع
هو الله مولاى الذى هو خالقى وإنى لـه عبـد : أذل وأخضع
وما طمعى فى صالح قد عملته ولكننى ـــ فى رحمة الله ـــ أطمع

الحكمة الخمسون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ صَغِيرَةَ إِذَا قَابَلَكَ عَدْلُهُ ، وَلاَ كَبِيرَةَ إِذَا وَاجَهَكَ فَضْلُهُ »

قال ابن عباد :

إذا ظهرت الصفات العلية ـــ بطلت أعمال العاملين ، فإذا ظهرت صفة العدل على من أبغضه ومقته ـــ بطلت حسناته ، وعادت صغائره كبائر .

وإذا ظهر وصف الكرم والفضل لمن أحبه ـــ اضمحلت سيئاته ، ورجعت كبائره صغائر . قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه : إن وضع عليهم عدله ـــ لم تبق لهم حسنة ، وإن نالهم فضله ـــ لم تبق لهم سيئة .

ومن دعائه رضى الله تعالى عنه : إلٰهى ! إن أحببتنى ـــ غفرت سيئاتى ، وإن مقتنى ـــ لم تقبل حسناتى .

وما أحسن قول سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه فى دعائه ومناجاته : واجعل سيآتنا سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت ؛ فالإحسان لا ينفع مع البغض منك ، والاساءة لا تضر مع الحب منك .

وسيأتى من مناجاة المؤلف رحمه الله فى مثل هذا المعنى قوله : الٰهى ! كَمْ من طاعة بنيتها ، وحالة شيدتها ـــ هدم اعتمادى عليها عدلك . بل أقالنى منها فضلك .

تعقيب

اذا قابلك الحق ـــ سبحانة وتعالى بعدله ـــ لم تبق لك صغيرة ، وعادت

صغائرك كبائر . واذا واجهك الحق بفضله وكرمه واحسانه — لم تبق لك كبيرة ، وعادت كبائرك صغائر . فكل الذنوب كبائر اذا قابل العبد عدل الله تبارك وتعالى ، وكل الكبائر صغائر اذا قابل العبد فضل الله ، فمن سبقت له العناية لا تضره الجناية .
وفيما أوحى الله إلى بعض أنبيائه : قل لعبادى الصديقين : لا يغتروا ؛ فإنى إن أقم عليهم عدلى وقسطى — أعذبهم غير ظالم لهم ، وقل لعبادى المذنبين لا يقنطوا؛فإنى لا يتعاظمنى ذنب أغفره لهم .
وقال تعالى : « نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم »
(آيه ٤٩ من سورة الحجر) وقال عز وجل :
« وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب »
(آيه ٦ من سورة الرعد)

الحكمة الحادية والخمسون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ عَمَلَ أَرْجَى لِلْقُلُوبِ[1] مِنْ عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُودُهُ[2] وَيُحْتَقَر عِنْدَكَ وُجُودُهُ »[3]

قال ابن عباد :

فى النسخ الموجودة بأيدينا لا عمل أرجى للقلوب ، ومعناه على هذا الوجه : أى العمل الموصوف بهذه الصفة ــ لا يلتفت اليه القلب ، ولا يعتبره ، وفى عدم التفاته واعتباره صلاحه ، وتحرره من رق رؤيته ، فيبقى حينئذ مع ربه ، لا مع عمله ، ويكون ذلك على حذف مضاف تقديره : لا عمل أرجى لصلاح القلوب ، أو مافى معناه .

وسيأتى من كلام المؤلف ما يناسب هذا المعنى ، وهو قوله : قطع السائرين له ، والواصلين اليه عن رؤية أعمالهم ، وشهود أحوالهم الى آخره .

والغالب على الظن أن الذى قصده المؤلف رحمه الله وذكره ــ انما هو لفظ القبول فغلط الناسخ فقلب حروفه ، ولا يحتاج فى هذا الى حذف ، وتقريره على هذا الوجه أن تقول :

---

(١) لا عمل أرجى للقلوب : أى لا عمل من أعمال البر أكثر رجاء لاصلاح القلوب .

(٢) من عمل يغيب عنك شهوده : أى بأن تشهد أن الذى وفقك له هو الله تعالى ، ولولاه ما صدر منك .

(٣) يحتقر عندك وجوده : أى بألا تعتمد عليه فى تحصيل أمر من الأمور ، كالوصول الى الله ، وذلك لرؤيتك التقصير فيه .

سلامة العمل من الآفات شرط فى قبوله ، لأن صاحبه مُتَّقٍ لله تعالى[1] .

وقد قال عز من قائل : « إنما يتقبل الله من المتقين . »[2] وإنما يسلم العمل من الآفات باتهام النفس فى القيام بحقه ، ورؤية تقصيره فيه ، فيغيب عنه إذ ذاك شهوده ، ويحتقر عنده وجوده ، فلا يساكنه ، ولا يعتمد عليه .

فإن لم يكن على هذا الوصف بل كان ناظرا إليه ، ومستعظما له ، غائبا عن شهود منة الله تعالى عليه فى توفيقه له ــ أوقعه ذلك فى العجب ؛ فحبط لذلك عمله ، وخاب سعيه .

قال أبو سليمان رضى الله تعالى عنه : ما استحسنت من نفسى عملا فاحتسبته .

وقال على بن الحسين رضى الله تعالى عنه : كل شىء من أفعالك إذا اتصلت به رؤيتك ــ فذلك دليل على أنه لا يقبل منك ؛ لأن القبول مرفوع مغيب عنك ، وما انقطعت عنه رؤيتك ــ فذلك دليل على القبول :

وقد سئل بعض العارفين : ما علامة قبول العمل ؟ قال : نسيانك إياه ، وانقطاع نظرك عنه بالكلية ، بدلالة قوله تعالى « إليه يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ والعملُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ »[3] . قال : فعلامة رفع الحق تعالى ذلك العمل ــ ألا يبقى عندك منه شىء ، فإنه إذا بقى فى نظرك منه شىء ــ لم يرتفع اليه ، لبينونة بين عنديتك وعنديته .

فينبغى للعبد إذا عمل عملا أن يكون نَسْيًا مَنْسِياً ، بما ذكرناه من اتهام النفس ، ورؤية التقصير ؛ حتى يحصل له قبوله .

---

(١) فى بعض النسخ « لا عمل أرجى للقبول » والمعنى : لقبول الله له : يقول « ابن عجيبة : لفظ القلوب أوفق للسياق ، إذ الكلام كله فى موت القلوب وحياتها .

(٢) من آية ٢٧ من سورة المائدة .

(٣) من آية ١٠ من سورة فاطر .

الحكمة السادسة والخمسون

قال ابن عطاء الله :

« النورُ جُنْدُ القَلب[1] ، كَما أنَّ الظُّلْمَةَ جُنْدُ النَّفس[2] ، فإذَا أرادَ الله أنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ[3] ـــ أمَدَّهُ بِجُنودِ الأنْوارِ[4] ، وَقَطَعَ عَنْهُ مَدَدَ الظُّلَمِ[5] والأغْيَارِ »[6]

قال ابن عباد :

نور التوحيد واليقين ، وظلمة الشرك والشك ـــ جندان للقلب ، والنفس ، والحرب بينهما سجال ، فاذا أراد الله نصرة عبده ـــ أمد قلبه بجنوده ، وقطع عن نفسه مدد جنودها ، واذا أراد خذلان عبده ـــ فعل العكس .

فاذا مال القلب الى العمل بأمر محمود مؤلم فى الحال ، متلذذ به فى المآل ، ومالت النفس الى العمل بأمر مذموم متلذذ به فى الحال ، مؤلم فى المآل ، وتنازعا وتقاتلا سارع النور ـــ الذى هو من أمر الله تعالى ورحمته ـــ الى نصرة القلب ، وبادرت الظلمة التى هى من وساوس الشيطان ، ولمته[7] ـــ الى نصرة النفس ، وقام صف القتال بينهما .

---

(١) النور جند القلب : أى يَتوصَّل به القلب الى ما يقصده ، ويتوجه اليه ، وهو حضرة الرب .

(٢) الظلمة جند النفس : أى تتوصل بها الى مقصودها ، وهو الشهوات والأغراض العاجلة

(٣) ينصر عبده : أى يعينه على نفسه ، وقمع شهواتها .

(٤) أمده بجنود الأنوار : أى بجنود هى الأنوار ، أو الانوار الشبيهة بالجنود .
ومعنى « أمده » أمد قلبه . وفى رواية الشيخ « زروق » أيده .

(٥) قطع عنه مدد الظلم : أى قطع عنه مددا : هو الظلم : بفتح اللام : جمع ظلمة .

(٦) الظلم والأغيار : هذا العطف من عطف المرادف فالظلم هى الأغيار .

(٧) اللَّمة : الشدة ، ويقال أصابت فلان من الجن لمَّة ، وهو المس والشىء القليل .

فإن سبقت للعبد من الله تعالى سابقة السعادة ــ اهتدى القلب بنور الله تعالى واستهان بالعاجلة ، ورغب فى الآجلة ، وعمل القلب بما مال اليه ، وإن آلمه فى الحال ، لما يرجوه من التنعم به فى المآل ، وإن سبقت له من الله الشقاوة ــ والعياذ بالله ــ ذهل القلب عن النور ، وأعمته الظلمة عن منفعة الآجل ، واغتر بلذة العاجل ، وعمل بما مالت اليه نفسه ، وإن آلمه فى المآل ، لما يحصل لها من لذة الحال ، وعند التقاء الصفين ، والتحام القتال بين الجندين ــ لا سبيل للعبد الا فزعه الى الله تعالى ، ولياذه به ، وكثرة ذكره ، وصدق توكله عليه ، واستعاذته من الشيطان الرجيم .

وهذه العبارات الخمس[1] من قوله : « انما أورد عليك الوارد ، لتكون به عليه واردا » الى هنا ــ تفنن فيها صاحب الكتاب ، وكررها بألفاظ مختلفة ، والمعانى فيها متقاربة ، وهذه عادته فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب ، رضى الله تعالى عنه .

تعقيـــب

النور جند القلب ، فهو يتوصل به الى ما يقصده ، ويتوجه اليه ، وهو حضرة الرب سبحانه وتعالى ، والظلمة التى هى من وساوس الشيطان ــ جند النفس الأمارة بالسوء ، والحرب بينهما سنجال ، فاذا أراد الله نصر عبده ــ أمد قلبه بجنود الأنوار ، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار ، واذا أراد خذلان عبده ــ أمد نفسه بالأغيار ، وقطع عن قلبه شوارق الأنوار . فعلى العبد أن يفزع الى ربه عند التقاء هذين الجندين : جند الظلم ، وجند الأنوار ، ويسأل الله الاعانة على هذه النفس الأمارة بالسوء ــ الى أن يصل الى الله تعالى ، فينقطع حينئذ حكم النفس ، وتصير مقهورة مغلوبة . « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » (من آية ١٢٦ من سورة آل عمران) .

---

(١) يقصد الحكم السابقة من ٥٢ ــ ٥٦ .

الحكمة السابعة والخمسون

قال ابن عطاء الله :

« النُّورُ لَهُ الكَشْفُ[1] ، وَالْبَصِيرَةُ لَهَا الحُكْمُ[2] ، وَالْقَلْبُ لَهُ الإِقْبَالُ وَالإِدْبَارُ »[3]

قال ابن عباد :

هذه ألفاظ مختلفة لمعان متغايرة ؛ فالنور يفيد كشف المعانى المغيبات ؛ حتى تتضح وتشاهد . والبصيرة التى هى ناظر القلب ، تفيد الحكم ، وهو صحة ما شاهدته .

والقلب له الاقبال ؛ عملا بمقتضى ما شاهدته البصيرة ، وله أيضا الأدبار ؛ تركا للعمل بمقتضى ما شاهدته البصيرة .

تعقيب

النور من شأنه أن يكشف الأمور ، ويوضحها ؛ حتى يظهر حسنها من قبحها .

والبصيرة المفتوحة من شأنها : أن تحكم على الحسن بحسنه ، وعلى القبيح بقبحه . أما القلب فهو يقبل على ما يثبت صحته ، ويدبر عما يثبت قبحه .

---

(١) النور له الكشف : المراد بالنور : الذى يقذفه الله فى قلب عبده .
ومعنى له الكشف : أى كشف المعانى مثل حسن الطاعة ، وقبح المعصية .

(٢) والبصيرة لها الحكم : البصيرة : هى عين القلب . ومعنى لها الحكم : أى إدراك الامر الذى شاهدته .

(٣) والقلب له الاقبال والادبار : الاقبال : أى على ما كشف للبصيرة ، وحكمت بحسنه كالطاعة .
والادبار : أى عما كشف لها ، وحكمت بقبحه كالمعصية .

فالقلب له الاقبال على ما كشف للبصيرة ، وحكمت بحسنه كالطاعة ، وله الادبار عما كشف لها ، وحكمت بقبحه ، كالمعصية .

فنور القلب هو الأصل ، وما بعده تبع له ، قال تعالى : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّه » (من آية ٢٢ من سورة الزمر)

وقال تعالى : « فَمَنْ يُرِدِ الله أن يهديه يَشْرَحْ صَدرهُ الإسْلاَمِ » (من آية ١٢٥ من سورة الأنعام) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ألا إن فى الجسد مضغة : اذا صلحت ـــ صلح الجسد كله ، واذا فسدت ـــ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »

(رواه البخارى ومسلم)

الحكمة الثامنة والخمسون

قال ابن عطاء الله :

« لاَ تُفْرِحْكَ الطَّاعَةُ ؛ لأَنَّها ، بَرَزَتْ مِنْكَ ، وأَفْرَحْ بَهَا ؛ لأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْ اللهِ إِليّكَ . (قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحواْ هو خيرٌ مِّما يَجْمَعُون) » .

قال ابن عباد :

الفرح بالطاعة على وجهين : فرح بها من حيث شهودها من الله تعالى نعمة منه وفضلا ، فهذا هو الفرح المحمود ، وهو الذى طلب من العبد ، وهذا هو مقتضى شكرها .

وفرح بها من حيث ظهورها من العبد باختياره وارادته ، وحوله وقوته ، فهذا هو فرح مذموم ، منهى عنه ، وهو كفران النعمة ، وهو من العُجْبِ الْمُحْبط للعمل ، فالفرح بها على هذا الوجه فرح بلا شىء .
وسيأتى فى آخر الكتاب أنواع الفرح بالنعم — وما يحمد منها ، وما يذم — تامةً مستوفاة .

تعقيـــب

لا يكن فرحك بالطاعة من حيث صدورها عنك ، باختيارك وحولك وقوتك ، فهذا هو الفرح المذموم المنهى عنه .

وإنما ليكن فرحك بالطاعة من حيث تفضل الله بها عليك ، فهى نعمة منه اليك ، وفضل من الله عليك ، وهذا هو الفرح المحمود المطلوب من العبد ، وهو المقتضى شكر النعمة لقوله تعالى : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُم » .
(من آية ٧ من سورة ابراهيم) .

فان ظهرت منك — أيها المريد — طاعة ، فلا تفرح بها حيث إنها برزت منك فتكون مشركا بربك ، فان الله غنى عنك وعن طاعتك . قال تعالى : « وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » (آية ٦ من سورة العنكبوت) .

وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل :

« يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم — كانوا على اتقى قلب رجل واحد — ما زاد ذلك فى ملكى شيئا » الحديث .

— وانما تفرح بها من حيث أنها هدية من الله اليك ، تدل على أنك من مظاهر كرمه وفضله ، فالفرح إنما هو بفضل الله ورحمته ، قال تعالى « قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مما يَجْمَعُون » (آية ٥٨ من سورة يونس)

الحكمة التاسعة والخمسون

قال ابن عطاء الله :

« قَطَعَ السَّائِرِين لَهُ[1] ، وَالْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ[2] عَنْ رُؤْيِةِ أَعْمَالِهِمْ ، وَشُهُودِ أَحْوَالِهِمْ : أَمَّا السَّائِرُون[3] ـ فَلأَنَّهُم لَمْ يَتَحَقَقُوا الصِّدق مَعَ اللهِ فِيهَا ـ وَأَمَّا الْوَاصِلُون[4] فَلأَنَّهُ غَيَّبَهُمْ بِشُهُودِه عَنْهَا » .

قال ابن عباد :

لقد أسبغ الله نعمته على الفريقين ، حيث فعل معهم ذلك ؛ لأنه أبقاهم معه ، و لم يدعهم لسواه ، فالواصلون ـ فعل ذلك بهم طوعا منهم ، والسالكون فعل ذلك بهم كرها « ولله يَسجُد مَنْ فى السمواتِ والأرضَ طَوْعاً وَكَرهاً »[5].

فالواصلون قطعهم عن ذلك ، لشهودهم له فى حضرة قربه ، ومن شاهده ـ لم يشهد معه غيره ، إذ محال أن يراه ، ويشهد معه سواه .

---

(١) قطع : أى حجب ومنع ، قال « ابن عجيبة » قطع بمعنى غيب . ولو عبر به لكان أظهر وأسهل ، لما فى تعبير القطع من الشؤم . ثم قال : وفى عبارته شىء من النقص ، فلو قال : غيب السائرين ، فلأنهم لم يتحققوا فيها الصدق مع الله ، وأما الواصلون ، فلأنهم لم يشهدوا مع الله سواه .

قطع السائرين له : أى حجبهم عن رؤية أعمالهم . وفاعل قطع : ضمير يعود الى الحق سبحانه وتعالى ، والسائرين والواصلين مفعول به » .

(٢) قطع الواصلين إليه : أى منعهم عن شهود أحوالهم . ففى الكلام لف ونشر مرتب كما يقول علماء البلاغة والبديع .

(٣) أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها : أى لرؤيتهم نقصا بعدم حضور قلوبهم مع الله حال فعلها ، فهم دائما متهمون نفوسهم فى توفية أعمالهم حقها .

(٤) وأما الواصلون فلأنه غيبهم بشهوده عنها : اى أنهم نسبوها إليه تَبرِّيًا من حولهم وقوتهم .

(٥) من آية ١٥ من سورة الرعد .

والسالكون قطعهم عن ذلك عدم تحققهم بالصدق أو البراءة من الدعوى ، فهم أبدا مُتَّهِمون لأنفسهم فى توفية أعمالهم ، وتصفية أحوالهم .

قال النهرجورى رضى الله تعالى عنه : من علامات من تولاه الله فى أحواله — أن يشهد التقصير فى اخلاصه ، والغفلة فى أذكاره ، والنقصان فى صدقه ، والفتور فى مجاهداته ، وقل المراعاة فى فقره ، فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية ، ويزداد فقرا الى الله فى قصده وسيره ؛ حتى يفنى عن كل ما دونه .

وقال أبو عمرو اسماعيل بن نجيد رضى الله تعالى عنه : لا يصفو لأحد قدم فى العبودية ؛ حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء ، وأحواله كلها عنده دعاوى .

وقال أبو يزيد رضى الله تعالى عنه : لوصفت لى تهليلة واحدة — ما باليت بعدها بشىء . والى هذين المقامين — تشير الحكاية التى تروى عن الواسطى رضى الله تعالى عنه ، وذلك أنه لما دخل نيسابور — سأل أصحاب أبى عثمان رضى الله تعالى عنه : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟

فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ، ورؤية التقصير فيها . فقال : أمركم بالمجوسية المحضة ، هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود مُجْرِيها ومُنشِئِها[1]

قال الاستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه : وانما أراد الواسطى بهذا صيانتهم عن محل الاعجاب ، لا تعريجا فى أوطان التقصير ، أو تجويزا للاخلال بأدب من الآداب .

تعقيـــب

الحق سبحانه وتعالى — غيب السائرين له ، والواصلين اليه عن رؤية أعمالهم الظاهرة وشهود أحوالهم الباطنة

---

(١) يريد بذلك ترق همتهم الى مقام العرفان ، لا تحقير ما هم عليه ، فإنه من الاحسان .

أما السائرون فلأنهم يتهمون أنفسهم على الدوام ، فمهما صدر منهم احسان ، ولاح لهم يقظة — رأوها فى غاية الخلل والنقصان ، فاستحيوا من الله أن يعتمدوا عليها ، أو يعتدوا بها ، فغابوا عن أعمالهم وأحوالهم ، واعتمدوا على ربهم .
سئل بعض العارفين : ما علامة قبول العمل ؟ قال : نسيانك إياه ، وانقطاع نظرك عنه بالكلية . قال تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ والْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرفَعُهُ » (من آية ١٠ من سورة فاطر) .

وأما الواصلون ، فلأنهم فانون عن أنفسهم ، غائبون فى شئون معبودهم ، إذ محال أن تشهده ، وتشهد معه سواه (« ابن عجيبة » فى « ايقاظ الهمم ») .

قال بعضهم : لا تنظر الى عملك — وان صح — وانظر لمن وفقك اليه .
وقال تعالى : « ان أريد إلا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب » (من آية ٨٨ من سورة هود) .

الحكمة الستون

قال ابن عطاء الله :

« مَا بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلٍّ إلاَّ عَلَى بَذْرِ طَمَعٍ »

قال ابن عباد :

البسوق : الطول : يقال بسقت النخلة بسوقا اذا طالت ، قال الله تعالى ، والنخل باسقات » والأغصان : جمع غصن ، وهو ما تشعب عن سوق الشجر ، ويجمع أيضا على غصون .

والبذر : الحب الذى يزرع ، وهذه كلها استعارات مليحة .

والطمع من أعظم آفات النفوس وعيوبها القادحة فى عبوديتها ، بل هو أصل جميع الآفات لأنه محض تعلق بالناس ، والتجاء اليهم ، واعتماد عليهم ، وعبودية لهم ، وفى ذلك من المذلة والمهانة مالا مزيد عليه ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ، والطمع مضاد لحقيقة الايمان الذى يقتضى وجود العزة .

والعزة التى اتصف بها المؤمنون ــ انما تكون برفع هممهم الى مولاهم ، وطمأنينة قلوبهم إليه ، وثقتهم به ، دون من سواه ، فهذه هى العزة التى منحها الله عبده المؤمن .

قال الله تعالى : « ولله العزةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِين[1] »

وكما أن العزة من صفات المؤمنين ــ كذلك المذلة من أخلاق الكافرين والمنافقين ، قال الله تعالى : « إن الذين يُحَادُّون الله ورسولَه أُولَئِكَ فى الأَذَلِّينَ » .[2]

---

(١) من آية ٨ من سورة المنافقون .

(٢) آية ٢٠ من سورة المجادلة .

قال أبو بكر الوراق الحكيم[1] رضى الله تعالى عنه : لو قيل للطمع من أبوك ؟ قال الشك في المقدور ، ولو قيل له : ما حرفتك ؟: قال : اكتساب الذل . ولو قيل : ماغايتك ؟ قال الحرمان .

وقال أبو الحسن الوراق النيسابورى رضى الله تعالى عنه :

من أُشْعِرَ فى نفسه محبة شىء من الدنيا ـ فقد قتلها بسيف الطمع ، ومن طمع فى شىء ذَلَّ ، وَبَذْلُهُ هَلَكَ . وقد قيل فى ذلك :

أتطمع فى ليلى وتعلم أنما تُقَطِّعُ أعناقَ الرجال المطامِعُ

فالطامع لا محالة فاسد الدين ، مفلس من أنوار اليقين . قال فى التنوير[2] : وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد ما سواه ، وَتَطَهَّر من الطمع فى الخلق ؛ فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحر ـ ما طهره الا اليأسُ منهم ، ورفع الهمة عنهم .

قال : وقدم على بن أبى طالب رضى الله عنه ـ البصرة ، فدخل جامعها فوجد القُصَّاص يقصون . فأقامهم ، حتى جاء الى الحسن البصرى رضى الله عنه ، فقال : يا فتى ! إنى سائلك عن أمر ، فإن أجبتنى عنه أبقيتك ، والا أقمتك ، كما أقمت أصحابك . وكان قد رأى عليه سمتا وهديا ، فقال الحسن : سل عما شئت .

قال : ما ملاك الدين ؟ قال : الورع . قال : فما فساد الدين ؟ قال : الطمع قال : اجلس ، فمثلك من يتكلم على الناس .

قال : وسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : كنت فى ابتداء أمرى بثغر الاسكندرية ، جئت الى بعض من يعرفنى ، فأشتريت منه حاجة بنصف درهم ، ثم قلت فى نفسى لعله لا يأخذه منى ، فهتف بى هاتف : السلامة فى الدين بترك الطمع فى المخلوقين قال : وسمعته يقول : صاحب الطمع ـ لا يشبع أبدا ! ألا ترى أن حروفه كلها مجوفة : الطاء والميم والعين ! ثم قال بعد هذا : فعليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق ولا تذل لهم ، فقد سبقت قِسمتُك وجودَك ، وتقدم ثبوتُه

---

(١) أبو بكر الوراق الحكيم : هو أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذى : أقام ببلخ وصحب أحمد بن خضروية ، وله تصانيف فى الرياضيات .

(٢) « التنوير فى اسقاط التدبير » تأليف الشيخ الامام القطب الربانى ابن عطا الله السكندرى .

ظهورك ، واسمع ما قاله بعض المشايخ : أيها الرجل : ما قدر لماضِغَيْك أن يَمْضُغاه — فلابد أن يمضغاه ، فَكُلْهُ — وَيْحَكَ — بِعِزٍّ ، ولا تأكله بِذُلّ .

قلت : تقدم الآن من كلامه فى التنوير : ذكر الورع فى مقابة الطمع — وكذلك فى جواب الحسن لعلى رضى الله عنهما — لما سأله مستخبرا له عن صلاح الدين ، وفساده فى الكلام الذى حكاه عنهما . ولا شك أن الورع الظاهر لعامة الناس — وهو ترك الشبهات والتحرج من اقتحام المشكلات — لا يقابل الطمع كل المقابلة .

وقد ذكرنا الطمع ما هو ، وإنما يقابله ورع الخاصة ، وهو عندهم صحة اليقين ، وكمال التعلق برب العالمين ، ووجود السكون اليه ، وعكوف الهمّ عليه ، وطمأنينة القلب به ، ولا يكون له ركون الى غيره ، ولا الانتساب الى خلق ولا كون ، فهذا هو الورع الذى يقابل الطمع المفسد .

وبه يصلح كل عمل مقرب ، وحال مُسْعِد ، كما نبه عليه الحسن رضى الله عنه فى جوابه المذكور .

قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه : الورع على وجهين : ورع فى الظاهر : ألا يتحرك الا لله . وورع فى الباطن : وهو ألا يدخل فى قلبك الا الله . ذكر أن بعضهم كان حريصاً على أن يرى أحداً ممن هذه صفته ، فجعل يجتهد فى طلبه ، ويحتال الى التوصل اليه ، بأن يأخذ الشىء بعد الشىء من ماله ، ويقصد به الفقراء والمساكين ، ويقول لمن يعطيه منهم حين المناولة : خذ ، لا لك[1] ، فكانوا يأخذون ، ولا يسمع من أحد منهم جوابا مطابقا لما أراده بكلامه . الى أن ظفر ذات يوم ببغيته ، وحصل على مقصوده ومنيته ، وذلك أنه قال لأحدهم : خذ ، لا لك فقال له : آخذه ، لا منك .

فإن كان للعبد استشراف الى خلق ، أو سَبْقِيَّة — نظر اليهم قبل مجىء الرزق أو بعده ، فمقتضى هذا الورع والواجب فى حق الأدب — ألا ينيل نفسه شيئا مما يأتيه على هذه الحال ، عقوبة لنفسه فى نظره الى أبناء جنسه . كقصة أيوب الحمال

(١) لعل المراد بهذا التعبير : خذه لله لا لك ، وكان جواب الأخير : آخذه لا منك ، أى : من الله . (المراجع) .

مع أحمد بن جنبل رضى الله عنهما . وهى معروفة ، وكما روى عن الشيخ أبى مدين رضى الله عنه .

أتاه حمال بقمح ، فنازعته نفسه ، وقالت له : يا ترى من أين هذا ؟ فقال لها : أنا أعرف من أين هو ، يا عدوة الله ، وأمر بعض أصحابه أن يدفعه لبعض الفقراء عقوبة لها ، لكونها رأت الخلق ـــ قبل رؤية الحق تعالى . وقد قيل : أحلُّ الحلال ما لم يخطر لك على بال ، ولا سألت فيه أحدا من النساء والرجال . وقد صرح بهذا المعنى الذى ذكرناه ، وأوضح الغرض الذى قصدناه ـــ شيخ الطريقة ، وإمام أهل الحقيقة من المتأخرين ـــ أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه ، فإنه قال : اعلم أن الورع ألا يكون بينك وبين الخلق نسبة فى أخذ وعطاء أو قبول أورد ، وأن يكون السبق لله تعالى ، وهو أن يأتى اليه طاهرا من جميع الأشياء .

والعلم والعمل كما قال : « ولقد جِئْتُمونا فُرادى كما خَلَقْنَاكُمْ أوَل مَرةٍ »[1]

وقال أيضا : الورع ألا يخطر الرزق بالبال ، ولا يكون بينه وبينه نسبة : لا فى التحصيل ولا عند المباشرة ، لأنه لا يدرى : أيأكل أم لا ؟

وقال أيضا : الورع ألا تتحرك ولا تسكن الا وترى الله فى الحركة والسكون ، فاذا رأى الله ذهبت الحركة والسكون ، وبقى مع الله .

فالحركة ظرف لما فيها ، كما قال بعضهم : ما رأيت شيئا الا رأيت الله فيه ، فاذا رأى الله ـــ ذهبت الأشياء .

وقال أيضا : أجمع العلماء على أن الحلال المطلق ـــ ما أخذ من يد الله بسقوط الوسائط ، وهذا مقام التوكل ، ولهذا قال بعضهم : الحلال هو الذى لا يُنْسى الله فيه ، الى غير هذا من العبارات التى عبر بها فى هذا المعنى .

وقال بعض هذه الطائفة : العبيد كلهم يأكلون أرزاقهم ، ثم يفترقون فى المشاهدات ، فمنهم من يأكل رزقه بذل ، ومنهم من يأكل رزقه بامتهان ، ومنهم من يأكل رزقه بانتظار ، ومنهم من يأكل رزقه بعز : بلا مَهْنَةٍ ولا انتظار ولا ذلة .

فأما الذين يأكلون أرزاقهم بذل ـــ فالسوَّال . يشهدون أيدى الخلق ، فيذلون

---

(١) من آية ٩٤ من سورة الأنعام .

لهم وأما الذين يأكلون ارزاقهم بامتهان فالصنَّاع . يأكل أحدهم رزقه بِمَهْنَةٍ وكد .

وأما الذين يأكلون أرزاقهم بانتظار — فالتجار . ينتظر أحدهم نَفَاق سلعته ، فهو متعذب القلب ، معذب بانتظاره .

وأما الذين يأكلون أرزاقهم بعز من غير مَهْنَةٍ ولا انتظار ولا ذل — فالصوفية يشهدون العزيز ، فيأخذون قسمتهم من يده بعزة[1] .

قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : ليس مع الايمان أسباب ، انما الأسباب فى الاسلام .

قال الشيخ أبو طالب رضى الله تعالى عنه . معناه ليس فى حقيقة الايمان — رؤية الأسباب والسكون اليها ، انما رؤيتها والطمع فى الخلق — يوجد فى مقام الاسلام .

وقد عقد المؤلف رحمه الله تعالى فى « لطائف المنن »[2] — فصلا فى هذا المعنى وجعله لجميع وظائف الآداب الدينية أصلا ومبنى ، فرأينا نقله فى هذا الموضوع من صواب العمل ، والتكفل إن شاء الله بنجاح الأمل .

قال رضى الله عنه : اعلم رحمك الله : أن ورع الخصوص — لا يفهمه إلا قليل ، فان من جملة ورعهم — تورعهم عن أنْ يسكنوا لغيره ، أو يميلوا بالحب لغيره ، أو تمتد أطماعهم فى غير فضله وخيره . ومن ورعهم — ورعهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب ، وخلع الانداد والأرباب ومن ورعهم — ورعهم عن الوقوف مع العادات ، والاعتماد على الطاعات والسكون الى أنوار التجليات .

ومن ورعهم — ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا ، أو ترفعهم الآخرة ، تورعوا عن الدنيا وفاء ، وعن الوقوف مع الآخرة صفاء .

قال الشيخ عثمان بن عاشوراء : خرجت من بغداد — أريد الموصل ، فأنا أسير وإذا أنا بالدنيا — قد عرضت على بعزها وجاهها ، ورفعتها ومراكبها وملابسها

---

(١) ليس معنى هذا أن الصوفى لا يعمل صانعا أو تاجرا ، وانما المراد أنه يعمل لله ، وينتظر منه الجزاء ، عاجلا أو آجلا ، دون سؤال ولا مذلة . (المراجع)

(٢) لطائف المنن : لابن عطاء الله السكندرى .

ومزيناتها ومشتهياتها — فأعرضت عنها ، فعرضت على الجنه بحورها وقصورها وأنهارها وأثمارها — فلم أشتغل بها ، فقيل لى : يا عثمان . لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية ، ولو وقفت مع الثانية — لحجبناك عنا — فها نحن لك ، وقسطك من الدارين يأتيك .

وقال الشيخ عبد الرحمن المغربى . وكان مقيما بشرق الاسكندرية — حججت سنة من السنين ، فلما قضيت الحج — عزمت على الرجوع الى الاسكندرية ، فإذا العلىّ يقول لى : إنك فى العام القابل عندنا ، فقلت فى نفسى : اذا كنت فى العام القابل ههنا فلا أعود الى الاسكندرية ، فخطر لى الذهاب الى اليمن ، فأتيت الى عدن ، فأنا يوما على ساحلها ، واذا بالتجار — قد أخرجو بضائعهم ومتاجرهم .

ثم نظرت فاذا رجل فرش سجادته على البحر ، ومشى على الماء .

فقلت فى نفسى : لم أصلح للدنيا ولا للآخرة ، فاذا العلىّ يقول لى : من لم يصلح للدنيا، ولا للآخرة — يصلح لنا .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله تعالى عنه : الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه ، فقد انتهى بهم الورع الى الأخذ من الله ، وعن الله ، والقول بالله ، والعمل لله وبالله على البينة الواضحة ، والبصيرة الفائقة ، فهم فى عموم أوقاتهم ، وسائر أحوالهم — لا يدبرون ، ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ، ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يمشون ، ولا يبطشون ولا يتحركون — الا بالله ولله ، من حيث يعلمون ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فهم مجموعون فى عين الجمع — لا يتفرقون فيما هو أعلى ، ولا فيما هو أدنى .

وأما أدنى الأدنى — فالله يوزعهم عنه ثوابا ، لورعهم ، مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم ، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميزان — فهو محجوب بدنيا ، أو مصروف بدعوى ، وميراثه التعزز لخلقه ، والاستكبار على مثله ، والذلة على الله بعمله ، فهذا هو الخسران المبين ، والعياذ بالله العظيم من ذلك ، والأكياس يتورعون عن هذا الورع ، ويستعيذون بالله منه .

ومن لم يزدد بعلمه وعمله احتقارا لنفسه ، وافتقارا الى ربه ، وتواضعا لخلقه —

فهو هالك . فسبحان من قطع كثيرا من الصالحين بصلاحهم عن مُصْلِحِهم[1] .

كما قطع كثيرا من المفسدين بفسادهم عن مُوجِدَهم !

« فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم »[2] .

قال : فانظر ، فَهَّمَكَ الله سبيل أوليائه ، ومَنَّ عليك بمتابعة أحبائه هذا الورع الذى ذكره الشيخ رضى الله عنه — هل كان يصل فهمك الى مثل هذا النوع من الورع ؟

ألا ترى قوله : قد انتهى بهم الورع الى الأخذ من الله ، وعن الله ، والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة ، والبصيرة الفائقة ، فهذا هو ورع الأبدال والصديقين ، لا ورع المنقطعين الذى نشأ عن سؤ الظن ، وغلبة الوهم ، انتهى .

وانما أوردنا هذه المعانى ههنا ، تتميما للفائدة المتعلقة بكلام صاحب « التنوير » من كون الورع مقابلا للطمع . وسيأتى مزيد بيان فيها فى موضع أنسب من هذا ، عند قوله : « لا تمدن يدك الى الأخذ من الخلائق » الى آخره » .

---

(١) يعنى بذلك تشاغل العبد الصالح بصلاحه عن ذكر ربه ، واسناد الفعل اليه على الحقيقة ، ولعل من هذا الباب ما تناشده صحابة رسول الله فى احدى غزواته : والله لولا الله ما اهتدينا ، ولا تصدقنا ولا صلينا . فقد اسندوا صلاحهم الى ربهم لا الى أنفسهم . (المراجع)

(٢) من آية ٩٨ من سورة النحل .

الحكمة الحادية والستون

قال ابن عطاء الله :

« مَا قَادَكَ شَىء مِثْل الْوهْمِ »

قال ابن عباد :

الوهم أمر عدمى ، وهو ضد الحقيقة الوجودية ، والنفس الناقصة انقيادها الى الأمور الوهمية الباطلة ـــ أشد من انقيادها الى الحقائق الثابتة ، لوجود المناسبة بينهما . والطمع فى الناس انقياد الى الأوهام الباطلة ، لأن الطَمع تصديق الظن الكاذب ، والطمع فيهم طمع من غير مطمع ، وأرباب الحقائق بمعزل عن هذا ، فلا يتعلق همهم الا بالله ولا يتوكلون الا عليه ، ولا يتقون الا به ، قد سقط اعتبار الأوهام والخيالات التى هى متعلقة بالأغيار عن قلوبهم ، فزال عنهم الطمع ، فاتصفوا بصفة القناعة والورع ، فكانت لهم الحياة الطيبة ، والعيشة الراضية .

والقناعة مقام عظيم من مقامات اليقين ، وهى من بدايات أحوال الراضين . قال بعض العارفين : لا يكون العبد قانعا ، حتى لو جاء الى باب منزله جميع ما يرغب فيه أهل الدنيا من الاتساع والنعمة ، فعرض عليه ـــ لم ينظر الى ذلك ، ولم يفتح بابه ، قناعة منه بحاله(١) . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـــ فى معنى قوله تعالى « فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً »(٢)
قال : هى القناعة .

(١) الاشارة هنا الى أن العبد قد انصرف الى القناعة بحاله ونظر الى ما هو عليه ، ولم يكن منه توجه الى الله يتجاوز به دنيا الناس (المراجع)

(٢) من آية ٩٧ من سورة النحل .

تعقيـــب

لا يقود العبد ، ولا يجره الى الطمع فى الخلق ، والتملق لهم ، والتذلل لما فى أيديهم ــ شىء مثل الوهم ، فالعبد عندما يتوهم أن بأيدى الناس ــ نفعا أوضرا ، أو عطاء أو منعا ــ يطمع فيهم ، ويتذلل لهم ، ويعتمد عليهم ، فالوهم يحجب العبد عن الله ، ويصرفه الى ما سواه . أعاذنا الله منه .

فعلى العبد أن يؤمن بأن النافع والضار ــ هو الله ، وأن أمر الخلق بيد الله ، وأنهم جميعا فى قبضة الله ، وانهم عاجزون عن نفع أنفسهم ! فكيف يقدرون على نفع غيرهم !؟

قال تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » (آية ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء)

والقلب السليم ــ هو الذى لا تعلق له بشىء الا الله سبحانه وتعالى .

الحكمة الرابعة والستون

قال ابن عطاء الله :

« مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ[1] ـــ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا ، وَمَنْ شَكَرَهَا ـــ فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا »

قال ابن عباد :

شكر النعم موجب لبقائها ، والزيادة منها ، وكفرانها وعدم شكرها ـــ موجب لزوالها ونقصانها .

قال الله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم »[2] ـــ وقال الله تعالى : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[3] أى : اذا غيروا ما بأنفسهم من الطاعات ، وهى شكر النعم ، ـــ غيّر الله تعالى ما منه اليهم من الاحسان والكرم .

واجتمعت حكماء العرب والعجم على هذه اللفظة ، فقالوا : الشكر قيد النعم .

وقالوا : الشكر قيد للموجود ، وصيد للمفقود .

وكان يقال : النعم اذا روعيت بالشكر ـــ فهى اطواق ، واذا روعيت بالكفر ـــ فهى اغلال . والشكر على ثلاثة أوجه : شكر بالقلب ، وشكر باللسان ، وشكر بسائر الجوارح .

---

(١) الشكر لغة : فعل ينبىء عن تعظيم المنعم بسبب انعامه .

أما الشكر فى الاصطلاح : فهو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله .

من شكرها فقد قيدها بعقالها : هنا صورة تشبيه النعم بالابل التى من شأنها النفار ان لم تقيد بالعقال .

قال بعض الحكماء : الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود .

(٢) من آية ٧ من سورة ابراهيم .

(٣) من آية ١١ من سورة الرعد

فشكر القلب : أن يعلم أن النعم كلها من الله تعالى ، قال الله تعالى : « ومابكم من نعمة فمن الله »[1] وشكر اللسان : الثناء على الله تعالى ، وكثرة الحمد والمدح له ، ويدخل فيه التحدث بالنعم ، واظهارها ونشرها ، قال الله تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث[2] .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : تذكروا النعم ، فان تذكرها شكر . ومن شكر اللسان أيضا ــ شكر الوسائط بالثناء عليهم والدعاء لهم . وفى حديث النعمان بن بشير ــ رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله » .

وعن اسامة بن زيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أشْكَرَ الناسِ لله ــ أشْكَرُهُم للناسِ .

وسيأتى الكلام على هذا المعنى فى آخر الكتاب إن شاء الله تعالى عند كلام المؤلف عليه . وشكر سائر الجوارح : أن يعمل بها العمل الصالح . قال الله تعالى : « اعملوا آل داود شكرا »[3] فجعل العمل شكرا .

وروى عن النبى ﷺ : أنه قام حتى انتفخت قدماه ، فقيل له : يا رسول الله ، أتفعل هذا ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبدا شكورا . وسأل رجل أبا حازم رضى الله عنه : فقال له : ما شكر العينين ؟ قال : اذا رأيت بهما خيرا ــ أعلنته ــ واذا رأيت بهما شرا ــ سترته ، قال : فما شكر الأذنين ؟ قال : اذا سمعت بهما خيرا ــ وعيته ، واذا سمعت بهما شرا ــ دفنته .

قال : فما شكر اليدين ؟ قال : لا تأخذ بهما ما ليس لك ، ولا تمنع حقا هو لله فيهما . قال فما شكر البطن ؟ قال : أن يكون أسفله صبرا ، وأعلاه علما .

---

(١) من آية ٥٣ من سورة النحل .
(٢) آية ١١ من سورة الضحى .
(٣) من آية ١٣ من سورة سبأ .

قال فما شكر الفرج ؟ قال : كما قال الله تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين »[٢]

قال : فما شكر الرجلين ؟ قال : إن رأيت شيئا غبطته ــ استعملتهما فيه ، وإن رأيت شيئا مقته ــ كففتهما عن عمله ، وأنت شاكر لله تعالى .

فأما من شكر بلسانه ، ولم يشكر بجميع أعضائه ــ فمثله كمثل رجل له كساء ، فأخذه بطرفه ولم يلبسه ، فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد ، والثلج والمطر .

وأجمع العبارات للشكر ــ قول من قال : الشكر معرفة بالجنان ، وذكر باللسان وعمل بالأركان .

والقدر اللازم من شكر النعم ــ ما قاله الجنيد رضى الله عنه ، حين سأله السرى رضى الله عنه . قال الجنيد رضى الله عنه : كنت بين يدى السرى رضى الله عنه ، وأنا ابن سبع سنين ، وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر ، فقال لى : يا غلام . ما الشكر ؟ فقلت : ألا يعصى الله بنعمته ! فقال : يوشك أن يكون حظك من الله ــ لسانك . فلا أزال أبكى على هذه الكلمة !

تعقيــــب

نعم الله على العباد كثيرة ، وأفضاله عليهم عديدة ، قال تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (آية ٢١ من سورة الذاريات) .

وهذه النعم التى أسبغها الله على العباد ــ لا تعد ولا تحصى . قال تعالى « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » (آية ١٨ من سورة النحل)

وقال تعالى : « وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار » (آية ٣٤ من سورة ابراهيم)

فعلى العبد ــ دائما ــ أن يحمد الله ، وأن يشكره ــ سبحانه وتعالى ــ على نعمه وفضله .

---

(١) آية ٥ ، وآية ٦ من سورة المؤمنون .

قال تعالى : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » (آية ٧ من سورة ابراهيم) .

قال الشيخ « زروق » فى شرحه ـ شكر النعمة ضامن لثلاثة أشياء : حفظها عن الزوال ، وتغيير الحال ، بالانتقال ، وزيادتها فى الحال وبركتها فى المآل ، واتصال العبد بمولاه على وجه العافية بلا إخلال .

وعدم الشكر ضامن للسلب ، وتشويش القلب ، ومقت الرب »

فما أجمل شكر النعمة ، وما أعظم فضلها ، وما أقبح جحود النعمة وكفرانها ، ؛ ولله در القائل :

إذا كنت فى نعمة فارعها	فان المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله	فإن الاله سريع النقم

الحكمة الخامسة والستون

قال ابن عطاء الله :

« خَفْ مَنْ وُجُودِ إِحْسَانِه إِلَيْكَ ، وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ ــ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا لَكَ : (سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ) »[1] .

قال ابن عباد :

الخوف من الاستدراج بالنعم من صفات المؤمنين ، وعدم الخوف منه مع الدوام على الاساءة من صفات الكافرين . يقال : من أمارات الاستدراج ــ ركوب السيئة ، والاغترار بزمن المهلة ، وحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة ، وهذا من المكر الخفى ، قال تعالى « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » أى لا يشعرون بذلك ، وهو أن يلقى فى أوهامهم ــ أنهم على شىء ، وليسوا كذلك ، يستدرجهم فى ذلك شيئا فشيئا ؛ حتى يأخذهم بغتة ، كما قال تعالى : « فلما نسوا ما ذكروا به » ــ إشارة الى مخالفتهم وعصيانهم ــ « فتحنا عليهم ابواب كل شىء » ، أى فتحنا عليهم أسباب العافية وأبواب الرفاهية « حتى اذا فرحوا بما أوتوا » من الحظوظ الدنيوية ، و لم يشكروا عليها برجوعهم الينا ــ « أخذناهم بغتة » أى فجأة ــ « فإذا هم مبلسون »[1] ــ أى آيسون قانطون من الرحمة .

قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه فى قوله تعالى : « سنستدرجهم من حيث

---

(١) من آية ٤٤ سورة القلم . ٢١٨

(٢) آية ٤٤ من سورة الانعام .

لا يعلمون » نمدهم بالنعم ، وننسيهم الشكر عليها ، فاذا ركنوا الى النعمة ، وحجبوا عن المنعم أخذوا .

وقال ابن عطاء الله : كلما أحدثوا خطيئة ـــ جددنا لهم نعمة ، وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة .

تعقيـــب

خف ـــ أيها المريد ـــ من دوام احسان الحق اليك : بالصحة والفراغ والمال والبنين مع دوام إساءتك اليه : بالغفلة والتقصير وعدم الشكر ـــ أن يكون ذلك استدراجا قال تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » .

فالله ـــ سبحانه وتعالى ـــ ينعم على عباده بنعمه ، ويرسل اليهم من يذكرهم به ، ويدلهم عليه ، فاذا أعرضوا ـــ بسط لهم النعم ، حتى اذا اطمأنوا ، وفرحوا بما آتاهم الله أخذهم بغتة .

قال تعالى : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين » (آية ١٧٨ من سورة آل عمران)

فالواجب على الانسان اذا أنعم الله عليه بنعمة ـــ أن يعرف حقها ، وأن يبادر الى شكرها . نطقا واعتقادا وعملا : نطقا بالحمد والشكر باللسان » وأما بنعمة ربك فحدث » واعتقادا بشهود المنعم فى نعمه واسنادها إليه « وما بكم من نعمة فمن الله » وعملا بصرفها فى طاعة الله ، وعدم عصيانه بنعمته » اعملوا آل داود شكرا» فإن فعل هذا ـــ فقد شكر الله ، وأدى حق النعمة ، والا خيف عليه سلب النعمة أو الاستدراج . وفقنا الله الى شكر نعمه ، وأداء حقها ، ووقانا سلب نعمه واستدراجه .

الحكمة السادسة والستون

قال ابن عطاء الله :

« مِنْ جَهْلِ المُرِيدِ ــ أَنْ يُسِيءَ الأَدَبَ ، فَتُؤَخَّرَ الْعُقُوبَةُ عَنْهُ[1] فَيَقُولَ : لَوْ كَانَ هَذاَ سُوءَ أَدَبٍ ــ لَقَطَعَ الإِمْدَادَ[2] ، وَأَوْجَبَ الإِبْعَادَ[3] ، فَقَدْ يُقْطَعُ المَدَدُ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ مَنْعَ الْمَزِيدَ[4] . وَقَدْ يُقَامُ مَقَامَ الْبُعْدِ[5] ــ وَهُوَ لاَ يَدْرِى ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ أَنْ يُخَلِّيكَ وَما تُرِيدُ[6] » .

قال ابن عباد :

هذا نوع من الاستدراج الذى تقدم ذكره ، وسوء أدب المريد موجب لعقوبته ، ولكن العقوبات مختلفة : فمنها معجلة ، ومنها مؤجلة ، ومنها جلية ، ومنها خفية . فالعقوبة الجلية : العقوبه بالعذاب ، والعقوبة الخفية : العقوبة بوجود الحجاب .

---

(١) تؤخر العقوبة عنه : أى لا يعاقب فى ظاهره بالبلايا والاسقام ، ولا فى باطنه بحسب زعمه .

(٢) قطع الإمداد : بكسر الهمزة : مصدر أمد ، أو بفتحها : جمع مدد ، وهو ما يرد من فضل الله .

(٣) أوجب الابعاد : أى بعد المسيء عنه بعدم حضوره معه .

فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر : هذا تعليل لما قبله ، أى انما كان ذلك من جهل المريد ، لأنه قد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر .

(٤) ولو لم يكن إلا منع المزيد : أى لو لم يكن من قطع المدد عنه ــ الا منع الزيادة من المدد ــ لكان ذلك كافيا فى قطع الامداد . فجواب « لو » محذوف .

(٥) وقد يقام مقام البعد : أى قد يقام ذلك المريد فى مقام البعد ، وهو لا يدرى .

(٦) ولو لم يكن الا أن يخليك وما تريد : أى ولو لم يكن من اقامته فى مقام البعد الا أن يخليك ــ أيها العبد المسيء ــ وما تريد : بأن يسلط عليك نفسك ، ويمنع نصرتك عليها ــ لكفى ذلك البعد فجواب « لو » محذوف أيضا .

وفى هذا الأسلوب : التفات من الغيبة الى الحضور ، فابن عطاء الله يخاطب المريد ، وكأنه حاضر بين يديه ، وذلك لما صدر منه من سوء الأدب .

فالعقوبة بالعذاب لأهل الخطايا والذنوب ، والعقوبة بالحجاب لأهل اساءة الأدب بين يدى علام الغيوب ، وقد تكون العقوبة الخفية والمؤجلة — أشد على المريد من العقوبة الجلية والمعجلة .

ومثال تلك العقوبة الخفية : ما ذكره من قطع المدد عنه ، واقامته مقام البعد عنه ، وهذا هو مبدأ وقوع الحجاب الذى ذكرناه .

فإذا ابتلى به المريد ، ولم تتداركه رحمة من الله تعالى فى الحال العتيد — كان ذلك موجبا لسقوطه من عين الله ، ووقوع الحجاب على قلبه ، وتبدل الأنس بالوحشة ، وانتساخ الضياء بالظلمة ، ولم يمكنه بعد ذلك معاودة الحال الأولى ، لأنه اذ ذاك تنقطع عنه الامدادات المتصلة ، والواردات المتحصلة ، فتنكسف عنه حينئذ شمس العرفان ، وتستتر عنه الكشوفات والبيان . وهذه جنود الله تعالى فى قلب العبد ، فاذا فقد النصرة من الله تعالى بذلك وقع فى الخذلان ، واستحوذ عليه الشيطان ، فأنساه الذكر ، وحاق به سيىء المكر ، ورجع الى متابعة هوى نفسه الامارة ، وخرج من دائرة الصفوة المختارة ، فنعوذ بالله من سوء المقدور ، وعدم التوفيق الى مراعاة أوائل الأمور ، وما احتج به المريد لنفسه من الكلام الذى ذكره المؤلف رحمه الله — يقتضى توجه هذه العقوبة إليه ضربة لازب ، لأن قوله : لو كان هذا سوء أدب الخ — دليل على رضاه بحاله واستحسانه لأعماله ، وهذا هو الموجب له عدم المزيد الذى اقتضاه قطع المدد عنه ، ولو كان متواصلا اليه — لازداد عندما يقع منه سوء الأدب ؛ تواضعا لربه ، وافتقارا إليه ، وخوفا من مكره ، ولم يستحسن حال نفسه ، ولم يرضها .

قال سيدى أبو العباس رضى الله عنه : كل سوء أدب يثمر لك أدبا مع الله تعالى فهو أدب — وهو الذى أوجب له أيضا التخلية بينه وبين ما يريد الذى اقتضى له اقامته مقام البعد ؛ اذ لو كان مقاما فى القرب — لبعد عن رؤية نفسه ، وكان متهما لها فى إرادتها ، وكان واقفا مع مراد الله به ، فإن أقدم على أمر ما بإرادته وشهوته تداركه الله تعالى بالعصمة ، وعوق عليه ما أراده ، وسد عليه مسالكه ، ولم يخله ، وما أراد من ذلك .

ويقال : من علامة التوفيق ثلاث : دخول أعمال البر عليك من غير قصد منك اليها ، وصرف المعاصى عنك مع السعى فيها ، وفتح باب اللجأ . والافتقار الى الله تعالى فى كل الأحوال . ومن علامة الخذلان ثلاث : تعسر الطاعات عليك مع السعى فيها ، وذخول المعاصى عليك مع الهرب منها ، وغلق باب اللجأ الى الله تعالى ، وترك الدعاء فى الأحوال .

والأدب له موقع عظيم فى التصوف ؛ ولذلك قال أبو حفص رضى الله عنه : التصوف كله أدب ، لكل وقت أدب ، ولكل حال أدب ، ولكل مقام أدب . فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب — فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يظن القبول .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : قال لى رويم : يا بنى . اجعل عملك ملحا ، وأدبك دقيقا . وقال بعضهم : الزم الأدب ظاهرا وباطنا ، فما أساء أحد الأدب ظاهرا الا عوقب ظاهرا ، وما أساء أحد الأدب باطنا الا عوقب باطنا .

وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه : اذا خرج المريد عن حد الأدب — فانه يرجع من حيث جاء .

وقال الثورى رضى الله عنه : من لم يتأدب للوقت — فوقته مقت .

وقال ابن المبارك رضى الله عنه : نحن الى قليل من الأدب أحوج منا الى كثير من العلم .

وقيل لبعضهم : ياسىء الأدب ! فقال : لست بسيىء الأدب ! فقيل له : ومن أدبك ؟ فقال : الصوفية .

والآداب اللازمة للمريد عامةٌ فى ظاهره وباطنه ، وآداب الظاهر تبع لآداب الباطن ، وآداب الباطن هى التحلى بمحاسن الاخلاق كلها .

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ انه قال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى . ثم أمرنى بمكارم الأخلاق ، فقال : « خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين »[1]

---

(١) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف .

ولا يحصل لك ذلك بعد توفيق الله تعالى وتأييده الا بالرياضة والمجاهدة .

قال ابن عطاء الله رضى الله عنه : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة ، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة ، فمن أطلق عنانها فهو شريكها فى فسادها .

ويختلف ما ذكرناه من المجاهدة والرياضة باختلاف الأشخاص ، فرب شخص ذكى الفطرة ، كريم السجية سهل المقادة — لا يحتاج فى ذلك الى كثير معاناة ولا تعب ، ورب شخص يكون حاله على عكس هذا — فلا جرم يحتاج الى زيادة تعب ، وقوة ممارسة وشدة مجاهدة ؛ لرداءة فطرته ، ونقصان غريزته .

وبين هذين درجات لا تحصى ، ولهذا كله يحتاج المريد الى صحبة المشايخ والتأدب بآدابهم ، واتباع أوامرهم ونواهيهم ، لأنه إن لم تجر أفعاله على مراد غيره — لا يصح له الانتقال عن الهوى ، و لو بلغ فى الرياضة والمجاهدة كل مبلغ ، وذلك لكثافة حجاب نفسه .

وقد سئل الدقاق رضى الله عنه : بماذا يقوّم الرجل اعوجاجه ؟ فقال : بالتأدب بإمام فان من لم يتأدب بإمام — بقى بطالا ، فإذا دام العبد على ذلك — تزكت نفسه ، وطهر قلبه ، وتهذبت أخلاقه ، وظهر على ظاهره أنوار ذلك ، فتكون حركات ظاهره وباطنه مزمومة بزمام الأدب ؛ حتى تنتهى به إلى المحافظة على اجتناب أمور غير مستنكرة فى ظاهر العلم ، ويكون ترك محافظته عليها ذنبا من مثله ، وقد يعاتب عليه ، وقد يعاقب من أجله .

قال السرى رضى الله عنه : صليت العشاء ، واشتغلت بوردى ليلة من الليالى ، ومددت رجلى فى المحراب — فنوديت يا سرى ! هكذا تجالس الملوك !؟
فضممت رجلى ، ثم قلت : وعزتك وجلالك — لا مددت رجلى أبدا .
قال الجنيد رضى الله عنه : فبقى ستين سنة ، ما مد رجله ليلا ولا نهارا

وقال أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه : كان الاستاذ أبو على الدقاق رضى الله عنه لا يستند الى شىء ، فكان يوما فى مجمع ، فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره ، لأنى رأيته غير مستند ، فتنحى على الوسادة قليلا ، فتوهمت أنه توقى

الوسادة ، لأنه لم يكن عليها خرقة ولا سجادة ، فقال : لا أريد الاستناد ، فتأملت بعد ذلك فعلمت أنه لا يستند الى شيء أبدا .

وقال أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه : كنت جالسا فى مسجد الشونيزية ، انتظر جنازة أصلى عليها ، وأهل بغداد على طبقاتهم جلوس ، ينتظرون الجنازة ، فرأيت فقيراعليه أثر النسك ، يسأل الناس ، فقلت فى نفسى : لو عمل هذا عملا يصون به نفسه لكان أجمل به . فلما انصرفت الى منزلى ، وكان لى شيء من الورد بالليل من البكاء والصلاة وغير ذلك ثقل علىّ جميع أورادى ، فسهرت وأنا قاعد ، فغلبتنى عينى ،فرأيت ذلك الفقير ، جاءوا به على خوان ممدود ، وقالوا لى : كل لحمه ، فقد اغتبته ، وكشف لى عن الحال ، فقلت : ما اغتبته ، وانما قلت فى نفسى شيئا ، فقيل لى : ما أنت ممن يرضى منك بمثله ، اذهب واستحله ، فأصبحت ، و لم أزل أتردد حتى رأيته فى موضع ، يلتقط من الماء عند ترداد الماء ــ أوراقا من البقل ، مما تساقط من غسل البقل ، فسلمت عليه ، فقال : أتعود يا أبا القاسم !؟ فقلت : لا ، فقال : غفر الله لنا ولك : الى غير ذلك من آدابهم رضى الله عنهم أجمعين .

والظاهر أن مراد المؤلف رحمه الله باساءة الأدب ــ ما كان فيه نوع من الرعونة ، واظهار الدعوة ، واتصاف العبد بصفة المولى ، وانبساطه وادلاله فى موقف الهيبة والحياء ، وما أشبه ذلك مما يخاف على صاحبه وقوع الاستدراج والمكر به ، ولكن ينبغى للمريد ألا يتهاون بشيء من الآداب ، ولا يستحقرها ، فان التهاون بذلك ، والاحتقار له من مخامرة الجهل ، وعدم المعرفة بالله تعالى ، وهذا اقبح أنواع سوء الأدب . فان وقعت منه اساءة أدب ، فليكن خائفا من ذلك ، مستعظما للأمر فيه ، وليبادر الى التوبة والاعتذار والتنصل منها ، خشية أن توجه اليه العقوبة ، من حيث لا يشعر .

وآكد ما ينبغى أن يجتنبه المريد من مقتضيات هذه الجملة التى ظهر لنا أنها مراد المؤلف رحمه الله تعالى من أنواع سوء الأدب ــ أن يوطن خاطره على شيء من الاعتراض على الله تعالى وتعاطى التدبير معه ، والتبرم بأحكامه المؤلمة فى نفسه

أو غيره ، وأن يسرح لسانه بالشكوى الى الخلق ، والعيب لما يوافق هواه ، أو نقص فى نظره ، مما يراه من الحق . فان خطر بباله ، أو جرى على لسانه شيء من ذلك — فليبادر الى الاستغفار منه ، والتفصى عنه[1] ، وليعلم أن تشاغله بذلك من أعظم الحسنات وأفضل القربات ، وذلك يدخله فى مقامات الرضا . ويوصله الى غاية النعيم والعطاء ، كما أن توطينه عليه ، وتهاونه به من أعظم خطاياه ، وأكبر ذنوبه ، ويؤديه ذلك الى تسخط الأقدار ، والوقوع فى دركات النار ، نعوذ بالله من ذلك .

ضاع لبعض الصوفية ولد صغير ، فلم يعرف له خبرا ثلاثة أيام ،فقيل له : لو سألت الله تعالى أن يرده عليك ؟ فقال : اعتراضى عليه فيما قضى — أشد علىّ من ذهاب ولدى !

وقال بعض السادة : أذنبت ذنبا ، فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة ! وكان قد اجتهد فى العبادة ، لأجل التوبة من ذلك الذنب ! فقيل له : وما ذلك الذنب ؟ قال : قلت مرة لشيء ليته كان . وقال بعض السلف : لو قرض جسمى بالمقاريض — كان أحب الى من أن أقول لشيء قضاه — ليته لم يقضه !

وقال بعضهم : مرض الجنيد رضى الله عنه : فقال : اللهم عافنى ، فسمع هاتفا يقول : مالك والدخول بينى وبين ملكى ؟ . ومن مقتضياتها أيضا : أن يعلق بقلبه شيء من الاعتراض على المشايخ والأولياء ، وأن يترك تعظيمهم واحترامهم ، وألا يقبل اشارتهم فيما يشيرون به عليه ، فقد قالوا عقوق الاستاذين[2] لا توبة له — وقالوا أيضا : من قال لاستاذه : لمَّة — لا يفلح ! وقال أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه : من صحب شيخا من الشيوخ ، ثم اعترض عليه بقلبه — فقد نقض عهد الصحبة ، ووجبت عليه التوبة وان بقى من أهل السلوك قاصد لم يصل الى مقصوده — فليعلم أن موجب حجبه اعتراض خامر قلبه على بعض شيوخه فى بعض أوقاته ، فإن الشيوخ بمنزلة السفراء للمريدين . قال : وفى الخبر : إن الشيخ فى أهله كالنبى فى أمته .

---

(١) التفصى : الابتعاد والتخلص من الشيء (المراجع) .

(٢) هذا جمع تصحيح لكلمة (أستاذ) وهو نادر الاستعمال ، وإن كان جاريا على القياس والمألوف فيه جمع التكسير : (أساتذة) — المراجع .

وكذلك من سوء أدبه ، تصدره للتعليم والهداية ، وتصديه للأمر والولاية ، ومحبته للاستتباع والرياسة ، وتربيته للجاه والحشمة ، والقبول بين الناس ، واستدعاؤه بسره أن يكرم ويعظم ويتبرك به وتقبل يده ويسارع فى قضاء حوائجه ، وذلك من أضر الأشياء به ، وهو نتيجة استحسانه لما هو عليه ، وعدم تفقده لعيوبه ، واتهام نفسه فى كل حال من أحواله . وذلك مذموم منه .

وقال أبو عثمان رضى الله عنه : لا يرى أحد عيب نفسه ، وهو يستحسن من نفسه شيئا ، وانما يرى عيوب نفسه — من يتهمها فى جميع الأحوال .

وقال أبو عبد الله السجزى رضى الله عنه : من استحسن شيئا من أحواله فى حال ارادته — فسدت عليه ارادته إلا أن يرجع الى ابتدائه ، ويروض نفسه ثانيا .

وقال أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه : سمعت جدى يقول : آفة العبد رضاه من نفسه بما هو فيه . فان استشعر المريد من نفسه شيئا مما ذكرناه — فليبادر الى قطع مواده ، واستئصال عروقه ، من قبل أن يستحكم ذلك فيه ، ويرسخ فيه ، فبدايات الأمور — هى التى ينبغى أن تراعى كثيرا .

ومن أنواع سوء أدب المريد المفضى الى عطبه — نزوله عن مقتضيات الحقيقة ، الى رخص الشريعة ، فقد عدوا هذا من الجنايات العظيمة ، الموجبة لا نحطاط الرتبه والبعد عن محل القرب .

ولهذا قالوا : اذا رأيت المريد — انحط عن رتبة الحقيقة الى رخص الشريعة — فاعلم أنه قد نقض عهده مع الله ، وفسخ عقده بينه وبين الله[1] .

---

(١) هذا مذهب من التشدد ، يراه الصوفية فى معاملة النفس ، ومعالجة نقائصها ، بحسب المقامات ، لكنه ليس بملزم للعامة . (المراجع)

الحكمة التاسعة والستون

قال ابن عطاء الله :

« قَلَّمَا تَكُونُ الْوارِدَاتُ الإِلَهِيَّة إلاّ بَغْتَةً ، لِئَلا يَدَّعِيَهَا الْعُبَّادُ بِوُجُودِ الاسْتِعْدَادِ »

قال ابن عباد :

الواردات الالهية هدايا من الله تعالى ، وتُحَفٌ وكرامات يكرم بها عباده ، فلا تكون فى الغالب الا بغتة ، أى فجأة ، لئلا يَدَّعُوهَا ، ويروا أنفسهم أهلا لها ، بوجود استعدادهم وتهيئتهم ، وتحف الله تعالى وهداياه — مقدسة عن أن تعلل بأمر ومنزهة عن أن تقابل بأعمال برّ ، بل هى محض كرم وفضل من الكريم المتفضل .

تعقيـــب

الواردات الالهية من الأسرار العرفانية ، والعلوم الوهبية التى يمن الله بها على عباده — لا تأتى بالاستعداد لها ، لأنها لا تنال بالاجتهاد فى العبادات والأوراد ، وإنما تأتى بغتة من غير روية ولا استعداد ولا توقيت . وذلك لأنها من مواهب العلى الوهاب ، فحصولها بغير استعداد كثير ، أما حصولها بالاستعداد لها — فنزر يسير وذلك صيانه لها أن يدعيها العباد ، بأن يروا أنفسهم أهلا لها بالتأهب والاستعداد . فالواردات انما هى مواهب ، وفضل ورحمة من الله .

« والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (من آية ١٠٥ من سورة البقرة) .

الحكمة الحادية والسبعون

قال ابن عطاء الله :

« إِنَّماَ جَعَلَ الْدَّارَ الْآخِرَةَ مَحَلاً لِجَزَاءِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لأَنَّ هَذِه الْدَارَ ـــ لاَ تَسَعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ ، وَلِأَنَّهُ أَجَلَّ أَقْدَارَهُمْ عَنْ أَنْ يُجَازِيَهُمْ فِى دَارٍ لاَبَقَاءَ لَهَاَ » .

قال ابن عباد :

إنما جعل ثواب المؤمنين فى دار الآخرة ـــ فيما ظهر لنا لوجهين : أحدهما أن الدنيا لا تسع ما يريد أن يعطيهم من أنواع النعيم حسا ولا معنى .

أما الحس فلأن الدنيا متدانية المسافات ، ضيقة الأقطار ، ويعطى الله تعالى لآحاد المؤمنين فى الدار الآخرة فى ملك واحد منهم ـــ كما ورد فى الخبر ـــ مسيرة خمسمائة عام ، فماظنك بخواصهم !؟ فتضيق لا محالة مسافة الدنيا عن كلية جزائهم .

وأما المعنى فلأن الدنيا موسومة بالدناءة والنقص والخساسة والحقارة ، والأشياء التى يتنعم بها أهل الجنة ـــ أمور شريفة رفيعه كما جاء فى الأخبار : ان موضع سوط الجنة خير من الدنيا وما فيها ، وأن نور سوار حوراء يطمس نور الشمس ، وما أشبه هذا .

ويكفى فى ذلك قوله عز من قائل : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين »[1] . وقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل : « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »

(١) من آية ١٧ سورة السجدة .

والثانى أن الله تعالى أجلّ أقدار عباده المؤمنين ، فلم يجعل لهم الجزاء على طاعاتهم فى دار فانية منقضية منصرمة ، لأن كل ما يفنى ــ وان طالت مدته ــ لا شىء ، بل أعطاهم الخلود فى النعيم ، والبقاء الدائم فى الملك المقيم ، وناهيك به شرفا تسميته اياهم باسمه الكريم ، وهو الحى الذى لا يموت . جاء فى تفسير قوله تعالى « وملكا كبيرا »[1] ان الله تعالى يرسل الملك الى وَليِّه ويقول له : استأذن على عبدي فإن أذن لك فادخل ، والا فارجع ، فيستأذن عليه من سبعين حجابا ، ثم يدخل عليه ، ومعه كتاب من الله عز وجل ، عنوانه : من الحى الذى لا يموت الى الحى الذى يموت ، فاذا فتح الكتاب وجد مكتوبا فيه : عبدى ، اشتقت اليك فزرنى . فيقول : هل جئت بالبراق ؟ فيقول : نعم ، فيركب البراق ، فيغلب الشوق على قلبه ، فيحمله شوقه ، ويبقى البراق الى أن يصل الى بساط اللقاء .

تعقيـــب

إنما جعل الله تبارك وتعالى ــ الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين ، دون الدنيا ، وذلك لسببين : الأول : أن هذه الحياة الدنيا ــ لا تسع ما يريد الله أن يعطيهم ، وذلك لقوله تعالى '' قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى '' ، (من آية ٧٧ من سورة النساء)

وقوله تعالى :'' فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون (آية ١٧ من سورة السجدة)

وقوله عليه الصلاة والسلام : يقول الله تعالى : اعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

والثانى : أنه سبحانه وتعالى أعظم منازل عباده المؤمنين ــ عن أن يجازيهم فى دار لابقاء لها ، لأن مآلها إلى الزوال ، وهى الدنيا ، فقد ادخر لهم فى الآخرة النعيم المقيم ، والتمتع بالنظر الى وجهه الكريم .

وقد جاء فى الخبر : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى لا ختار العاقل الذى يبقى على الذى يفنى .

---

(١) من آية ٢٠ من سورة الانسان .

الحكمة الثانية والسبعون

قال ابن عطاء الله :

« مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلاً ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الْقُبُولِ آجِلاً »[1]

قال ابن عباد :

ثمرة العمل وجدان الحلاوة فيه ، والنعيم به ، ويتصور ذلك فى أكثر الأعمال بالمواظبة عليه على حال تكره ، واستثقال له ، هذا هو غالب الأمر .

قال بعض العارفين : ليس شيء من البر الا ودونه عقبة يحتاج الى الصبر فيها ، فمن صبر على شدتها أفضى الى الراحة والسهولة ، وانما هى مجاهدة النفس ، ثم مخالفة الهوى ، ثم مكابدة فى ترك الدنيا ، ثم اللذة والتنعم .

وقال عتبة الغلام رضى الله تعالى عنه : كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة .

وقال ثابت البنانى رضى الله تعالى عنه : كابدت القرآن عشرين سنة ، وتنعمت به عشرين سنة .

وقال بعض العلماء : كنت أقرأ القرآن ، فلا أجد له حلاوة ؛ حتى تلوته ، كأنى أسمعه من رسول الله ﷺ ، يتلوه على أصحابه رضى الله عنهم ، ثم رُفِعْتُ الى مقام فوقه ، وكنت أتلوه ، وكأنى أسمعه من جبريل عليه السلام ، يلقيه على

---

(١) ثمرة العمل : هى ما ينشأ عنه من لذة الطاعة ، وحلاوة المناجاة .
ودليل وجود هذه الثمرة . النشاط فى النهوض اليها ، والاغتباط بها ، والمداومة عليها .
عاجلا : أى فى الدنيا .
فهو دليل على وجود القبول آجلا : أى قبول الله له .

رسول الله ﷺ ، ثم تصدق الله تعالى علىّ بمنزلة أخرى ، فأنا الآن كأنى أسمعه من المتكلم به ، فعندها وجدت له لذة ونعيما ، لا أصبر عنه .

وما ذكرناه من الحلاوة والنعيم ــ إنما هو ثمرة الأعمال الصحيحة المستقيمة السالمة من الرياء والدعوى .

قال أبو تراب رضى الله تعالى عنه : اذا صدق العبد فى العمل ــ وجد حلاوته قبل أن يعمله ، واذا أخلص فيه ــ وجد حلاوته وقت مباشرة العمل ، والأعمال الموصوفة بهذه الصفات ــ مقبولة بفضل الله تعالى .

ورد فى الخبر : " لا يقبل الله من مسمع ولا مراء " ــ دليل خطابه أن العمل السالم من الرياء والسمعة ــ مقبول من قول الله عز من قائل " انما يتقبل الله من المتقين "[1] . وقبول الله تعالى لعمل العبد ، ورضاه به ــ هو ثوابه المعجل ، كما يقول المؤلف بعد هذا وذلك علاوة على وجود الجزاء عليه فى الدار الآخرة ، حسبما يأتى فى قوله " وجدان ثمرات الطاعات عاجلا بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلا " .

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه : كل عمل ليس له ثواب فى الدنيا ليس له جزاء فى الآخرة .

فحصل من هذا أن وجدان الحلاوة علامة على وجود القبول المقتضى لوجود الرضا والجزاء ، ولذلك قال الحسن رضى الله تعالى عنه : تفقدوا الحلاوة فى ثلاث فان وجدتموها فأبشروا ، وامضوا لقصدكم ، وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق : عند تلاوة القرآن ، وعند الذكر ، وعند السجود ، وزاد غيره وعند الصدقة وبالأسحار .

وقيل فى قوله تعالى : " ولمن خاف مقام ربه جنتان "[2] قال : جنة معجلة ، وهى حلاوة الطاعات ، ولذاذة المناجاة ، والاستئناس بفنون المكاشفات ، وجنة مؤجلة ؛ هى فنون المثوبات ، وعلو الدرجات .

---

(١) من آية ٢٧ من سورة المائدة .

(٢) آية ٤٦ من سورة الرحمن .

قلت : وهذه الحلاوة المذكورة لا تكون الا فى مقام المعرفة الخاصة ، وهى التى تنافيها المعصية .

قيل لبعضهم : هل تعرف الله ؟ فغضب على السائل ، وقال : أتراني أعبد من لا أعرفه !؟ فقال له : أو تعصى من تعرفه !؟

وقيل لبعضهم : بم تعرف أنك عرفته ؟! فقال : لم أقصد مخالفته الا ورد على قلبى استحياء منه .

وقال اسماعيل بن نجيد رضى الله تعالى عنه : التهاون بالأمر من قلة المعرفة بالآمر ، فإن العصيان فى حال العرفان بعيد ، فإن وقعت منه زله أو هفوة بحكم ، وكان أمر الله قدرا مقدورا — وجد لا محالة لذلك مرارة وألما فى قلبه ، فوجدان هذه المرارة والألم فى المعصية — علامة على صحة ما وجد من الحلاوة والنعيم فى الطاعة ، فهذه هى الحلاوة التى هى الميزان للأعمال المقبولة ، وغير المقبولة ، كما ذكرناه .

وأما الحلاوة التى يجدها من دون أهل هذا المقام فى بعض العبادات — فمدخوله معلولة ، الا ما فيها من تنشيط العباد للمواظبة على العبادة . والحلاوة على الاطلاق اذا وجدها العامل فى العمل — لا ينبغى له أن يقف معها ، ولا يفرح بها ، ولا يسكن اليها ، وكذلك أيضا لا ينبغى له أن يقصد بعمله الى نيلها ، لما له فيها من اللذه والحظ ، فان ذلك مما يقدح فى اخلاص عبادته ، وصدق ارادته ، وليكن اعتناؤه بحصولها ، لتكون ميزانا لأعماله ، ومحكا لأحواله فقط .

قال الواسطى رضى الله تعالى عنه : استحلاء الطاعات سموم قاتله .

قال فى لطائف المنن : وصدق الواسطى ، فأقل ما فى ذلك أنك اذا فتح لك باب حلاوة الطاعة ، تصير قائما فيها ، متطلبا لحلاوتها ؛ فيفوتك صدق الاخلاص فى نهوضك لها ، وتحب دوامها لا قياما بالوفاء ، ولكن لما وجدت من الحلاوة والمتعة فتكون فى الظاهر قائما لله ، وفى الباطن انما قمت لحظ نفسك ، ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة — جزاء تعجلته فى الدنيا ، فتأتى يوم القيامة ، ولا جزاء لك .

الحكمة الثالثة والسبعون

قال ابن عطاء الله :

〞 إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ[١] ــ فَانْظُرْ فِيمَاذَا يُقِيمُكَ[٢] .

قال ابن عباد :

هذا ميزان صحيح ، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : 〞 من أراد أن يعرف منزلته عند الله ، فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه ، فان الله عز وجل ينزل العبد عنده حيث أنزله العبد من نفسه 〞 وهذا الانزال المذكور المنسوب الى العبد هو معنى الاقامة المذكورة ، اذ العبد لا فعل له على التحقيق .

قال الفضيل بن عياض رضى الله تعالى عنه : إنما يطيع العبد ربه على قدر منزلته منه .

وقال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه : فاذا كان العبد لنظر مولاه مكرما ، ولحرماته معظما ، والى محبوبه ومرضاته مسارعا ــ كان الله عز وجل له فى الآخرة لوجهه مكرما ، ولشأنه معظما ، والى مسرته من النعيم المقيم مسارعا ، واذا كان العبد بحق مولاه متهاونا ، وبأمره مستخفا ، ولشعائره مستصغرا ــ كان

---

(١) اذا أردت أن تعرف قدرك عنده : يعنى هل أنت من المقبولين السعداء أو من المردودين الأشقياء ، وهذا بالنسبة للعامة . وأما الخاصة ، فيقال : إن أردت أن تعرف قدرك : أى منزلتك عنده ، هل أنت من المقربين ــ أوْلا ؟

(٢) فانظر فيماذا يقيمك : يعنى من طاعة أو ضدها . هذا بالنسبة للعامة ، وأما بالنسبة للخاصة〞 فانظر فيما يقيمك 〞 أى يورده على قلبك من ادراك عظمته وجلالته .

الله عز وجل له مهينا ، وبشأنه متهاونا وإلى ما يكره من العذاب الأليم له مسارعا ، والعياذ بالله من ذلك .

وقال وهب بن منبه رضى الله تعالى عنه : قرأت فى بعض الكتب : يابن آدم ، أطعنى فيما أمرتك ، ولا تعلمنى بما يصلحك ، إنى عالم بخلقى ، إنما أكرم من اكرمنى ، وأهين من هان عليه أمرى ، لست بناظر فى حق عبدى ؛ حتى ينظر عبدى فى حقى .

تعقيـــب

هذه الحكمة تشير الى الحديث القدسى : يقول الله تبارك وتعالى : " أنا الله لا اله الا أنا ، خلقت الخير والشر ، فطوبى لمن خلقته للخير ، وأجريت الخير على يده ، وويل لمن خلقته للشر ، وأجريت الشر على يديه."

وقال الله تعالى : " فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى " (الآيات من ٥ الى ١٠ من سورة الليل)

فيأيها المؤمن ، اذا أردت أن تعرف نفسك ، وقدرك عند الله ـــ فانظر فى أى شيء أقامك . فإن رضيك الله تعالى لحسن طاعته ـــ فلتعرف قدر ذلك الخير العظيم ، ولتشكر مولاك على عظيم نعمته ، وسابغ فضله عليك .

الحكمة الرابعة والسبعون

قال ابن عطاء الله :

'' مَتَى رَزَقَكَ الطَّاعَةَ[1] ، وَالْغِنَى بِهِ عَنْهَا[2] ــ فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعَمَهُ[3] ظَاهِرَةً[4] وَبَاطِنَةً[5] ''

قال ابن عباد :

المطلوب من العبد شيئان : إقامة الأمر فى الظاهر ، والتعلق بالله فى الباطن وهو الاستغناء به عن غيره .

فاذا رزق الله تعالى العبد هذين الأمرين ــ فقد أسبغ الله عليه نعمه : ظاهرة وباطنة ، وأوصله إلى غاية الأمل فى الدنيا والآخرة ، سبحانه جل وعلا .

تعقيـــب

نعم الله ظاهرة وباطنة . فنعمه الظاهرة : تكون بطاعته ، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

ونعمه الباطنة : تكون بالغنى عن الطاعه ، وذلك بعدم الاعتماد عليها . فعلى العبد المؤمن أن يجمع بين النعمتين : الظاهرة بأن يمتثل أوامر الله ، ويجتنب نواهيه ــ والباطنة بأن يستغنى بالله عن الطاعة ، فلا يعتمد عليها .

---

(١) متى رزقك الطاعة : أى امتثال الأوامر ، واجتناب النواهى .

(٢) الغنى به عنها : أى الغنى بالله سبحانه وتعالى ــ عن تلك الطاعة ، وذلك بعدم الركون الى الطاعة والاعتماد عليها .

(٣) اسبغ عليك نعمه : أى أكمل وأتم عليك نعمه .

(٤) ظاهرة : هى نعم الطاعات .

(٥) باطنة : هى معرفتك بالله التى تباعدك عن الاغترار بالطاعات .

قال عليه الصلاة والسلام : '' ليس الغنى بكثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس '' وذلك هو الغنى بالله ، وهذه هى النعمة الحقيقية .

وقال عليه الصلاة والسلام : '' أحب العباد الى الله : الأغنياء ، الأخفياء ، الاتقياء '' أى : الأغنياء بالله ، الغائبون فيه عما سواه . فهذا هو الغنى الحقيقى .

أتم الله علينا نعمه ، ظاهرة وباطنة ، ورزقنا الحياء منه ، سرا وعلانية .

الحكمة الخامسة والسبعون

قال ابن عطاء الله :

خَيْرُ ما تَطْلُبُهُ مِنْهُ[1] ـــ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ[2]'' .

قال ابن عباد :

اذا كان لابد من الطلب منه ، فاطلب ما هو طالبه منك من الاستقامة على سبيل العبودية له ، فذلك خير لك من طلبك لحظوظك ومراداتك ، لأنك حينئذ تكون به وله ، ويسعفك بمطلوبك عاجلا من غير تأخير ، وأما إن طلبت منه حظ نفسك ، ونيل مرادك ـــ فقد يحصل فى ذلك تأخير ومنع ، مع ما يفوتك حينئذ من حسن الأدب فى الطلب . يحكى عن أبى الحسين الديلمى رضى الله تعالى عنه ، أنه قال : وصف لى بأنطاكية انسان أسود ، يتكلم على القلوب ، قال : فقصدته ، فلما رأيته رأيت معه شيئا من المباحات ، يريد أن يبيعه ، فساومته ، وقلت له : بكم تبيع هذا ؟ فنظر الىّ ، ثم قال : اقعد فإنك جائع منذ يومين ، حتى إذا بعنا هذا ، نعطيك من ثمنه شيئا ، قال فمضيت الى غيره ، وتغافلت ، كأنى لم أسمع ما قال ، وساومت غيره ما كان بين يديه ، ثم رجعت اليه ، وقلت له : بكم تبيع هذا ؟ فنظر الى ، وقال : اقعد ، فإنك جائع منذ يومين ، حتى اذا بعنا هذا ، نعطيك من ثمنه شيئا ، قال : فوقع فى قلبى منه هيبة ، فلما باع ذلك ، أعطانى شيئا ، ومضى ، قال : فمضيت خلفه ، لعلى أستفيد منه شيئا ، قال : فالتفت الىّ ، وقال :

---

(١) خير ما تطلبه منه : أى أفضل الأشياء التى تطلبها منه سبحانه وتعالى .

(٢) ما هو طالبه منك : أى الاستقامة ظاهرا وباطنا على سبيل العبودية له .

اذا عرضت لك حاجة فأنزلها بالله إلا أن يكون لك فيها حظ ، فتحتجب بها عن الله تعالى .

ومن دعاء أبى القاسم الجنيد رضى الله تعالى عنه : اللهم ، وكل سؤال سألتك فعن أمرك لى بالسؤال ، فاجعل سؤالى اليك سؤال محابك ، ولا تجعلنى ممن يتعمد بسؤاله مواضع الحظوظ ، بل يسأل القيام بواجب حقك .

ومن دعائه أيضا : اللهم ، أنى أسألك منك ما هو لك ، واستعيذك من كل أمر يسخطك ، اللهم ، ولا تشغلنى بشغل من يشغله عنك ما أراده منك الا أن يكون لك ، اللهم اجعلنى ممن يذكرك ذكر من لا يريد بذكره منك الا ما هو لك ، اللهم ، غاية قصدى اليك ما هو لك ، ولا تجعل قصدى اليك ما أطلبه منك .

تعقيـــب

أيها العبد المؤمن ، أفضل ما يُطلب منه سبحانه وتعالى ــ ما يطلبه منك : من الطاعة والاستقامة ظاهرا وباطنا ، وذلك على سبيل العبودية له ، فهذا خير لك من طلبك لحظوظك ورغباتك ومراداتك : دنيوية وأخروية ، فالله سبحانه هو الذى يختار لك ، وهو العالم بمصالحك ، والقادر على توصيلها اليك .

ومن دعاء أبى القاسم الجنيد رضى الله عنه « اللهم ، اجعل غاية قصدى اليك ما هو لك ، ولا تجعل قصدى اليك ــ ما أطلبه منك »

ومما قاله الشيخ « زروق » رضى الله عنه ــ فى شرحه :

« والذى هو طالبه منك ثلاث : التخلى عن كل شىء الا عنه ــ والتحلى بما يرضيه عنك ، ويردك اليه ــ والدوام على ذلك ، حتى تلقاه بلا فترة ولا تقصير . ويعبر عن ذلك باحدى عبارات ثلاث :ــ الطاعة والغنى به عنها ، والصدق فى العبودية ، والقيام بحقوق الربوبية ، والامتثال لأمره ، والاستسلام لقهره .

الحكمة السادسة والسبعون

قال ابن عطاء الله:

« الْحُزْنُ[1] عَلَى فِقْدَانِ الطَّاعةِ[2] ــ مَعَ عَدَمِ النُّهُوضِ[3] إِلَيْهَا ــ مِنْ عَلاَمَاتِ الاغْتِرَارِ »[4]

قال ابن عباد :

هذا هو الحزن الكاذب الذى يكون معه البكاء الذى كما قالوا : كم من عين جارية وقلب قاس ، وهو آمن مكر الله تعالى الخفىّ ، حيث منعه ما ينفعه ، واعطاه ما يغتر به من الحزن والبكاء .

سمعت رابعة رضى الله تعالى عنه ، رجلا يقول : واحزناه !

فقالت : قل ــ واقلة حزناه ! لو كنت محزونا لم يتهيأ لك أن تتنفس !

وأما الحزن الصادق فبخلاف هذا ، وهو مقام من مقامات السالكين ، وهو يبعث على الانكماش فى الأعمال ، والنهوض الى الطاعات على كل حال .

قال الشيخ أبو على الدقاق رضى الله تعالى عنه : صاحب الحزن يقطع من طريق الله عزّ وجل ــ فى شهر مالا يقطعه من فقد حزنه فى سنين ، وفى الخبر : « إن الله يحب كل قلب حزين »

---

(١) الحزن : انقباض القلب ، لفوت محبوب ، أو خوف حصول مكروه .

(٢) فقدان الطاعة : عدم وجودها فى الحال .

(٣) مع عدم النهوض اليها : أى فى المستقبل .

(٤) من علامات الاغترار : أى الغرور ، وهو الركون الى مالا حقيقة له .

وفى التوراة : ان الله اذا أحب عبدا نصب فى قلبه نائحة ؛ واذا أبغض عبدا نصب فى قلبه مزمارا .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم الفكر .

وقيل : الحزن اذا فقد من القلب خرب . ومن لم يذق طعم الحزن لم يذق لذة العبادة .

فإذن الحزن الذى يجده العبد من نفسه ، ان لم يبعثه على النهوض والانكماش والاجتهاد ـــ فذلك من علامات الاغترار ، وليس بمقام السالكين الأبرار .

تعقيـــب

الحزن على فقدان الطاعة ـــ مع عدم النهوض الى استدراك ما فات منها ، أو الى تحصيل ما حضر منها ـــ من علامات الغرور ، والركون الى مالا حقيقة له .

وهذا هو الحزن الكاذب الذى يكون معه البكاء الكاذب ، كما قيل : كم من عين جارية وقلب قاس .

وكما قال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : ليس البكاء بتعصير العيون ، وانما البكاء أن تترك الأمر الذى تبكى عليه .

وقيل : لا يغرنك بكاء الرجل ، فان أخوة يوسف ـــ جاءوا أباهم عشاء يبكون ، وقد فعلوا ما فعلوا .

وفى حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا استكمل الرجل النفاق ـــ ملك عينيه يرسلهما متى شاء »

أما الحزن الصادق ـــ فهو الذى يبعث على الطاعات ، ويكون معه البكاء الصادق . وهو من مقامات السالكين .

وكان عليه السلام دائم الفكر ، متواصل الأحزان مع إدامة الطاعة ليلا ونهارا ؛ فلتكن لنا فى رسول الله أسوة حسنة .

الحكمة الثامنة والسبعون

قال ابن عطاء الله :

« الرَّجَاءُ مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ[1] ، وَإِلاَّ فَهُوَ أُمْنِيَّةٌ[2] »

قال ابن عباد :

الرجاء مقام شريف من مقامات اليقين ، وهو يبعث على الاجتهاد فى الأعمال كما ذكرناه فى الحزن ، لأن من رجا شيئا طلبه ، ومن خاف من شىء هرب منه . وأما الرجاء الكاذب الذى يُفَتِّر صاحبه عن العمل ، ويجرئه على المعاصى والذنوب — فليس هذا برجاء عند العلماء ، ولكنه أمنية ، واغترار بالله تعالى ، وقد ذم الله تعالى قوما ظنوا مثل هذا ، وأصروا على حب الدنيا ، والرضا بها ، وتمنوا المغفرة على ذلك ، فسماهم خلْفا ، والخَلْف : الردىء من الناس ، فقال عز من قائل : « فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون سيغفر لنا »[3]

قال معروف الكرخى رضى الله تعالى عنه : طلب الجنة بلا عمل — ذنب من الذنوب ، وارتجاء الشفاعة بلا سبب — نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة من لا يطاع

---

(١) قال بعض العلماء : الرجاء : تعلق القلب بمطموع يحصل فى المستقبل مع الأخذ فى العمل المحصل عليه .
والأمنية : اشتهاء وتمن لا يصحبه عمل .
الرجاء ما قارنه عمل : أى الرجاء ما كان باعثا على الاجتهاد فى الأعمال .

(٢) والا فهو أمنية : أى إن لم يقارن الرجاء عمل — بأن كان يفتر صاحبه عن العمل ويجرئه على المعاصى والذنوب — فهو أمنية : أى ليس برجاء حقيقة عند العلماء وانما هو أمنية ، واغترار بالله تعالى : ويقال له : رجاء كاذب .

(٣) من آية ١٦٩ من سورة الاعراف .

جهل وحمق . وقال معروف الكرخي أيضا رضى الله تعالى عنه : رجاؤك الرحمة ممن لا تطيعه خذلان وحمق .

واعلم أنه ليس فى أفعال الحق سبحانه ما يوجب أن يؤمن عقابه ، انما فى أفعاله ما يمنع اليأس من رحمته ، وكما لا يحسن ألا يظهر من لطفه فى خلقه — لا يحسن الطمع فى جانبه ، ويؤمن أخذه وانتقامه ، فإن من قطع أشرف عضو بربع الدينار — لا يؤمن أن يكون عذابه غدا هكذا .

وقد قالوا : من زعم أن الرجاء مع الاصرار صحيح — فليزعم أن طلب الربح فى القبر ، وقدح النار فى البحر — صحيح .

وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله تعالى الأمانى » . وقال الحسن رضى الله تعالى عنه : إن قوما ألهتهم أمانى المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا ، وليس لهم حسنة ، يقول أحدهم : أحسن الظن بربى ، وهو يكذب ، لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل ، وتلا قول الله عز وجل « وذلك ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين »(١)

وكان يقول رضى الله تعالى عنه : عباد الله ، اتقوا هذه الأمانى ، فإنها أودية الهلكة ، تحلون فيها ، والله ما آتى الله عبدا بأمانيه خيرا فى الدنيا ولا فى الآخرة .
وكتب أبو عمير المنصورى الى بعض اخوانه : أما بعد ، فإنك قد أصبحت تؤمل بطول عمرك ، وتتمنى على الله الأمانى بسوء فعلك ، وإنما تضرب حديدا باردا .

تعقيب

الرجاء الحقيقى — هو ما قارنه العمل ، وذلك بأن يكون باعثا على الاجتهاد فى الأعمال ، والأخذ بالأسباب ، لأن من رجا شيئا ، وطمع فى تحقيقه — فعليه

---

(١) آية ٢٣ من سورة فصلت .

أن يطلبه بالعمل الجاد . قال تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » (من آية ٢٨٢ من سورة البقرة) . وفى الحديث الشريف عنه صلى الله عليه وسلم :

« إنما العلم بالتعلم ، وانما الحلم بالتحلم ، من يطلب الخير يؤته ، ومن يتق الشر يوقه .

« أما اذا لم يقارن الرجاء عمل — فهو أمنية ، ورجاء كاذب ، واغترار بالله تعالى ، قال عليه الصلاة والسلام : « ليس الايمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب ، وصدقه العمل ، وإن قوما غرتهم الأمانى ، حتى خرجوا من الدنيا ، ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله تعالى ، وكذبوا . لو أحسنوا الظن — لأحسنوا العمل .

فعلى العبد المؤمن أن يصحب رجاءه بالعمل ، وحسن الظن بالله ، وبعباد الله ، إنه أن فعل ذلك — هيأ الله له الخير — ويسر له من يأخذ بيده ، قال تعالى : « إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم » (آية ٧٠ من سورة الانفال)

كما أن عليه أن يبتعد عن سوء الظن . قال تعالى : « وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » (آية ٢٣ من سورة فصلت) .

الحكمة الثالثة والثمانون

قال ابن عطاء الله :

« رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَمَنَعَكَ ، وَرُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ »

قال ابن عباد :

مَنْعُ الله تعالى عبده من نيل شهواته ولذاته ، والكون مع شيء من عاداته — عطاء جزيل منه ، لأنه أبقاه معه ، واقتطعه عن حظوظه وأغراضه ، وجرده منها . وعكس هذا هو المنع على التحقيق ، وان كان عطاء فى الظاهر .

قال الشيخ محيى الدين بن العربى : اذا منعت — فذلك عطاؤه ، واذا أعطيت فذلك منعه ، فاختر الترك على الأخذ .

فالواجب على العبد أن يترك التدبير والاختيار لمن بيده ذلك ، فلن يعدم منه خيرا .

تعقيـــب

ربما أعطاك — الله سبحانه وتعالى — ما تميل إليه نفسك من الشهوات ، ونعيم الحياة الدنيا ولذتها — فمنعك التوفيق والطاعة والاقبال عليه . وربما منعك من شهواتك وملذات الحياة — فأعطاك التوفيق والرضا والقبول . وقد أشارت الآيات الكريمة إلى ذلك المعنى فى قوله تعالى : « فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن . كلا .... (الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة الفجر) .

أى ليس الأمر كذلك ، فقد يكون المنع عطاء ، والعطاء إهانة . ومما قاله « ابن عجيبة » :

الغالب على النفس الامارة واللوامة أن تنبسط بالعطاء ، وتنقبض بالمنع ، لأن فى العطاء متعتها وشهوتها ، فلا جرم أنها تنبسط بذلك ، وفى المنع قطع موادها وترك حظوظها ، ولا شك أنها تنقبض بذلك ، وذلك لجهلها بربها ، وعدم فهمها . فلو فهمت عن الله ـــ لعلمت أن المنع عين العطاء والعطاء عين المنع .

فربما أعطاك متعة الحياة الدنيا وزهرتها ، فمنعك جمال الحضرة وبهجتها ، وربما منعك زينة الدنيا وبهجتها ، فأعطاك شهود الحضرة ونظرتها .

ربما أعطاك عز الدنيا ، ومنعك عز الآخرة ، وربما منعك عز الدنيا وأعطاك عز الآخرة .

ربما أعطاك التعزز بالخلق ، ومنعك من التعزز بالحق ، وربما منعك من التعزز بالخلق ، وأعطاك التعزز بالملك الحق .

وما أصدق قول الله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون . « من آية ٢١٦ من سورة البقرة)

الحكمة السادسة والثمانون

قال ابن عطاء الله :

« إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لاَ يَفْنَى[1] ، فَلاَ تَسْتَعِزَّنَّ بِعِزٍ يَفْنَى »[2] .

قال ابن عباد :

العز الذى لا يفنى : هو الغنى عن الأسباب كلها ، بوجود مسببها ، لأنه باق لا يفنى ؛ فالتعلق به عز لا يفنى .

والعز الذى يفنى : هو الغنى بالأسباب مع الغيبة عن مسببها ، لأنها فانية ، فالتعلق بها عز فان لا يبقى ، والتعلق بالله عز لا يفنى . وليس لك الا أحدهما لأنهما ضدان لا يجتمعان .

فان اخترت العز الباقى بالله تعالى — لم يقدر أحد أن يذلك .

يحكى أن رجلا أمر بالمعروف « لهارون الرشيد » فحرد عليه[3] هارون الرشيد ، وكانت له بغلة سيئة الخلق ، فقال : اربطوه معها تقتله برمحها ، ففعلوا ذلك ، فلم تضره فقال : اطرحوه فى بيت ، وطينوا عليه الباب ، ففعلوا ذلك ، فرؤى فى بستان ، وباب البيت مسدوداً ، فَأُخْبِرَ هارون الرشيد بذلك ، فأتى بالرجل ، فقال : من أخرجك من البيت ؟!

---

(١) العز الذى لا يفنى : هو الغنى عن كل الأسباب ، وذلك يكون بالتعلق بمسببها الدائم الوجود ، سبحانه وتعالى .

(٢) العز الذى يفنى : هو التعلق بالاسباب ، مع الغيبة عن مسببها وذلك لأنها فانية ، فتعلقك بها وحدها عز لا يبقى بل يزول بزوالها .

(٣) حرد عليه : غضب عليه .

فقال : الذى أدخلنى البستان . فقال : ومن أدخلك البستان !؟

فقال : الذى أخرجنى من البيت ! فقال : أركبوه دابة ، وطوفوا به فى البلد ، وليقل قائل : ألا ان « هارون الرشيد » قد أراد أن يذل عبدا ، أعزه الله ، فلم يقدر ! .

وإن أردت العز بالأسباب خذلتك ، وأسلمتك أحوج ما تكون اليها ، وكنت فى غاية الذل والهوان .

حكى عن بعضهم ، أنه قال : رأيت رجلا فى الطواف ، وبين يديه شاكرية[1] يطردون الناس ، فبعد ذلك بمدة رأيت انسانا يتكفف الناس على الجسر ، ويسأل شيئا ، قال : فنظرت اليه ، وشبهته بذلك الرجل ، فقال : لأى شىء تنظر !؟

فقلت : أشبهك برجل رأيته فى الطواف ، من شأنه كذا وكذا ، فقال : أنا ذلك الرجل . تكبرت فى موضع يتواضع فيه الناس ، فوضعنى الله فى موضع يترفع فيه الناس !

قال فى التنوير : فان اعتززت بالله دام عزك ، وان اعتززت بغيره ــ فلا بقاء لعزك إذ لا بقاء لمن أنت به معتز ، قال : وأنشدنا بعض الفضلاء لنفسه :

أجعل بتربك شأن عز ... ك يستقر ويثبت

فان اعتززت بمن يمو ... ت فان عزك ميت

قال : ودخل انسان على بعض العارفين ، وهو يبكى ، فقال : ما شأنك !؟

قال : مات أستاذى ! فقال له ذلك العارف : و لم جعلت أستاذك من يموت !؟

ويقال لك : اذا اعتززت بغير الله ، ففقدته ، واستندت الى غيره فعدمته .

« وانظر الى الهك الذى ظللت عليه عاكفا ، لنحرقنه ، ثم لننسفنه فى اليم نسفا إنما الهكم الله الذى لا اله الا هو ، وسع كل شىء علما »[2]

تعقيب

العز الذى لا يفنى ــ هو العز بالله ، والغنى بطاعة الله ، أو بالقرب ممن تحقق

---

(١) شاكرية يطردون الناس : أُجَرَاء وخدم . الشاكرى : الأجير والمستخدم ، والجمع شاكرية .

(٢) سورة طه / من آية ٩٧ ، ٩٨ .

عزه بالله ، فالعز بالله يكون بتعظيمه واجلاله ، وهيبته ، ومحبته ، ومعرفته ، وحسن الأدب معه ، ويكون بالرضا بأحكامه والخضوع تحت قهر جلاله وكبريائه ، وبالحياء والخوف منه ، ويكون بالذل والانكسار .

وأما العز بطاعة الله — فهو بالمبادرة لامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، والاكثار من ذكره وبذل المجهود فى تحصيل بره .

وأما العز بالقرب ممن تحقق عزهم بالله ، فيكون بصحبتهم وتعظيمهم وخدمتهم ، وحسن الأدب معهم ، وهذا فى التحقيق يرجع الى العز بالله ، لأنه وسيلة اليه ، قال تعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » (من آية ٨ من سورة المنافقين).

وأما العز الذى يفنى — فهو التعزز بالمخلوق ، كتعزز ملوك الجور ، ومن انتسب اليهم بكثرة الأتباع والأجناد ، وبالعصى والقهر ، وكالتعزز بالأموال والجاه ، وغير ذلك .

فإن أردت أيها المريد أن يكون لك عز لا يفنى — فاستعز بالله ، وبطاعة الله ، والقرب من أولياء الله ، ولا تستعز بمخلوق يفنى ، فإن من تعزز بمن يموت — مات عزه .

قال تعالى : « أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا » (من آية ١٣٩ من سورة النساء) . واعلم أن سبب العز الذى يعطيه الله لأوليائه — هو حبه لهم ، فالعز نتيجة الحب . ففى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

إذا أحب الله عبدا نادى جبريل : إن الله يحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماوات : ان الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض ، فيحبه أهل الأرض ...

أما سبب حب الله للعبد — فهو زهده فى الدنيا ، ففى حديث الترمذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس »[1] .

---

(١) مما قاله ابن عجيبة فى شرحه .

الحكمة الثامنة والثمانون

قال ابن عطاء الله :

« **الْعَطَاءُ مِنْ الْخَلْقِ حِرْمَانٌ[1] ، وَالْمَنْعُ مِنَ اللهِ إِحْسَانٌ[2]** » .

قال ابن عباد :

عطية الخلق لك حرمان على التحقيق ، لما فيه من رؤيتك لغير الله ، ووقوفك مع حظوظك وشهواتك ، ومنع الله لك احسان ؛ لأنه ألزمك الوقوف ببابه ، وعافاك من وجود حجابه .

وان شئت قلت : العطاء من الخلق حرمان ، لما فيه من وجود محبتك لهم على ذلك ، وتقلد منتهم فى أخذ عطيتهم ، والمنع من الله احسان ، لأنه حبيبك ، وكل ما يفعل الحبيب محبوب ، ولله در من قال .

فلاألبس النعمى وغيرك مُلْـبِسِي ولا أقبل الدنيا وَغَيْـرُكَ وَاهِبِـى

وفى وصية على رضى الله عنه : لا تجعل بينك وبين الله منعما ، واعدد نعمة غيره عليك مغرما .

وقال بعض الحكماء : حمل المنن أثقل من الصبر على العدم .

وقال آخر : عز النزاهة أشرف من سرور الفائدة .

---

(١) العطاء من الخلق حرمان : أى أنه اذا أعطاك الخلق شيئا ما ، فأخذته غافلا عن الله ، سبحانه وتعالى — فهو وان كان عطاء فى الظاهر ، لكنه حرمان فى الباطن وفى الحقيقة ، لما فيه من غفلتك عن الله وغياب القلب عن الحق .

(٢) والمنع من الله احسان : أى منع الله لك ، وعدم اعطائك — احسان لك ، لأنه وان كان منعا ظاهرا — فهو عطاء باطنا ، لأنه يقتضى الالتجاء الى الله ، ودوام العبودية لله .

تعقيـــب

العطاء من الله هو العطاء الحقيقى ، والمنع منه هو عين العطاء لمن فهم مراده به . ولكن لا يفهم العطاء ، فى المنع الا صدّيق .

قال أبو حبيب البدوى رضى الله عنه لسفيان الثورى رحمه الله : مالى أطلب الشى ، من الله تعالى ، فيمنعنى ؟ قال : منع الله اياك عطاء ؛ لأنه لم يمنعك من بخل ولا عدم .

وانما كان العطاء من الخلق حرمانا لثلاثة أوجه : أحدها : تقلد المنة والثانى : صرف الوجه اليهم ، والانس بهم ، وربما أدى ذلك الى الاعتماد عليهم . والثالث : شغل الوقت بهم مكافأة وغيرها .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : « اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم ؛ لأن خيرهم يصيبك فى قلبك ، وشرهم يصيبك فى بدنك ، ولأن تصاب فى بدنك خير من أن تصاب فى قلبك ، ولعدوّ ترجع به الى الله تعالى خير من صديق يصدك عن الله » (مما قاله الشيخ زروق فى شرحه) .

الحكمة السادسة والتسعون

قال ابن عطاء الله :

« مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلاً وَافْتِقَاراً ــ خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزاً وَاسْتِكْبَاراً »[1] .

قال ابن عباد :

الذل والافتقار من صفات العبودية ، والعز والاستكبار مناقضان لها ؛ لأنهما من صفات الربوبية ، ولا خير فى الطاعة اذا لزم عنها شىء مما يناقض صفات العبودية ، لأنها تحبطها وتبطلها ، كما لا مبالاة بالمعصية اذا لزمتها صفات العبودية ، لأنها أيضا تمحوها وتزيلها .

قال سيدى أبو مدين رضى الله عنه : انكسار العاصى خير من صولة المطيع ، وكان سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه ــ كثير الرجاء لعباد الله ، الغالب عليه شهود وسع الرحمة ، وكان يكرم الناس على قدر رتبتهم عند الله تعالى ، حتى إنه ربما دخل عليه مطيع ، فلا يعبأ به ، وربما دخل عليه عاص ، فأكرمه ، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله ، ناظر لفعله ، وذلك العاصى دخل عليه بكثرة معاصيه ، وذلة مخالفته ، وقد تقدم مثل هذا عند قوله : لا يعظم الذنب عندك عظمة

---

(١) معصية أورثت ذلا وافتقارا ــ خير من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا : ذلك أن الذل والانكسار ، وكذلك الافتقار والاحتقار ــ من أوصاف العبودية ، وفيه قرب من الله .

أما العز والاستكبار ــ فهما من أوصاف الربوبية ، والتعلق بهما يقتضى الخذلان والتباعد عن المراتب العلية .

وفى رواية : معصية أورثت ذلا وانكسارا »

وفى نسخة الشيخ « زروق » : معصية أورثت ذلا واحتقارا » وهى معان متقاربه .

تصدك عن حسن الظن بالله تعالى ، فمن هذا المعنى ما روى عن أبان بن عياش ، أنه قال : خرجت يوما من عند أنس بن مالك رضى الله عنه بالبصرة ، فرأيت جنازة يحملها أربعة من الزنج ، ولم يكن معهم رجل آخر .

فقلتُ : سبحان الله ! بسوق البصرة ، وجنازة مسلم ، لا يشيعها أحد !؟ فلأكونن خامسهم ، فمضيت معهم ، فلما وضعوها بالمصلى ، قالوا لى : تقدم ، فقلت : أنتم أولى به ، فقالوا : كلنا سواء ، فتقدمت ، فصليت عليه ، وقلت لهم : ما القضية !؟

فقالوا : اكترتنا تلك المرأة ، قال : فقعدتُ ، حتى دفنوه ، فلما كان بعد ساعة انصرفت تلك المرأة ، وهى تضحك ، فدخل قلبى شىء !؟

فقلت : لا ينجيك الا الصدق ، أخبريني ، ايش القصة !؟

فقالت : ان هذا ابنى ، ما ترك شيئا من المعاصى الا فعله ! ، فمرض منذ ثلاثة أيام ، فقال : ياأماه ، اذا متُ فلا تخبرى بوفاتى جيرانى ، فانهم لا يحضرون جنازتى ويشمتون بموتى ، واكتبى على خاتمى هذا ، لا اله الا الله محمد رسول الله ، واجعليه على كفنى ، فلعل الله تعالى يرحمنى به ، وضعى رجلك على خدى وقولى : هذا جزاء من عصى الله ، فاذا دفنتينى ، فارفعى يديك الى الله تعالى ، وقولى : انى رضيت عنه ، فارض عنه .

فلما مات فعلت جميع ما أوصى به ، فلما رفعت يدى إلى السماء ، سمعت صوته بلسان فصيح : انصرفى يا أماه ، فقد قدمت على رب كريم رحيم ، غير غضبان علىّ ، فإنما ضحكت من هذا !

ومن المعنى الآخر ما روى أن رجلا من بنى اسرائيل ، أتى عابدا من بنى اسرائيل ، فوطىء على رقبته ، وهو ساجد ، فقال له العابد : ارفع ، فوالله لا يغفر الله لك ، فأوحى الله عز وجل : أيها المتألى علىّ ، بل أنت لا يغفر الله لك .

قال الحرث المحاسبى رضى الله عنه : لأنه انما تألى على الله عز وجل ، ألا يغفر الله له ، لعظم قدر نفسه عنده . وأن الأساءة اليه عند الله عز وجل — عظيمة ، لا يغفرها الله تعالى ، لموضع عبادته وسجوده ، لأنه عد نفسه عظيم القدر عند الله ، عز وجل — فجمع بين عجب وكبر ، واغترار بالله عز وجل .

ومن المعنيين جميعا ما روى أن عيسى عليه الصلاة والسلام خرج ومعه صالح من صالحى بنى اسرائيل ، فتبعهما رجل خاطىء ، مشهور بالفسق فيهم ، فقعد منتبذا عنهما منكسرا ، فدعا الله سبحانه وتعالى ، فقال : اللهم اغفر لى . ودعا هذا الصالح وقال : اللهم لا تجمع بينى وبين هذا العاصى ، فأوحى الله تعالى الى عيسى عليه الصلاة والسلام ، إنى قد استجبت دعاءهما جميعا : رددت ذلك الصالح ، وغفرت لذلك المجرم .

وروى عن الشعبى أيضا عن الخليل بن أيوب : أن رجلا كان فى بنى اسرائيل ، يقال له خليع بنى اسرائيل ، لكثرة فساده ، مر برجل آخر من بنى اسرائيل ، يقال له : عابد بنى اسرائيل ، وعلى رأس العابد غمامة تظله ، فقال الخليع فى نفسه : أنا خليع بنى اسرائيل ، وهذا عابد بنى اسرائيل ، فلو جلست اليه ، لعل الله — عز وجل — أن يرحمنى به ، فجلس اليه ، فقال العابد فى نفسه : أنا عابد بنى اسرائيل ، وهذا خليع بنى اسرائيل ، يجلس الىَّ ، فأنف منه ، وقال : قم عنى ، فأوحى الله — عز وجل الى نبى ذلك الزمن : مُرْهُمَا ، فليستأنفا العمل ، فقد غفرت للخليع ، وأحبطت عمل العابد . وفى حديث آخر : فتحولت الغمامة على رأس الخليع .

قال الحرث المحاسبى : وانما أراد الله — عز وجل — من عباده قلوبهم ، لتكون جوارحهم تبعا لقلوبهم ، فاذا تكبر العالم أو العابد وأنف ، وتواضع الجاهل أو العاصى وذل ؛ هيبة لله عز وجل وفرقا منه — فهو أطوع لله — عز وجل — من العابد أو العالم بقلبه .

تعقيب

المعصية التى تورث الذل والانكسار والافتقار الى الله سبحانه وتعالى — خير وأفضل من الطاعة التى يزهو بها صاحبها ، فتورثه العزة والاستكبار .

ذلك : أن الذل والانكسار ، والخضوع والافتقار — من صفات العبودية ، وهى تقرب العبد من الله عز وجل .

أما العزة والاستكبار — فانهما من صفات الربوبية ، وهما يقودان العبد الى الخذلان

والى الابتعاد عن العزيز الرحمن . وفى هذا المعنى يقول الشيخ « أبو مدين » انكسار العاصى خير من صولة المطيع »

ولأن الهدف من الطاعة هو الخضوع والخشوع ، والانقياد والتذلل ، فاذا خلت الطاعة من هذه المعانى ، ولم تحقق الهدف منها — فالمعصية التى تحقق هذه المعانى — تكون أفضل منها ، لأنه لا عبرة بصورة الطاعة ، ولا بصورة المعصية ، وانما العبرة بما ينتج عنهما .

ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى أعمالكم وإنما ينظر الى قلوبكم »

ويقول أيضا الرسول صلى الله عليه وسلم « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشد من ذلك : العجب . . .!

الحكمة السادسة عشر بعد المائة

قال ابن عطاء الله :

« أَمَرَكَ فِى هَذِهِ الدَّارِ[1] بِالنَّظَرِ فِى مُكَوَّنَاتِهِ[2] ، وَسَيَكْشِفُ لَكَ فِى تِلْكَ الدَّارِ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ » .

قال ابن عباد :

رؤية العباد لربهم عز وجل على حسب تجليه لهم ، ففى هذه الدار يرونه ظاهرا فى المكونات بأنوار بصائرهم ، لما تجلى لهم من وراء حجابها ، ولذلك أمرهم بالنظر فيها ، وفى الدار الآخرة يرونه معاينة بأنوار أبصارهم من غير حجاب ولا مانع ، وهذا غاية الظهور والكشف .

تعقيب

أيها العارف بربه : أمرك الله — سبحانه وتعالى — بالنظر والتأمل فى أكوانه ، والتدبر فى آياته فى الأرض وفى السماوات وفى نفسك ، وذلك لتراه — جل شأنه — بنور بصيرتك ظاهرا فيها من وراء حجاب .

قال تعالى : « قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض » (من آية ١٠١ من

---

(١) أمرك فى هذه الدار : أى أمرك الله سبحانه وتعالى فى هذه الحياة الدنيا.

(٢) بالنظر فى مكوناته : أى بالتأمل فى أكوانه ، لتراه بنور بصيرتك — من وراء حجاب — فى المكونات التى أمرك بالنظر فيها .

مكوناته : بتشديد الواو المفتوحة ، أى أكوانه .

سورة يونس) وقال تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة الذاريات)

ولا شك أن تلك الرؤية فى هذه الحياة الدنيا ــ بمشاهدة آثاره فى أكوانه الدالة على قدرته ــ تفضل من الله عليك ، وكرامة منه سبحانه وتعالى اليك .

هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة ، فسيكشف لك سبحانه عن كمال ذاته ، فتراه فى تلك الدار الآخرة بعين البصر ، كما رأيته فى الدنيا بعين البصيرة .

قال تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » (الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة) .

وعن أبى موسى الأشعرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادى : يا أهل الجنة ــ بصوت يسمع أولهم وآخرهم ــ ان الله وعدكم الحسنى وزيادة ، فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر الى وجه الرحمن عز وجل » . وسئل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ؟ (من آية ٢٦ من سورة يونس) قال : الحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر الى وجه الله عز وجل . (تفسير ابن كثير) .

وفقنا الله ــ فى هذه الحياة الدنيا ــ الى النظر والتأمل والتدبر فى أكوانه وآثاره الدالة عليه ، وعلى قدرته ومنَّ علينا ــ فى الآخرة ــ بفضله وكرمه بالنظر الى وجهه الكريم .

الحكمة العشرون بعد المائة

قال ابن عطاء الله :

« الصَّلاَةُ مَحَلُ الْمُنَاجَاةِ[1] ، وَمَعْدِنُ الْمُصَافَاةِ[2] : تَتَّسِعُ فِيهَا مَيَادِينُ الْأَسْرَارِ[3] ، وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ الأَنْوارِ[4] ، عَلِمَ وُجُودَ الضَّعْفِ مِنْكَ ، فَقَلَّلَ أَعْدَادَهَا[5] ، وعَلِمَ احْتِيَاجَكَ إِلَى فَضْلِهِ ، فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا[6] » .

قال ابن عباد :

« الصلاة محل المناجاة » لأن فيها يكون محل الثناء والدعاء ، والمناجاة مخاطبة الأسرار عند صفاء الأذكار للملك الجبار « ومعدن المصافاة » وهى زوال الأكدار الكونية بينك وبين ربك ، حتى يصفو قلبك وسرك ، فيصفو لك ، حينئذ شهوده ، ويمحو ذاتك وجوده و « تتسع فيها ميادين الأسرار » حتى تتكاثر عليك فى الظهور

---

(١) الصلاة محل المناجاة : المناجاة : هى المساررة مع الأحباب . فمناجاة العبد لربه تكون بالتلاوة والأذكار والدعاء . . الخ .
ومناجاة الرب لعبده تكون بالتفهم والفتح ورفع الأستار .

(٢) ومعدن المصافاة : المصافاة خلوص المناجاة ، فهى أرق وأصفى من المناجاة .
ومصافاة العبد لربه — بتوجهه إليه بكليته ، واقباله عليه .
ومصافاة الرب لعبده — بالاقبال عليه ، حتى لا يدعه لغيره .

(٣) تتسع فيها ميادين الأسرار : أى تتسع فيها القلوب الشبيهة بالميادين .
أى تنشرح بتوارد الأسرار التى تتسابق اليها .

(٤) تشرق فيها شوارق الأنوار : أى تطلع فيها الأنوار الشبيهة بالكواكب .

(٥) قلل عددها : أى جعل الخمسين خمسا .

(٦) كثر امدادها : أمداد : جمع مدد . وهو الثواب والجزاء ، فجعلها خمسا فى الفعل ، وخمسين فى الأجر ؛ فالحسنة بعشر أمثالها .

« وتشرق فيها شوارق الأنوار « فيكون قلبك نورا على نور ، وهذه العبارات الست معانيها متقاربه[1] . ولما كانت هذه الأحوال التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى — من فوائد الصلاة ، وأن المقصود منها إنما هو تحصيلها — كان ذكر المؤلف لها كالدليل على ما قاله من أن المأمور به إنما هو اقامة الصلاة ، لا وجود الصلاة ، فان الصلاة المعتبرة — انما هى صلاة الخاشعين ، لا صلاة الغافلين التى لاتنتهض لبلوغ هذه المقاصد السنية ؛ ولذلك كانت الصلاة أُمَّ العبادات ، وأساس الخيرات ، قال الله تعالى : « وأقم الصلاة لذكرى »[2]

فأخبر أن المراد من الصلاة الذكر ، وقد روى معنى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إنما فرضت الصلاة ، وأمر بالحج والطواف ، وأشعرت المناسك ، لاقامة ذكر الله »

ولذلك كانت قرة عين حبيب الله صلى الله عليه وسلم ، على ما سيأتى الكلام عليه حيث تعرض المؤلف له .

وفى بعض الأخبار : « أن العبد اذا قام الى الصلاة ، رفع الله الحجاب بينه وبينه ، وواجهه بوجهه ، وقامت الملائكة من لدن منكبيه الى السماء ، يصلون بصلاته ، ويؤمنون على دعائه ، وان المصلى لينشر عليه البرُّ من عنان السماء الى مفرق رأسه ، ويناديه مناد : لو يعلم المناجى من يناجى ما انفتل[3] ، وأن أبواب السماء تفتح للمصلى ، وأن الله تعالى يباهى ملائكته بصفوف المصلين » .

وفى التوراة : يابن آدم ، لا تعجز أن تقوم بين يدىَّ مصليا باكيا ، فأنا الله الذى اقتربت من قلبك ، وبالغيب رأيت نورى . وكانوا يَرَونَ أن تلك الرقة والبكاء ، وذلك الفتوح الذى يجده المصلى فى قلبه — من دُنو الرب من القلب . وقال محمد بن على الترمذى رضى الله تعالى عنه : دعا الله تعالى الموحدين الى هذه الصلوات الخمس ، رحمة منه عليهم ، وهيأ لهم فيها ألوان الضيافات ؛ لينال العبد من كل فعل وقول شيئا من عطاياه .

---

(١) يشير بذلك الى فائدتين أخريين من فوائد الصلاة ، وردتا فى الحكمة السابقة حيث يقول : « الصلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب ، واستفتاح لباب الغيوب .

(٢) من آية ١٤ من سورة طه .

(٣) انفتل : انصرف .

فالأفعال كالأطعمة ، والأقوال كالأشربة ، وهى عرس الموحدين ، هيأها رب العالمين ، لأهل رحمته فى كل يوم خمس مرات ، حتى لا يبقى عليهم دنس ولا غبار .
وقال أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه : حدثت : أن المؤمن اذا توضأ — تباعدت عنه الشياطين فى أقطار الأرض خوفا منه ، لأنه تأهب للدخول على الملك ، فاذا كبَّر — حجب عنه ابليس ، ضرب بينه وبينه سرادق ، لا ينظر اليه ، وواجهه الجبار بوجهه الكريم ، فاذا قال : الله أكبر — اطلع الملك على قلبه ، فاذا كان ليس فى قلبه أكبر من الله ، فيقول الملك : صدقت ، الله أكبر فى قلبك كما تقول .
قال : فيتشعشع من قلبه نور ، يلحق بملكوت العرش ، فيكشف له بذلك النور ملكوت السماوات والأرض ، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات .

قال : وإن الغافل الجاهل اذا قام الى الوضوء — احتوشته الشياطين ، كما يحتوش الذباب نقطة العسل ، فاذا كبَّر — اطلع الملك على قلبه ، فاذا كل شىء فى قلبه أكبر من الله عنده ، فيقول الملك : كذبت ، ليس الله أكبر فى قلبك كما تقول ! قال : فيثور من قلبه دخان ، يلحق بعنان السماء ، فيكون حجابا لقلبه عن الملكوت .

قال : فيرُّد ذلك الحجاب صلاته ، وتلتقم الشياطين قلبه ، فلا تزال تنفخ فيه ، وتنفث وتوسوس اليه ، وتزين له ، حتى ينصرف من صلاته لا يعقل ما كان فيه .
ومعانى هذه الأخبار والآثار موافقة لمعنى ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى ، دالة عليه ، فلذلك أوردتها هنا ، والله ولى التوفيق برحمته .
(علم وجود الضعف منك ، فقلل أعدادها ، وعلم احتياجك الى فضله ، فكثر أمدادها) .
فهذا من فضل الله تعالى الذى عوّده عبده ، فتقليل أعدادها : بأن جعل الخمسين خمسا ؛ وذلك تخفيف منه لما علم من وجود ضعفه .
وتكثير أمدادها : بأن جعل للخمس ثواب الخمسين ، وذلك فضل منه عليه ، اذ كان محتاجا إليه ، فله الحمد والشكر على ذلك ، وهذه المعانى مذكورة فى حديث الإسراء .

تعقيـــب

في هذه الحكمة ، وفى سابقتها (الحكمة التاسعة عشرة بعد المائة) يعدد ابن عطاء الله : نتائج الصلاة ، وثمرتها المرجوة .

ففى الحكمة السابقة يشير الى أن : الصلاة طهارة للقلوب ، واستفتاح لباب الغيوب وهنا يشير الى أن : الصلاة محل المناجاة ، ومعدن المصافاة ، وتتسع فيها ميادين الأسرار ، وتشرق فيها شوارق الأنوار .

ثم يتبع ذلك بذكر الحكمة فى حصر الصلوات فى خمس ، حيث يقول : « علم وجود الضعف منك ، فقلل عددها » وذلك بأن جعلها خمسا بعد أن كانت خمسين وهذا من فضل الله ، ورحمته بعباده .

ثم يبين جزيل الثواب ، وعظيم العطاء ، حيث يقول : « وعلم احتياجك الى فضله فكثر أمدادها » فقد جعل كل صلاة بعشر صلوات ، فى الثواب والأجر ، فهى خمس فى العدد ، وخمسون فى الثواب والجزاء . والله ذو الفضل العظيم .

وقد خاطب الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فى ذلك بقوله : « هن خمس ، وهن خمسون ، ما يبدل القول لدىّ ، الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، وأغفر . . الحديث » .

وهذا بالاضافة الى فضل صلاة الجماعة التى يتضاعف فيها الثواب والجزاء الى خمس وعشرين درجة » أو الى سبعة وعشرين درجة .

كما تتفاوت الدرجات أيضا بقدر البقاع والأماكن وفضلها ، وذلك كالصلاة فى البيت الحرام ، وفى المسجد النبوى ، وفى بيت المقدس ، وقد أشارت الى ذلك الأحاديث .

وهذا كله من فضل الله ورحمته ، : « والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » (من آية ١٠٥ من سورة البقرة) .

« فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » (آية ١٧ من سورة السجدة) .

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المائة

قال ابن عطاء الله :

« السِّتر عَلَى قِسْمين : ستْرٌ[1] عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، وَسِتْرٌ فِيها[2] ، فَالْعَامَّةُ يَطْلُبُونَ مِنَ الله تَعَالَى السِّتْرَ فِيهَا ، خَشْيَةَ سُقُوطِ مَرْتَبَتِهِمْ عِنْدَ الْخلْقِ[3] ، وَالْخَاصَّةُ يَطْلُبُونَ مِنَ اللهِ السِّتْرَ عَنْهَا ، خَشْيَةَ سُقُوطِهِم مَنْ نَظَرِ الْمَلِكِ الْحَقِّ[4] »

قال ابن عباد :

العامة يغلب عليهم شهود الخلق ، والتصنع والتزين لهم ، ومحبة حمدهم وكراهية ذمهم ، فهم يعملون المعصية ، ويستخفون بها ــ ويطلبون الستر من الله عليهم فيها ، أى فى حال كونهم عاملين بها ؛ لئلا يراهم الخلق ، فيسقطوا من أعينهم ، وفى أمثالهم قال الله عز وجل :

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون مالا يرضى من القول[5] . قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه : فى هذه الآية : الغالب على قلوبهم رؤية الخلق ، ولا يشعرون أن الحق مطلع عليهم ، أولئك الذين وسم الله قلوبهم بوسم الفرقة .

---

(١) الستر : الحفظ والتغطية .
ستر عن المعصية : أى بالحفظ منها ، والمنع عنها ، وعدم تهيئة أسبابها .

(٢) ستر فيها : أى مع فعلها ، وذلك بألا يظهرها للناس حال فعلها ، أو بعده .

(٣) خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق : أى يطلبون ذلك من أجل خشية سقوط منزلتهم عند الناس اذا اطلعوا عليهم .

(٤) خشية سقوطهم من نظر الملك الحق : أى خشية سقوط منزلتهم عند الملك الحق ، وذلك عند مخالفتهم له ، وتعرضهم لسخطه .

(٥) من آية ١٠٨ من سورة النساء .

روى عدى بن حاتم رضى الله تعالى عنه : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : يؤمر يوم القيامة بناس من الناس إلى الجنة ، حتى إذا دَنَوا منها ، ونظروا اليها ، واستنشقوا ريحها ، وما أعد الله لأهلها ـــ نودوا : أن اصرفوهم عنها ، فلا نصيب لهم فيها .

قال : فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون بمثلها ! فيقولون : يا ربنا ، لو أدخلتنا النار ، قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك ، وما أعددت فيها لأوليائك ـــ كان أهون علينا !

قال : ذلك أردت بكم . كنتم اذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم ، واذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين[1] ، تراءون الناس ، بخلاف ما تعطونى من قلوبكم ، هبتم الناس ولم تهابونى ، وأجللتم الناس ولم تجلّونى ، وركنتم الى الناس ولم تركنو الىّ فاليوم أذيقّكم أليم العذاب مع ما حرمتم من الثواب .

وفى بعض الكتب المنزلة : إن لم تعلموا أنى أراكم ، فالخلل فى إيمانكم ، وإن علمتم أنى أراكم ، فلم جعلتمونى أهون الناظرين اليكم !؟

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور[2] ـــ هو الرجل تمر به المرأة فى القوم ، فيريهم أنه يغض بصره عنها ، ويودُّ أنه يطلع على عورتها ، ويقدر عليها .

وقال فى رواية أخرى : هو الرجل يكون فى القوم ، فتمر بهم المرأة ، فيريهم أنه يغض بصره عنها ، فاذا رأى من القوم غفلة ـــ لحظ اليها ونظر ، فاذا خاف أن يفطنوا ، غض بصره عنها ، فقد أطلع الله ـــ عز وجل ـــ على قلبه : أنه يودّ لو نظر الى عورتها ، وهذا كله شأن المرائين الذين يستخفون بنظر الجبار ، ويهابون الناس أن يطلعوا عليهم فيما يرتكبونه من الأوزار .

والخاصة من أهل الايمان واليقين : برآء من هذا الوصف الذميم :

لا التفات لهم الى الخلق مدحا ولا ذما ، وهمتهم مصروفه عن النظر اليهم ، والاعتماد عليهم فى نفع أو دفع ضرّ ، وحالهم انما هو القناعة بعلم الله تعالى ، ومراقبة

---

(١) مخبتين : خاشعين مطمئنين .

(٢) آية ١٩ من سورة غافر .

نظره ، فهم يطلبون الستر من الله عنها فى أن يغيبها عن نظرهم ، ولا يخطرها بقلوبهم فتميل اليها أنفسهم ، فيعملون بها ، فيقعون فى مخالفة ربهم ، والتعرض لسخطه والسقوط من عينه ، وشتان ما بين الحالين !

والى هذا المعنى أشار سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : فى دعائه بقوله : اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها ، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها ، وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها ، واحملنا على النجاة منها ، ومن التفكر فى طرائقها ، وامح من قلوبنا حلاوة ما اجتنيناه منها ، واستبدلها بالكراهة لها ، والطعم لما هو بضدِّها .

تعقيب

العامة من الناس يطلبون من الله تعالى ــ الستر فى المعصية ، خوف اطلاع الناس عليهم حال المعصية أو بعدها ، حتى لا يفضح صاحبها ، فهم يخشون الناس ولا يخشون الله ، وهم : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم »

والله سبحانه وتعالى : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

وهؤلاء هم الذين يعتمدون على غيرهم ، ويراءون الناس ، وهم أهل النفاق : أهل الشرك الخفى .

أما الخاصة من الناس ــ فهم يطلبون من الله تعالى ــ الستر عن المعصية ، وذلك بأن يحول بينهم وبين الوقوع فيها ، ويجعل بينهم وبينها حاجبا ، وذلك خشية سقوطهم من نظر الله تعالى .

وشتان ما بين هذين الحالين ، وشتان ما بين الفريقين : العامة ، والخاصة !

الحكمة الثانية والأربعون بعد المائة

قال ابن عطاء الله :

« النَّاسُ يَمْدَحُونَكَ ، لِماَ يَظُنُّونَهُ فِيكَ[1] ــ فَكُنْ أَنْتَ ذَامًّا لِنَفْسِكَ ، لِمَا تَعْلَمُهُ مِنْهَا[2]

قال ابن عباد :

ذمُّ العبد لنفسه ، واحتقارها لما يتحققه من عيوبها وآفاتها ــ مطلوب منه ، لأن ذلك يؤديه الى الحذر من غروزها وسرورها ، فتصلح بسبب ذلك أعماله ، وتصدق أحواله والا فسدت عليه ، واعتلت لدخول الآفات عليها ، ولا يصدّنه عن ذلك ثناء الناس عليه ومدحهم له ، لأنه يعلم من عيوب نفسه مالا يعلمه غيره .

ثم انهم لما قاموا بحق ما يجب عليهم من المدح له ، وحسن الظن به ، فينبغى أيضا أن يقوم هو بحق ما يجب عليه من اتهام نفسه ، وسوء اعتقاده فيها .

قال بعضهم : من فرح بمدح نفسه ــ فقد أمكن الشيطان أن يدخل فى بطنه .

وقال آخر : اذا قيل لك : نعم الرجل أنت ، فكان أحب اليك من أن يقال : بئس الرجل أنت ــ فأنت والله بئس الرجل !

وقيل لبعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم : لن يزال الناس بخير ما أبقاك الله فيهم ، فغضب ، وقال : انى لأحسبك عراقيا .

---

(١) النّاس يمدحونك ، لما يظنونه فيك : أى يمدحونك بالخير والصلاح ، لما يظنونه فيك من حميد الخصال وجميل الصفات .

(٢) فكن أنت ذاما لنفسك ، لما تعلمه منها : أى لا تغتر بمدح الناس لك ، وثنائهم عليك ، فأنت أعلم بنفسك . بل يجب أن تذم نفسك على اتصافها بخلاف مايظنه الناس فيك .

وقال بعضهم لما مدح : اللهم إن عبدك تقرّب إلّى بمقتك ، فأُشهدك على مقته .
وقال آخر : اللهم اجعلنا خيرا مما يظنون ، ولا تؤاخذنا بما يقولون ، واغفر لنا مالا يعلمون .

قال الامام ابو حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه : وانما كرهوا المدح ، خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق ، وهم ممقوتون عند الخالق ، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله يبغض اليهم مدح الخلائق ، لأن الممدوح هو المقرب عند الله تعالى ، والمذموم على الحقيقة هو المبعد عند الله تعالى ، الملقى فى النار مع الأشرار . فهذا الممدوح إن كان عند الله تعالى من أهل النار — فما أعظم جهله ، اذا فرح بمدح غيره ، وان كان من أهل الجنة فلا ينبغى أن يفرح الا بفضل الله تعالى ، وثنائه عليه ، اذ ليس أمره بيد الخلق ، ومهما علم أن الارزاق والآجال بيد الله تعالى — قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح ، واشتغل بما يهمه من أمر دينه . انتهى كلام أبى حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه .

تعقيـــب

أيها العبد المؤمن : اياك والغرور بمدح الناس لك ، وثنائهم عليك ، لما يظن فيك من الصفات الجميلة ، والخصال الحميدة ، فأنت أعلم بنفسك من جميع الناس « بل الانسان على نفسه بصيرة » (آية ١٤ من سورة القيامة) .

وانما يجب عليك أن تلوم نفسك ، وتذمها ، لما اتصفت به من صفات ، تغاير ما يظن الناس فيك .

ولذلك يقول الامام على كرم الله وجهه : « اللهم اجعلنا خيرا مما يظنون ، ولا تؤاخذنا بما يقولون ، واغفر لنا مالا يعلمون »

ولا شك أن المبالغة فى المدح والغلو فيه — دليل الكذب ، وذلك منهى عنه ، والى هذا أشار الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله : « احثوا التراب فى وجوه المداحين » وقوله عليه الصلاة والسلام : « اياكم والمدح ؛ فانه الذبح »

وقوله عليه الصلاة والسلام لمن مدح رجلا عنده : « قطعت عنق صاحبك » وقد ذم الله قوما ، يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فقال تعالى : « لا تحسبن الذين

يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » (آية ١٨٨ من سورة آل عمران) .

قال « ابن عجيبة » : أهل الفهم عن الله يستمعون الى الخطاب ، فاذا سمعوه مدحهم بشيء نظروا ، فاذا كان فيهم — علموا أنه تنبيه لهم على مقام الشكر — وان لم يجدوه فيهم — علموا أنه تنبيه لهم على تحصيل ذلك المقام ، ولهذا لما سمع أبو حنيفة قوما يمدحونه بقيام الليل كله وكان لا يقوم الا نصفه — جعل يقوم الليل كله .

الحكمة السبعون بعد المائة

قال ابن عطاء الله :

« عَلِمَ أَنَّ العِبَادَ ــ يَتَشَوَّفُون[1] إِلَى ظُهُورِ سِرِّ[2] الْعِنَايَةِ ، فَقَالَ : (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) . وَعَلِمَ أَنَّهُ ــ لَوْ خلاهُمْ وَذَلِكَ[3] ــ لَتَركُوا الْعَمَلَ ، اعْتِمَاداً عَلَى الأَزَلِ[4] فَقَالَ : (إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ) .

قال ابن عباد :

ظهور سر العناية التى مقتضاها الرحمة ــ هو تخصيص المشيئة فى قوله عز من قائل : « يختص برحمته من يشاء »[5] ــ ولا علة له من البعد والاحسان المنسوب اليه فى قوله : « إن رحمة الله قريب من المحسنين »[6] ــ أمارة وعلامة على تلك العناية ، وليس بعلة موجبة . وإنما أسند الرحمة اليه ، وعلقها به ، لئلا يتكل العباد على السابقة ، ويتركوا العمل ، الذى هو مقتضى العبودية لله تعالى عليه .

---

(١) يتشوفون : يتطلعون .

(٢) السر : هو الشىء الخفى .

وسر العناية : تعلق الارادة بحصول ذلك السر فى المستقبل .

(٣) لو خلاهم وذلك : أى تركهم ، وملاحظتهم أن العناية الأزلية تختص ببعض الناس ، وليست عامه .

(٤) اعتمادا على الأزل : أى على ما سبق فى علم الله .

(٥) من آية ١٠٥ من سورة البقرة .

(٦) من آية ٥٦ من سورة الاعراف .

تعقيب

الأعمال الصالحة ـــ أمارة وعلامة على ظهور سر العناية الإلهية ، ولهذا لا ينبغى ترك الأعمال ، اعتمادا على ما سبق فى علم الله أزلا .

فمن ترك العمل اعتمادا على الأزل ـــ فهو مغرور ، ذلك أن سر العناية ـــ إنما يكون للمحسنين فى عبادة ربهم ، والمخلصين فى أعمالهم ، ولهذا قال تعالى : « إن رحمة الله قريب من المحسنين »

وكذلك لا ينبغى التطلع الى ظهور سر العناية الالهية ، وطلب ذلك بالدعاء والأعمال الصالحة ، والاعتماد على ذلك ، واعتقاد تأثيره فى حصول ذلك السر ، وذلك لأن سر العناية ـــ ليس عاما لجميع الناس ، وإنما هو خاص ببعض الناس ؛ ولذا يقول الله تعالى : « يختص برحمته من يشاء »

فعلى المريد : أ ن يجمع بين العمل والاحسان والاخلاص ـــ وبين التطلع إلى سر العناية . ولا ينبغى للمؤمن ترك العمل ؛ اعتمادا على ما سبق فى الأزل ، فرحمة الله قريب من المحسنين ، كما لا ينبغى للمؤمن أن يعتمد على المشيئة وحدها ويقف عند ذلك ، فالله يختص برحمته من يشاء .

الحكمة الرابعة والتسعون بعد المائة

قال ابن عطاء الله :

« قَيَّدَ الطَّاعَاتِ ــ بِأَعْيَانِ الأَوْقَاتِ ؛ كَيْ لاَ يَمْنَعَكَ عَنْهَا ــ وُجُودُ التَّسْوِيف ، وَوَسَّعَ عَلَيْكَ الْوَقْتَ ؛ كَيْ تَبْقَى لَكَ حِصَّةُ الإِخْتِيَارِ »

قال ابن عباد :

أنعم الله عليك فيما أمرك به من الطاعات الموقّته بالأوقات ــ بنعمتين عظيمتين :

إحداهما : تقييدها لك بأعيان الأوقات ، لتوقعها فيها ، فتفوز بثوابها ، ولو لم يفعل هذا ــ لسوّفتَ بها ، ولم تعمل بها ، حتى تفوت ، فيفوتك ثوابها .

والنعمة الثانية : توسيع أوقاتها عليك ، ليبقى لك نصيب من الأختيار ، حتى تأتى بالطاعات فى حال سكون ، وتمهل ، من غير حرج ولا ضيق ، فلله الحمد على نعمه .

تعقيـــب

فرض الله على عباده بعض الأحكام والفرائض ، كالصلاة مثلا ، وحدد لها أوقاتا معينة تؤدى فيها . قال تعالى : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » (من آية ١٠٣ من سورة النساء) . ولما كان من طبيعة النفس البشرية تأخير الأعمال ، وتطويل الآمال ــ أنعم الله علينا بنعمتين عظيمتين .

النعمة الأولى : تقييد الطاعات والعبادات بأوقات معينة ، تؤدى فيها ، وعدم اطلاق هذا الوقت ، حتى يمنع التسويف والتأخير فى أدائها ، فيفوت ثوابها .

النعمة الثانية : توسيع وقت الطاعات . رأفة بالعباد ، ورحمة بهم ، وتيسيرا لهم ونفيا للحرج ، والاضطرار عنهم .

وذلك كى يتسنى لهم حرية اختيار الوقت المناسب ، لأداء هذه الطاعات ؛ وبهذا تؤدى هذه الفرائض على أكمل وجه .

لأن الوقت اذا كان متسعا ــ اختار العبد منه ما يلائمه ، لأداء هذه الفرائض ، وتخلى عن الشواغل التى تحول بينه ، وبين استجماع فكره وحضوره بقلبه مع الله حال العبادة .

وحينئذ ، يؤدى المؤمن هذه الطاعات ، بنفس هادئة ، وقلب مطمئن ، واقبال على الله .

وفى الوقت نفسه لا تمنعه هذه الطاعات عن مواكبة حركة عمله فى الحياة ، اذ إنه يمكنه أداؤها فى أول الوقت ، أو فى وسطه أو فى آخره .

وبذلك يجمع المؤمن بين خيرى الدنيا والآخرة .

الحكمة الثامنة والتسعون بعد المائة

قال ابن عطاء الله :

« رُبَّمَا وَرَدَتْ الظُّلَمُ[1] عَلَيْكَ ؛ لِيُعَرِّفَكَ قَدْرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ[2] »

قال ابن عباد :

الظُّلَمُ أضداد الأنوار ، فما من نور الا وفى مقابلته ظلمة ، وكل ظلمة على قدر نورها ، والشىء يعرف بضده ، كما قيل : وبضدها تتبين الأشياء . فما أورده عليك من ظلمات الحجبة والغيبة فى ليالى الهجر والفرقة ــ فإنما ذلك ؛ ليعرفك قدر ما من عليك من أنوار التجلى والحضور فى نهاية القربة والوصلة ، فجميع ذلك نعم سابغة عليك ، من غير علم منك بذلك .

تعقيـــب

قد يأتى الخير من الشر ، وقد تكون النقمة نعمة .

نعم ، فقد يكون ما يرد عليك من الشهوات والمعاصى والغفلات ــ ليعرفك الله ــ سبحانه وتعالى ــ حال ورودها ــ قدر ما تفضل به عليك من قبل من الهداية والتوفيق والانوار ، والإقبال عليه ، فتحمد الله على ذلك ، فتكون تلك نعمة عظيمة .

---

(١) الظلم : جمع ظلمة : ضد النور ، والمراد : الشهوات والمعاصى والغفلات .

(٢) ليعرفك قدر ما من به عليك : منّ : يقال : من عليه منا : أنعم عليه نعمة طيبة ، ومن الله على عباده فهو المنان .

: أى ليعرفك الله سبحانه وتعالى حال ورودها ــ قدر ما تفضل به ، وأنعم به عليك من قبل من الأنوار والإقبال عليه ، فتحمده عليها .

وقد يكون ورود تلك الظلم عليك ـــ بسبب ما حدث منك من الأعجاب بطاعتك ، فأوردها عليك ، لتعرف قدرك ، وتضع نفسك موضعها الحقيقى وهذه نعمة أيضا .

وقد تكون هذه الظلم التى تتوالى عليك ، عقوبة وامتحانا لك ، حين لاتوفق للتوبة ولا تعتقد التقصير من نفسك .

قال الشيخ « زروق » فى شرحه : ابتلاء العبد بالشهوات والغفلات والمعاصى ـــ تارة يكون طردا ، وتارة يكون تأديبا ، وتارة يكون تقريبا : فاذا أثمرت إنابته ـــ كانت تقريبا ، واذا أثمرت انكسارا وتذكيرا ـــ كانت تأديبا ، واذا أثمرت تعلقا بها كانت طردا » .

الحكمة المائتان

قال ابن عطاء الله :

« لاَ تُدْهِشْكَ وَارِدَاتُ النِّعَمِ[1] عَنْ الْقِيَامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ[2] ـــ فَانَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ[3] .

قال ابن عباد :

اذا ترادفت نعم الله تعالى عليك ، فلا ينبغى أن تدهشك عن القيام بشكرها ، من حيث ترى عجز نفسك عن توفية ذلك ، وأن لا قبل لك به فتتركه ، فإن الله تعالى رفع قدرك ، وأعلى أمرك ، وجعل القليل منك كثيرا ، وأشهدك من حسن توليه لك ، ونسبة أفعالك اليه ـــ ما يؤذن بعظم سيادتك ، ورفعة قدرك ، فَلِمَ تبخس نفسك حقها !؟ وتحطها عن قدرها !؟ فتراها عاجزة عن الشكر ، والقيام بمقتضى الأمر لا على وجه الأدب ، والاتيان من الشكر بما وجب ، كأن الأمر فى ذلك إليها ! .

قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : ما من نعمة الا والحمد لله ـــ أفضل منها ، والنعمة التى ألهم بها الحمد ـــ أفضل من الأولى ، لأن الشكر يستوجب المزيد .

وفى أخبار داود عليه السلام : إلهى . ابن آدم ليس فيه شعرة الا وتحتها نعمة ، وفوقها نعمة ! فمن أين يكافئك !؟

---

(١) واردات النعم : النعم الواردة أى المتابعة والمترادفة عليك .

(٢) بحقوق شكرك : أى شكر المولى عليها ، فهو المتفضل بها .

(٣) فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك : أى أن ترك الشكر ـــ يحط من قدرك .

فأوحى الله تعالى اليه : ياداود . إنى أعطى الكثير ، وأرضى باليسير ، وإن شكر ذلك : أن تعلم أن ما بك من نعمة — فمنى ؟!

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : إنى بأرض كثرت فيها النعم ، حتى لقد أشفقت علىّ من قبل ضعف الشكر !

فكتب اليه عمر : إنى كنت أراك أنك أعلم بالله ، فما أنت !

إن الله تعالى لم ينعم على عبد نعمة ، فحمد الله عليها — الا كان حمده أفضل من نعمته ، لو كنت لا تعرف ذلك الا فى كتاب الله المنزل ، قال تعالى : « ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين[1] » ،

وقال تعالى : « وسيق الذين اتقو ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم ، فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده[2] . . . الخ .

وأى نعمة أعظم من دخول الجنة .

تعقيب

أنعم الله على عباده ، بنعم كثيرة ، لا تعد ولا تحصى » وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »

فيأيها العبد المؤمن — اذا وجدت نفسك مغمورا بنعمه — عز وجل — فلتبادر الى شكره على هذه النعم ، ولا تتوان عن القيام بحق المنعم فيما أنعم به عليك ولا تبخس نفسك حقها ، ولا تحط من قدرها بترك الشكر ، فقد رفع الله قدرك ، فجعل القليل منك كثيرا ، وادخر لك عليه جزاء كبيرا ، « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » .

كما أن الشكر يزيد النعم « لئن شكرتم لأزيدنكم »

---

(١) آية ١٥ من سورة النمل .

(٢) آية ٧٣ ، ٧٤ من سوة الزمر .

ومن شكر النعم : القيام بحق الله فيها ، والاعتراف بالنعمة « وأما بنعمة ربك فحدث » ..

كما أن الإقرار بأنها من عند الله — نوع من الشكر « وما بكم من نعمة فمن الله » . كذلك من شكر النعمة — حمد الله عليها « الحمد لله رب العالمين » . « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » ، « وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض ، نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين » .

الحكمة الحادية بعد المائتين

قال ابن عطاء الله :

« تَمَكُّنُ حَلاَوةِ الْهَوَى مِنَ الْقَلْبِ[1] — هُوَ الدَّاءُ الْعُضَالُ[2] »

قال ابن عباد :

القلب محل الايمان والمعرفة واليقين ، وهذه هى الأدوية لأمراضه ، التى أوجبها وجود الهوى والشهوة ، فإذا تمكن الداء من القلب — لم يبق للدواء محل ، فلذلك أعضَلَ أَمْرُهُ ، وتَعذر بُرْؤهُ .

تعقيـــب

«حلاوة الهوى على قسمين : هوى النفس ، وهوى القلب »

فهوى النفس : يرجع لشهواتها الجسمية : كحلاوة المآكل والمشارب والملابس والمساكن .

وهوى القلب : هو شهواته المعنوية : كحب الجاه والرياسة والعز .

فأما علاج هوى النفس — فأمره قريب ، ويمكن علاجه بالفرار من أوطان ذلك ، والزهد وصحبة الاخيار .

---

(١) التمكن من القلب : هو الاستقرار فيه .
الهوى : ميل النفس ، والمراد به : المهوى ، وهو الشهوات الدنيوية . حلاوة الهوى : لذته المدركة بالوجدان ، وتمكنها من القلب : رسوخها فيه .

(٢) الداء العضال : هو ما يتعذر برؤه ويصعب شفاؤه . يقال : داء عضال لا طب له .

وأما علاج هوى القلب اذا تمكن – فهو صعب ، وهو الداء العضال الذى أعضل الأطباء ، أى أعجزهم ، وحبسهم عن علاجه ، فلايزيده الدواء الا تمكنا وإنما يخرجه وارد إلهى ، بعناية سابقة بواسطة أو بغير واسطة ، كما أشار الى ذلك « ابن عطاء الله » بقوله : « لا يخرج الشهوة من القلب الا خوف مزعج ، أو شوق مقلق »

(مما قاله « ابن عجيبة » فى « ايقاظ الهمم »

هذا وقد قال بعضهم : « نحت الجبال بالأظافر – أيسر من زوال الهوى اذا تمكن » وصدق الله العظيم اذ يقول : « أفرأيت من اتخذ آلهه هواه ، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون » (آية ٢٣ من سورة الجاثية)

الحكمة الثالثة بعد المائتين

قال ابن عطاء الله :

« كَمَا لا يُحِبُّ الْعَمَلَ الْمُشْتَركَ ـ كَذَلِكَ لاَ يُحِبُّ الْقَلْبَ الْمُشْتَركَ : الْعَمَلُ الْمُشْتَركُ لاَ يَقْبَلهُ ، والْقَلْبُ الْمُشْتَركُ لا يُقْبِلُ عَلَيْه »

قال ابن عباد :

العمل المشترك هو المشوب بالرياء والتصنع ، والقلب المشترك هو الذى فيه محبة غير الله تعالى والسكون اليه ، والاعتماد عليه ، فالعمل المشترك معتل بنظر صاحبه الى الناس ، والقلب المشترك معتل بنظر صاحبه الى نفسه .

فالعمل المشترك لا يحبه ولا يقبله ، ولا يثيب عليه ، لفقد الاخلاص منه ، والقلب المشترك لا يحبه ، ولا يقبل عليه ، ولا يرضى عنه ، لعدم وجود الصدق فيه .

فمن صحح أعماله بالاخلاص ، وأحواله بالصدق ـ كان محبوبا لله تعالى ، مثابا مرضيا عنه ، والا فلا .

تعقيب

الله سبحانه وتعالى يجب أن يكون العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يكون القلب كذلك خالصا له سبحانه .

ولذا ، فالعمل المشترك ـ المشوب بالرياء أو التصنع أو العجب أو طلب العوض ـ لا يثيب الله صاحبه عليه ، لعدم اخلاصه فيه .

وكذلك القلب المشترك الذى يحب غير الله ، ويسكن اليه ، ويعتمد عليه ، لا يرضى الله عن صاحبه ، ولا يثيبه ، لعدم وجود الصدق منه .

قال تعالى : « فاعبد الله مخلصا له الدين . ألا لله الدين الخالص » (من آية ٢ ، ٣ من سورة الزمر)

وقال تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه — فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » (آية ١١٠ من سورة الكهف) .

وفى الحديث يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى — تركته وشريكه » .

الحكمة الثامنة بعد المائتين

قال ابن عطاء الله :

« حُقُوقٌ فِي الْأَوْقَاتِ — يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا ، وَحُقُوقُ الْأَوْقَاتِ — لاَ يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا ؛ إِذْ مَا مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إِلاَّ وَلِلَّهِ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ ، وَأَمْرٌ أَكِيدٌ ؛ فَكَيْفَ تَقْضِي فِيهِ حَقَّ غَيْرِهِ ، وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ اللهِ فِيهِ !؟ »

قال ابن عباد :

الحقوق الكائنة فى الأوقات ، هى وظائف العبادات الظاهرة من صلاة وصيام وغيرهما ، فمن فاته شيء منها فى وقته المعين — أمكنه قضاؤه فى وقت آخر ، اذ قد جعل له فى ذلك مجال رحب ، فيستدرك فيه ما يفوته من تلك الحقوق ، والحقوق المضافة الى الأوقات — هى المعاملات الباطنة التى تقتضيها أحوال العبد ، وواردات قلبه المتلونة عليه ، ووقت كل عبد ما هو عليه من ذلك .

فالعبد مطالب بحقوق جميع ذلك عند وروده عليه ، اذ لله تعالى على كل عبد عند كل حال يحل به — وارد يرد عليه — حق جديد وأمر أكيد ، ولا يسعه الا أن يوفيه اذ ذاك . فان فاته لم يجد مجالا لقضائه ، ولا يمكنه ذلك .

فعلى العبد أن يكون مراقبا لقلبه ؛ حتى يقوم بمراعاة تلك الحقوق التى لا يمكنه قضاؤها ان فاتت .

قال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله تعالى عنه : أوقات العبد أربعة ، لا خامس لها : النعمة والبلية والطاعة والمعصية ، ولله عليك فى كل منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية .

فمن كان وقته الطاعة ــ فسبيله شهود المنّة من الله عليه أن هداه لها ، ووفقه للقيام بها .

ومن كان وقته للمعصية ــ فمقتضى الحق منه وجود الاستغفار والندم ، ومن كان وقته النعمة ــ فسبيله الشكر ، وهو فرح القلب بالله ، ومن كان وقته البلية ــ فسبيله الرضا بالقضاء والصبر ، والرضا رضا النفس عن الله ، والصبر مشتق من الإصبار ، وهو نصب الغرض للسهام ، وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضا لسهام القضاء ، فان ثبت لها ــ فهو صابر ، والصبر ثبات القلب بين يدى الرب .

وفى الحديث عن رسول ﷺ : « من أعطى فشكر ، وابتلى فصبر ، وظُلِمَ فغفر ، وظَلَمَ فاستغفر ، ثم سكت رسول الله ﷺ ، فقالوا : ماذا له يا رسول الله ؟ فقال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون « أى لهم الأمن فى الآخرة وهم المهتدون فى الدنيا .

تعقيب

الحقوق التى فى الأوقات ــ هى الطاعات التى عين الله لها وقتا محدودا ، كالصلوات الخمس ، فإن خرج وقتها ــ أمكن قضاؤها .

وأما حقوق الأوقات ــ فهى مراقبة الحق ، أو مشاهدته ، كل على قدر وسعه : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » ، « لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها » .

وهذه الحقوق اذا فات وقتها ــ لا يمكن قضاؤها ، فما من لحظة ــ الا ويجب عليك فيها أن تكون عاملا لله ، مشتغلا فيها ، بما يوصلك الى قربه ورضاه . فكل وقت له حق ، فإن فات ــ فلا قضاء له .

واعلم أن القيام بحقوق الأوقات على التمام ــ يكاد أن يكون متعذرا فى حق البشر . قال تعالى : « وماقدروا الله حق قدره »

لكن الله قد « يختص برحمته من يشاء » (مما قاله ابن عجيبة فى ايقاظ الهمم) .

الحكمة الحادية عشر بعد المائتين

قال ابن عطاء الله :

« لا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ ، وَلا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ ، وَإِنَّمَا أَمَرَكَ بِهَذِهِ ، وَنَهَاكَ عَنْ هَذِهِ — لِمَا يَعُودُ عَلَيْكَ »

قال ابن عباد :

الحق تعالى غنى عن أعمال العاملين ؛ لأنه منزه عن الأعواض والأغراض ، فلا تنفعه طاعتك ، ولا تضره معصيتك ، وانما أمرك ونهاك ، لما يعود عليك من المصالح والمنافع فى الدارين ، لا غير . وذلك على سبيل التفضل منه ، من غير ايجاب عليه ، وقد تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله : « عجب ربك من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل » .

قال فى لطائف المنن : اعلم رحمك الله : أن الله لم يأمر العباد بشىء وجوبا ، أو يقتضيه منهم ندبا — الا والمصلحة لهم فى ذلك الأمر ، ولم يقتض منهم ترك شىء ، تحريما أو كراهة — الا والمصلحة لهم فى ترك ما أمرهم بتركه وجوبا ، أو ندبا ، ولسنا نقول كما قال من عدل به عن طريق الهدى : إنه يجب على الله رعاية مصالح عباده . بل نقول : ذلك عادة الحق وشرعته المستمر فعلها مع عباده على سبيل التفضل ، فليت شعرى اذا قالوا يجب على الله رعاية مصالح عباده ! .
فمن هو الموجب عليه ؟ ثم اذا نظرنا فرأينا كل ما هو واجب أو مندوب اليه — يستلزم الجمع على الله ، وكل منهى عنه أو مكروه — يتضمن التفرقة عنه .
فاذا مطلوب الله من عباده وجود الجمع عليه ، لكن الطاعات هي أسباب الجمع

ووسائله ؛ فلذلك أمر بها ، والمعصية هى أسباب التفرقة ، ووسائلها ؛ فلذلك نهى عنها .

تعقيـــب

الحق سبحانه وتعالى ــ غنىٌ عن كل شيء ، مفتقر اليه كل شيء ، قال تعالى « يأيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد » (آية ١٥ من سورة فاطر) . وهو ــ جل شأنه ــ لا تنفعه طاعه الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، وانما أمر بالطاعة ؛ ليقرب العباد اليه « إن رحمة الله قريب من المحسنين » (من آية ٥٦ من سورة الاعراف) .

ونهى عن المعصية ، لما فيها من البعد عن الله ، والضرر بالعباد .

فالعبد مفتقر الى الله دائما ، وعبوديته لله ، وطاعته له ــ يجنى منها أعظم الفوائد ويتعرض بها لنفحات الرحمة ، ويظفر بها بخيرى الدنيا والآخرة .

فلتشكر ــ أيها العبد ــ ربك على نعمة الطاعة ، ولتعلم أنه « لا يزيد فى عزه اقبال من أقبل عليه ، ولا ينقص من عزه إدبار من أدبر عنه » .

ففى الحديث القدسى : « لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ــ كانوا على أتقى قلب رجل واحد ــ مازاد ذلك فى ملكى شيئا ، ولو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم ــ كانوا على أفجر قلب رجل واحد ــ ما نقص ذلك من ملكى شيئا » .

الحكمة الثامنة والثلاثون بعد المائتين

قال ابن عطاء الله :

« مَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضُعاً[1] ــ فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ حَقاً : إِذْ لَيْسَ التَّوَاضُعُ إِلا عَنْ رِفْعَةٍ فَمَتَى أَثْبَتَّ لِنَفْسِكَ رِفْعَةً[2] ــ فَأَنْتَ الْمُتَكَبِّرُ حَقاً[3] .

قال ابن عباد :

اثبات التواضع ــ يقتضى وجود الرفعة لا محالة ، اذ لو كانت معدومة ــ لكان ضدها ، وهو الضعة ــ ثابتا موجودا ، ولا ينتفى عن العبد التكبر ــ الا بوجود الضعة ، ووجود الضعة لا يحتاج الى الاثبات من العبد ، لأنه ثابت فى نفسه .

فالتواضع الذى أثبته العبد لنفسه ــ لا ينفى عنه وجود التكبر بالضرورة ، وأيضا فإن لفظة التواضع ــ تؤذن بذلك ، فان التواضع ــ تفاعل من الضعة ، وأكثر باب التفاعل ــ موضوع لاظهار الصفة ، وليست كذلك ، كالتناوم والتناكر والتفارح والتماوت وغير ذلك .

فصيغة التواضع لا تقتضى حقيقة الضعة ، وعدم الرفعة ، ولا يلزم من وجودها ذلك .

---

(١) التواضع : هو مجاهدة النفس فى وضعها وسقوطها ، فهى تريد الرفعة ، وأنت تريد السقوط .
من أثبت لنفسه تواضعا : أى من خطر بباله أنه متواضع .
اذ ليس التواضع الا عن شهود رفعة : اى ليس التواضع الذى أثبته لنفسه ناشئا الا عن شهود رفعة ، كان يستحقها ، وأنه تنازل عنها ، وذلك هو عين التكبر .

(٢) فمتى أثبت لنفسك رفعة : أى فى ضمن إثبات التواضع (وفى بعض النسخ : فمتى أثبت لنفسك تواضعا)

(٣) فأنت المتكبر حقا : لأنك جعلت لنفسك قدرا زائدا على خلق الله .

والمطلوب من العبد – انما هو أن يتصف بذلك حقيقة ، لا إظهاراً فقط ، بأن ينتفى عنه وجود الرفعة بالكلية ، وحينئذ يبرأ العبد من التكبر ، ولا يكون له وجود البتة .

تعقيب

من أثبت لنفسه تواضعا ، ورأى أنها تواضعت دون قدرها – فهو المتكبر حقا ، إذ ليس التواضع ، واثباته للنفس الا عن رفعة لها أولا .

وأنت لا تكون متواضعا ، حتى ترى الأشياء كلها مثلك ، أو أحسن منك ، وألا ترى لنفسك مرتبة ولا قيمة .

وقد أشار ابن عطاء الله فى حكمة تالية الى التواضع الكامل ، والمتواضع الحقيقى حيث قال : « ليس المتواضع الذى اذا تواضع – رأى أنه فوق ما صنع ، ولكن المتواضع الذى اذا تواضع – رأى أنه دون ما صنع »

وقال أبو يزيد رضى الله تعالى عنه : ما دام العبد ينظر أن فى الخلق من هو شر منه – فهو متكبر . قيل : فمتى يكون متواضعا ؟ قال : اذا لم ير لنفسه حالا ولا مقاما .

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ : « انما الكرم التقوى ، وانما الشرف التواضع ، وانما الغنى اليقين ، والمتواضعون فى الدنيا – هم أصحاب المنابر يوم القيامة . اذا تواضع العبد رفعه الله الى السماء السابعة ، ولا يزيد التواضع العبد الا رفعة ، فتواضعوا ؛ ليرفعكم الله ، واذا رأيتم المتواضعين من أمتى – فتواضعوا لهم ، واذا رأيتم المتكبرين من أمتى – فتكبروا عليهم ؛ فان ذلك مذلة لهم وصغار بهم .

« وكان بعض العارفين اذا عارضه كلب فى الطريق – يوسع له ، ويمشى هو أسفل منه ، ويقول : هو أولى بالكرامة ؛ لأنى كثير الذنوب ، والكلب لا ذنب له .

(مما قاله ابن عجيبة فى إيقاظ الهمم) وذكره ابن عباد فى شرحه

الحكمة الستون بعد المائتين

قال ابن عطاء الله :

« مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمْرِه[1] ــ أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ الزَّمَنِ[2] مِنْ مِنَنِ اللهِ تَعَالى[3] مَالاَ يَدْخُلُ تَحْتَ دَوَائِرِ الْعِبَارَةِ[4] ، وَلاَ تَلْحَقُهُ الإِشَارَةُ »[5] .

قال ابن عباد :

البركة فى العمر ــ أن يرزق العبد من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته وانتهاز فرصة امكانه ، خشية فواته ، فيبادر الى الأعمال القلبية والبدنية ، ويستفرغ فى ذلك مجهوده بالكلية ، وفى أثناء ذلك يصل اليه من المنح الالهية ، ويشرق عليه من الأنوار الربانية ــ ما تعجز العبارة عنه ، ولا تنتهى الاشارة اليه ، وكل ذلك فى زمن يسير ، وعمر قصير ، فيرتفع له فى شهر مثلا ــ مالا يرتفع لغيره فى ألف شهر ، بمنزلة ليلة القدر ، العمل فيها لمن صادفها ــ خير من العمل فى ألف شهر .

قال بعض العلماء كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر .

كان سيدى أبو العباس المرس رضى الله عنه ، يقول : أوقاتنا ــ والحمد لله ــ كلها ليلة القدر فهذا هو البركة فى العمر ، لا تطويله ، وزيادة مدته .

---

(١) البركة : الخير المتدارك . وبركة العمر تكون بالأعمال والأحوال والعلوم والمعارف .

من بورك له فى عمره : أى من أراد الله أن ينزل البركة فى عمره ــ رزقه الاقبال على مولاه .

(٢) ادرك فى يسير من الزمن . . . الخ ... أى أن البركه فى العمر أن تدرك فى عمرك القصير بيقظتك ما فات غيرك فى عمره الطويل بغفلته .

(٣) منن الله : نعمه وفضله واحسانه ، ومايمتن به . جمع منة : الاحسان والإنعام .

(٤) مالا يدخل تحت دوائر العبارة : أى مالا تحيط به العبارة لكثرته .

(٥) ولا تلحقه الاشارة : أى لا تصل اليه الاشارة لرقته وصفائه .

وقيل هذا المعنى فى تأويل ماروى فى الخبر : « البر يزيد فى العمر » .

تعقيــــب

ليست العبرة بطول العمر ، وإنما العبرة بالبركة فيه ، وليست البركة فى العمر بكثرة أيامه ، وطول أزمانه ، وإنما البركه فيه ــ بما يصحبه من العناية الالهية . فمن بارك الله له فى عمره ــ رزقه فطنة ويقظة ، فيغتنم أوقاته ،ويبادر الى الأعمال الصالحة فى جميع ساعاته .

وبهذا يدرك فى زمن يسير ، وعمر قصير ــ مما يمتن به الله عليه ــ ما تعجز عنه العبارة لكثرته وشرفه ، ولا تصل اليه الاشارة ، لرقته وصفائه .

وحينئذ يرتفع له فى كل ليلة من لياليه من الأعمال الصالحة ــ ما لا يرتفع لغيره فى ألف شهر ، فتكون لياليه مثل ليلة القدر ، العمل فيها خير من العمل فى ألف شهر .

فإذا عمرت أوقاتك بذكر الله ، وطاعته والعمل الصالح ــ فعمرك طويل ، وإن قلّت أيامه ، وإن شغلتك الشواغل عن ذكر الله ، والتقرب اليه ، والعمل الصالح ــ فعمرك قصير ، وإن طالت أيامه .

وقد أشار الى ذلك المعنى « ابن عطاء الله » فى إحدى حكمه فقال :

« رب عمر اتسعت آماده ، وقلت أمداده ، ورب عمر قليلة آماده ، كثيرة أمداده » .

رقم الايداع بدار الكتب

٢٠٩٠ / ٨٨

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر



أصبح تراث عباقرة العرب والمسلمين السالفين على قيمته وأهميته ، بعيدا عن فهم الأجيال الجديدة ، نتيجة للظروف المعقدة لعصر السرعة من حيث تصارع وسائل الثقافة ، وتزاحم مصادر التوجيه ، واختلاف القدرات وضيق الوقت عن متابعة هذه الأعمال في صورتها الأصلية وانحصار المناهج المقررة في كتب معينة لا تتجاوزها .

ومن هنا كان اهتمامنا بسلسلة « تقريب التراث » ، محاولة لوضع المؤلفات الكبيرة الذائعة الشهرة ، في متناول الكثرة الغالبة من القراء ، بالاستعانة بمجموعة متميزة من العلماء والمتخصصين ، تتولى عبء تقريبها ، مع مراعاة الاحتياجات الفكرية للعصر . .

الناشـــر

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء ـ القاهرة



مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر